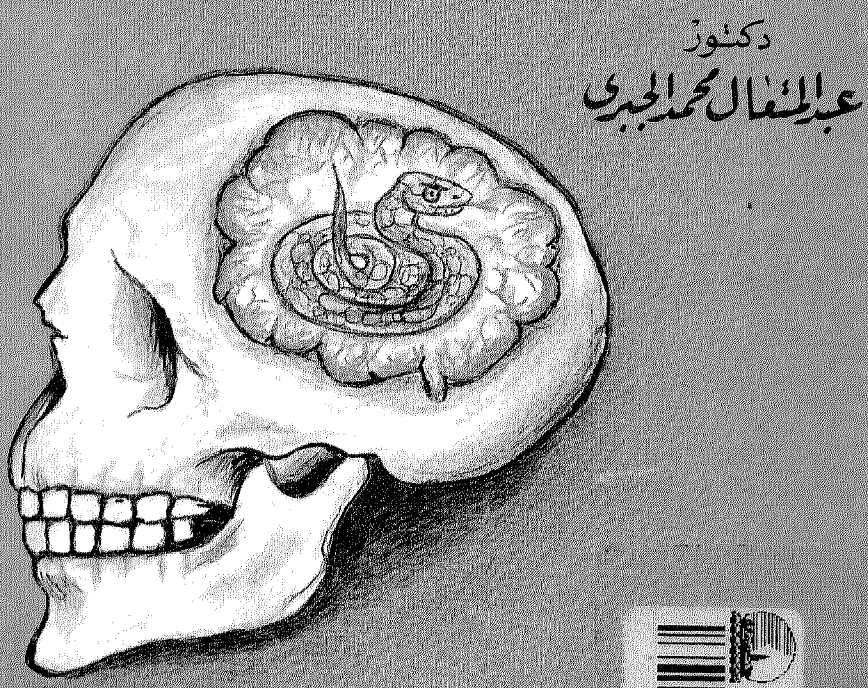
الاستشراق

وجه للاستعمار الفكري

دكتور
عبد المتعال محمد الجبري





الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

دكتور
عبد المتعال محمد الجبري



دراسة فى تاريخ الاستشراق وأهدافه
وأساليبه الخفية فى الغزو الفكرى للإسلام

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت: [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾

« محمد : ٢٩ - ٣٠ »

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الذين رصدوا أرواحهم للدين الحق ابتغاء الحق ، رجاءَ الكرامة فى دار الحقِ ، أقدم هذه الصفحات علَّها تكشف لهم جانباً من جوانب المعركة الكبرى التى عقد الله معهم صفقتها بنفسه فقال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ (١) .

وبين جوانحى رغبة عارمة فى أن يتصدق أولئك الأبرار علىَّ بدعوةٍ تنجينى من النار ، وتهدينى إلى صراط العزيز الحكيم ، دعوة حينَ ينهضون لربهم - ذات ليلة - ويشعرون أنهم على الطريق المحمدى يَدَّلجون (٢) .

د . عبد المتعال محمد الجبرى

* * *

---

(١) التوبة : ١١١

(٢) يقال للمرء أَدْلج ويُدْلج إذا سار فى أول الليل ، ويقال أدَّلج ويدَّلج إذا كان السير فى آخر الليل .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حمداً لله . . وصلاة وسلاماً زاكيين على رسول الله وعلى آله وأصحابه السالكين طريقه إلى يوم الدين .

وبعد . .

فهذه دراسة عن الاستشراق وأهدافه العامة ، تكشف عن طريقة وطبيعة دراسة المستشرقين للإسلام وتاريخه والسيرة النبوية المطهرة ، وردٌ على أباطيلهم ، وقد جعلت هذه الدراسة فى فصول ثلاثة .

الفصل الأول - الاستشراق وأهدافه : بينت فيه أغراضه العلمية والاقتصادية والسياسية والتبشيرية وغرض استصلاح المسيحية .

وفى الغرض العلمى : تناولت تاريخ الجمعيات الآسيوية والمؤتمرات الاستشراقية ، والدراسات الخاصة والترجمة ، ومعاهد اللغات الشرقية والمكتبات والمخطوطات الشرقية والرحلات العلمية للمستشرقين ومنابر اللغة العربية واللغات السامية ، وذكرت نماذج من المؤلفات الإسلامية التى نقلها المستشرقون إلى اللغات الحية للإفادة منها فى الفلك والجغرافيا ، وفى التاريخ ، وفى العلوم والطب ، وفى الشريعة والأدب واللغة .

وفى الأغراض الاقتصادية : تناولت الدافع التجارى والتكسب من الاستشراق والهواية والترف .

وفى الأغراض السياسية : بينت سبب الاهتمام بالدراسات الشرقية - وبخاصة الإسلامية - وذكرت قائمة توضح كيف أن الاستشراق ستار يلعب وراءه السياسيون ، فذكرت أسماء ووظائف بعض السياسيين المستشرقين ،

فرنسيين أو إنجليز أو أمريكان أو إيطاليين أو غيرهم ، كما تحدثت عن العسكريين المستظلين براية الاستشراق ، أو المستشرقين العاملين فى خدمة القوات المسلحة المقاتلة لجيوش الإسلام أو الشرق ، ثم تناولت بعض العمليات السياسية الاستشراقية ؛ فتحدثت عن أدب الفخر بالإسلام وعن الفراغ العقلى وإيجاده فى البلاد الإسلامية ، وعن لجان المتابعة لعمليات شغْل المسلمين عن واجبهم ، وعن المسح الاجتماعى للبلاد ، وعن تأجيج الحقد فى نفوس الغربيين ، وعن مُعامل الارتباط بين الاستعمار وازدهار الاستشراق .

وفى الأغراض التبشيرية : تحدثت عن رعاية الرهبان لدراسة اللغة العربية وسبب ذلك . وذكرت قائمة ببعض المستشرقين من رجال الدين فى إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا والدانمارك والسويد وإسبانيا وبولونيا والمجر والنمسا ، وهولندا وسياستها التبشيرية فى أندونسيا ، وقائمة بالمستشرقين المبشرين أو رجال الدين بأمريكا وبخاصة المعاصرين ، وتكلمت عن الاستشراق والصراع الدينى بين المسيحيين فى روسيا والإسلام ، ثم عن العمليات الاستشراقية الرائدة فى الجامعات الغربية .

وفى استصلاح المسيحية تحدثت عن حركة « لوثر » واهتمامها بالعربية والعبرية وسبب ذلك دينياً .

الفصل الثانى - تاريخ الاستشراق : وتناولت فيه كيف بدأ وسار فى كل من الأندلس وفرنسا وصقلية وإيطاليا وإنجلترا وروسيا والنمسا والدانمارك والمجر وهولندا وأمريكا .

الفصل الثالث - النظرة إلى المستشرقين وكتاباتهم : وبينت أن أقل أثر للاستشراق هو انقسام المفكرين والكُتَّاب حولهم وحول ما يثيرونه من أفكار ، كما تناولت أسلوب المستشرق بين العلانية والخفاء ، وما كان عليه أسلوبهم فى العصور الوسطى ثم بعد عصر النهضة فى الحديث عن الإسلام وتاريخه ، أو عن الرسول والرسالة .

وذكرت « أساليب الحرب الفكرية الخفية » : التدرج بالرواية - التجاهل لمواقف العظمة فى الرسول أو الإسلام - تصيّد الروايات الضعيفة والمنكرة -

الإلحاد والتشكيك فى النبوات - الطعن غير المباشر - التضليل عن المراد بالأسلوب : أحقيقة أم مجاز ؟ - التفسير الخاطىء للتاريخ - التحريف للنصوص - الأفكار السائدة فى المجتمع الغربى كقاعدة للفكر - تزوير الحقائق التاريخية كدعوى إحراق عمرو بن العاص مكتبة الإسكندرية ومناقشة الدعوى . .

وتحدثنا عن آثار هذا التجريح وعن سبب اهتمام بعض المستشرقين بتجريح الرسول - ومن الأساليب الخفية إضعاف الفصحى ونشر العامية ، وتوسيع الخلاف بين المسلمين باسم الدراسات للفِرَق الإسلامية ، ثم ختمنا الفصل ببيان الدوافع وأسباب انحراف المستشرقين عن الصواب والحق .

وبعد هذا العرض الموجز السريع لما تحتويه هذه الدراسة أترك للقارىء تقديرها . . وأرجو الله أن ينفع بها ويجعلها خالصة لوجهه ، والكمال لله وحده ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

د . عبد المتعال محمد الجبرى

* * *

الفصل الأول

الاستشراق وأهدافه

- الأغراض العلمية .
- الأغراض الاقتصادية .
- الأغراض السياسية .
- بعض العمليات السياسية الاستشراقية .
- الأغراض التبشيرية .
- قائمة ببعض المستشرقين من رجال الدين .
- سياسة التبشير فى أندونيسيا .
- استصلاح المسيحية .
- مذاهب الرهبنة .

الاستشراق وأهدافه

● المراد بالاستشراق :

يراد بالاستشراق دراسة علوم الشرق ، وأحواله وتاريخه ، ومعتقداته وبيئاته الطبيعية والعمرانية والبشرية ، ودراسة لغاته ولهجاته وطبائع الأمة الشخصية فى كل مجتمع شرقى ، فلكل أمة مشخصاتها ، ودراسة الأشخاص والهيئات والتيارات الفكرية والمذهبية فى شتَّى صورها وأنواعها .

وفى عهد الإصلاح الدينى بدأ الاستشراق ينتشر فى أوروبا . ولهذا قام فى أول أمره على أكتاف المنصِّرين والرهبان ، ثم اتصل بالاستعمار .

* *

● طرائف استشراقية :

قال الأستاذ « محمد الأسعد » تحت عنوان « طرائف استشراقية » :

« والوافدون إلى المشرق منذ القرن السادس عشر لم يروا فى هذا الشرق إلا وقائع وأحداث التوراة ، فالأهرام المصرية هى خزائن القمح التى أنشأها « يوسف بن إسرائيل » ، وهليوبوليس هى المخبأ الذى استراحت فيه العائلة المقدسة ، أما العظام المبعثرة على شاطئ البحر فهى عندهم بقايا فرعون وجنوده الذين غرقوا فى ذلك المكان أثناء مطاردة الإسرائيليين .

بل ويتجاوز الفكر الإسرائيلى فى النصارى حدود العرب إلى ما وراءها ، فإن مبعوث جمهورية البندقية عام ١٤٧٢م رأى فى صورة « رستم » الذى يمثل الملك الساسانى « شابور الأول » صورة « شمشون » التوراتية .

ورأى الإنجليزى « بورنر » (١٨٠٧) نقوش بهسنون الفارسية ، فقال

عن « داريوس » الفارسى إنه « شلمنصر الثالث » ، وفسر الشخوص المائة المائلة أمامه على أنها الأسباط الإسرائيلية العشرة ، أما غطاء الرأس المدبب على رأس آخر الملوك الأسرى ففسره بأنه عمامة الكهنة المنحدرين من سبط « لاوى » .

لم يكن الأمر إذن أمر قراءة واقع ووقائع بل إسقاط وعى زائف ، وإنشاء وتدعيم أسطورة قبل كل شيء » .

ومن ثَمَّ نجد لليهود تجمعات فى إيران ، وكأنهم الطابور الخامس لزحف إسرائيل الكبرى التى تتوقع أنها ستحكم العالم ، وليس فقط من النيل إلى الفرات .

* *

● رحلة نيبهر (١٧٦١ - ١٧٦٧م) :

نشرت جريدة « كوبنهاجن بوست » فى (١٧٦١/١/٢٠) أن رحلة « نيبهر » الدانمركية هدفها مخطوطات شرقية ذات قيمة ، وهى من أجل تقدم المعارف بعامة ، ومن أجل ترجمة أكثر صحة للكتاب المقدس بخاصة .

وقد جاء في كتاب « توركيو هانسن » أن فكرة الرحلة جاءت أساساً باقتراح من الدكتور « يوهان ميخائيليس » من جامعة « جوتنجين » قال فيه : « إن القيام برحلة إلى البلاد العربية سوف يلقى الأضواء على كل الأمور والتساؤلات المتعلقة بالدراسات اللُّغوية للكتب المقدسة .

فعلى سبيل المثال يمكن التعرف على الأشجار والحيوانات بالبلاد العربية واختبارها ومطابقتها بما جاء ذكره فى التوراة ، كما يمكن دراسة جغرافية شبه الجزيرة العربية ، وبخاصة حركة المد والجزر فى البحر الأحمر كعامل كبير فى محاولة فهم موضوع الهروب من مصر .

---

(١) القبس فى ١٩٨٥/١/٣١

ثم قال « هانسن » : إن « ميخائيليس » كان مقتنعاً بأن فى العربية السعيدة - يعنى اليمن - إمكانية عظيمة لوجود آثار متنوعة شبيهة بتلك التى فى إسرائيل القديمة ، وأحسن من تلك التى فى فلسطين » .

أقول : ومن أجل ذلك الوهم كان استقرار اليهود فى اليمن أيضاً إلى أن قامت إسرائيل فهاجروا إليها ، وكان موطنهم فى صنعاء فى الأراضى التى أقيمت عليها الجامعة .

ومن هذا المنطلق كانت دراسة الدكتور « صليبة » اللُّغوية التاريخية التى انتهى فيها إلى ان الأسماء التوراتية المعروفة فى فلسطين إنما هى منقولة عن أصلها الموجود فى منطقة « عسير » التى تمتد من اليمن إلى الحجاز .

وقد جاء فى التوصيات الملكية الأخيرة لأعضاء البعثة أن عليهم شراء مخطوطات التاريخ الطبيعى والجغرافيا والتاريخ ، وشراء المخطوطات القديمة للتوراة ، ونسخ الترجمة العربية للتوراة ، وبخاصة الغائر منها فى القدم .

وعليهم أن يلاحظوا تقاليد وعادات أهل البلاد ، وبخاصة تلك التى ألقى عليها القليل من الضوء - الكتاب المقدس والتوراة اليهودية - وعليهم أن يعملوا ويكتشفوا كل شىء عن العرب والإسرائيليين والسوريين (الشوام) ، ويسجِّلوا أى اختلافات يجدونها عما جاء فى التوراة

ولشد ما كانت خيبة البعثة عندما ذهبت إلى سيناء ، وزارت جبل المكاتب ، ولم تجد إلا النقوش الفرعونية ، ولا آثار لليهود أو العبرانيين ، وقد اتهم عضو البعثة « ڤون هاڤن » العالم اللُّغوى بالإهمال .

ورغم أن « نيبهر » (١٧٣٣ - ١٨١٥) ذهب بنفسه إرضاءً للإرادة الملكية ، وعاد بمثل ما عاد به صاحبه « ڤون هاڤن » ولكن ضغط التوراة أو العهد القديم على الأوربيين يجعلهم يتنكرون للحقائق والبحوث العلمية ويمعنون مع أساطير التوراة وكتابها .

* * *

أهداف الاستشراق

تنوعت أهداف الاستشراق وهى تدور على المحاور الآتية :

١ - الفائدة العلمية .
٢ - الأغراض الاقتصادية .
٣ - الأغراض السياسية .
٤ - الأغراض التبشرية .
٥ - استصلاح المسيحية .

● **الأغراض العلمية :**

كان الغرض الأول من دراسة المشرقيات هو استفادة الغرب من علوم الشرق وآدابه . فقد رأت أوروبا أنها لا تستطيع أن تنهض وتتخلص من الحكم العربى المسيطر على أوروبا إلا بالعلم الذى أقام عليه المسلمون فتوحهم وحكمهم .

وكان هذا المنزع الأوروبى بعد أن تحول حكام المسلمين إلى مجرد ملوك ، إذ وضعوا مصاحفهم ورسالة الإصلاح جانباً ، وأحلّوا رؤوسهم تيجان الملك الوراثى الذى لا يعرف له رسالة خارج دائرة القصر والحشم .

وقد أدرك رجال الدين المسيحى أنه لا يفل الحديد غير الحديد ، وأن الإسلام لم يغزهم إلا بالعلوم التى تربَّع على عرشها المسلمون بينما جثت أوروبا تحت أقدامهم .

ولهذا فإننا نرى فى فجر الاستشراق انكباباً واضحاً على العلوم الكيميائية والرياضية والفلسفية من رواد الاستشراق وكبار الرهبان ، ولهذا تأسست الجمعيات العلمية فى معظم الدول الغربية ، وهو غرض علمى يستهدف انهاض الغرب ، كما يستهدف إنقاذ المسيحية وتطوير العمل لها فى نفس الوقت ، ومع هذا فقد أفصح « يوهان فيوك » عن الهدف فقال : إن الاستشراق لم يكن عملاً علمياً محضاً ، بل إن المراد منه هو الرد على

الإسلام ، والتبشير بالنصرانية بين المسلمين ، ذلك بتراجم عربية للإنجيل ؛ وذلك فى كتابه « تاريخ الاستشراق والمستشرقين فى أوروبا بدءاً من القرن التاسع عشر » وقد نشره سنة ١٩٤٣ ، ثم وضع رسالة أخرى عن الدراسات العربية فى أوروبا سنة ١٩٥٥ لتأكيد المعنى .

* *

● نماذج من المؤلفات التى نشرها المستشرقون :

نقل المستشرقون من مؤلفات الشرق الإسلامى كثيراً من الكتب ذات الشأن سواء فى الدين الإسلامى أو المسيحى أو فى العلوم أو التاريخ أو اللُّغة أو المواد الفلسفية . . وإليك بعض النماذج :

*** فى الفلك والجغرافيا :**

١ - صورة الأرض : لمحمد بن جابر البتانى - نشره « لولوفيل » .

٢ - زبدة كشف الممالك : للظاهرى - نشره « رافيس » .

٣ - جغرافية أبو الفداء : لأبى الفداء - نشره « جوبار الفرنسى » .

٤ - كشف الممالك والأوزان الشرعية فى الإسلام - نشره « دى ساسى » .

٥ - الجداول الفلكية من الزيج الحاتمى - نشره « برسفال » سنة ١٨٤٧ .

٦ - الإدريسى فى الجغرافيا بخرائطه فى جزئين - نشره « جوبير » فى عام ١٨٣٦ وعام ١٨٤٠

٧ - كشف المسالك والممالك : لعبد الله القرطبى - نشره البارون « دى سلان » سنة ١٨٧٩

٨ - رحلة ابن جبير - نشره البارون « دى سلان » سنة ١٨٧٩

٩ - الزيج الحاكمى - نشره البارون « دى سلان » سنة ١٨٧٩

١٠ - رحلة ابن بطوطة - نشره « بفرمى » و« سانفنياتى » .

١١ - الخطط : للمقريزى - نشره « چاستون فييت » .

١٢ - وصف مصر : لعمر بن محمد الكندى - نشره « أويسترب » .

١٣ - البلدان : لليعقوبى - نشره « چاستون فييت » .

١٤ - صفة جزيرة الأندلس فى العصور الوسطى من كتاب الروض المعطارة - نشره « لفى بروفنسان » .

١٥ - طرفة فى خطوط الشام ووصف أبنيتها - نشره « سوڤير » .

١٦ - نظم الجواهر : لسعيد البطريق - طبع فى أكسفورد سنة ١٦٥٩ ونشره « بوكوك » الإنجليزى .

*

* فى التاريخ :

١ - تاريخ سيطرة العرب على إسبانيا : للنويرى - نشره « جاسبار ريميرو » (١٨٦٨ - ١٩٢٥) .

٢ - واسطة السلوك فى سياسة الملوك : للسلطان موسى بن حمو الثانى - نشره وترجمه للإسبانية « چاسبار ريميرو » .

٣ - تاريخ بيت المقدس والخليل : لمجير الدين - ترجم بعض فصوله « سوڤير » .

٤ - غانة - ترجمه للفرنسية « چوبير » .

٥ - بيروت : لصالح بن يحيى - نشره « چان سوفاجه » .

٦ - خيول بريد الممالك : لصالح بن يحيى - نشره « چان سوفاجه » .

٧ - الدرر المختارة : لابن الشحنة - نشره « چان سوفاجه » .

٨ - البدء والتاريخ (٦ أجزاء) : لابن المطهر المقدسى - نشره « هيار » .

٩ - طبقات الأمم : لصاعد الأندلسى - ترجمة « رجيس لويس بلاشر » .

١٠- أخبار الملوك : للملك المنصور صاحب حماة - نشره « مارسيه »

١١ - إسبانيا المسلمة : لابن الخطيب - نشره « لفى بروفنسال » .

١٢ - مذكرات عبد الله آخر ملوك غرناطة الزريديين - نشره « لفى بروفنسال » .

١٣ - البيان : لابن عذارى عن تاريخ إسبانيا المسلمة فى القرن الحادى عشر الميلادى - نشره « لفى بروفنسال » .

١٤ - مختصر الدول : لابن العبرى مع ترجمة لاتينية له - نشره « بوكوك » الإنجليزى سنة ١٦٦٣

١٥ - المجموع المبارك فى التاريخ : لابن العميد مع ترجمة لاتينية له .

١٦ - صلة الصلة . . تقويم للسير الأندلسية فى القرن الثالث عشر الميلادى - نشره « لفى بروفنسال » .

١٧ - وثائق غير منشورة عن تاريخ الموحدين - نشره « لفى بروفنسال » .

١٨ - بلوغ المرام فى تاريخ دولة بهرام - ترجمه للفرنسية « كترمير » .

١٩ - تاريخ بنى الريان ملوك تلمسان - نقله « الأب بارجيس » .

٢٠ - تاريخ القبيسى - نقله الأب « بارجيس » .

٢١ - تاريخ بنى حلاب سلاطين طوغرت : للحاج محمد الإدريسى - نقله « الأب بارجيس » .

٢٢ - مروج الذهب : للمسعودى - ترجمة « دى كورثاى » .

٢٣ - تاريخ الدولة الأتابكية : لابن الأثير الجزرى - نشره « البارون دى سلان » و« دى چين » .

٢٤ - العمى المشهورون فى الشرق : للصفدى - نشره « مرسبيه » .

٢٥ - تاريخ مصر . . عهد الفاطمين من تاريخ ابن الميسر - نشره « ماسه » سنة ١٩١٩ .

٢٦ - نظام ديوان المهردار : لابن الصيرفى - نشره « فنيان » .

٢٧ - تاريخ الموحدين : لعبد الواحد المراكشى - نشره « فنيان » .

٢٨ - الحفصيين : للزركشى - نشره « فنيان » .

٢٩ - رسائل ملك غرناطة : « أبى الحسن على » إلى « دون دياجو القسطلى » نشره « هيار » .

٣٠ - الخطط : للمقريزى - ترجمة « كزابوفا » .

٣١ - عيون التواريخ : لمحمد بن شاكر - نشره « سوڤير » الفرنسى .

٣٢ - متن المقرى عن تاريخ وأدب الأندلس العربى - نشره « ديجا » الفرنسى .

٣٣ - الوافى بالوفيات : للصفدى - نشره « ديفرمرى » و« سانفيناتى » .

٣٤ - بُغية الطلب فى تاريخ حلب - نشره « مرسييه » .

٣٥ - نُبذة عن كأس سحريه أهديت لصلاح الدين ، والألقاب الملكية ، وسماحة صلاح الدين - نشره « مرسييه » .

٣٦ - البيان المغرب فى تاريخ إسبانيا وإفريقيا - ترجمة « فنيان » .

٣٧ - كامل التواريخ : لابن الأثير - نشره « فنيان » .

٣٨ - تاريخ السودان : لعبد الرحمن التومبكتى - نشره « هودا » .

*

* فى العلوم والطب :

١ - الأطباء المذكورون فى ابن أبى أصيبعة - نشره « ديفز مرى » و« سانفيناتى » .

٢ - فصول فى الطب والعلاج العربى - نشره « ديفز مرى » و«سانفيناتى » .

٣ - الآلات والحيل : لهيرون الإسكندرى مستنداً إلى قسطا بن لوقا - نشره « البارون دى فو » .

٤ - الآلات المفرغة الهواء والمائية : لفيلون البيزنطى نقله من العربية - نشره « البارون دى فو » .

٥ - كتاب يبحث فى الساعات المائية وعلى المجسطى : لأبى الوفاء البوزجانى - نشره « البارون دى فو » .

٦ - الصلة الموسيقية : لشرف الدين - نشره « البارون دى فو » .

٧ - تعليمات لتاريخ العلوم - نشره « البارون دى فو » .

٨ - الكرويات : تصحيح يحيى بن محمد المغربى - نشره « البارون دى فو » .

٩ - الفرغانى فى الطب - ترجمه المنجم « وروميو » .

١٠ - أسماء النباتات المختلفة : لابن العوام - ترجمه « مولله » فى جزئين .

١١ - مفردات ابن البيطار - ترجمه « د . لكلر » .

١٢ - النحل : للسجستاتى - ترجمه « برتولومبو » وكذا « لازينيو » الإيطاليان .

١٣ - طبقات الأطباء : لابن أبى أصيبعة - ترجمه « د . لكلر » .

١٤ - ملخص فى الطبيعيات : للقوينى - ترجمه « مولله » .

١٥ - رسالة الصنامرى فى دودة القز - نشره المستشرق « مرسيل » الفرنسى .

١٦ - رسالة الفلاحة : لابن العوام (٣ أجزاء) - نشره المستشرق « مرسيل » الفرنسى .

١٧ - رسالة فى السموم : لابن ميمون - نشره المستشرق « مرسيل » الفرنسى .

١٨ - الطبعيات العربية فى القرن الحادى عشر - ألفه المستشرق « مرسيل » الفرنسى .

١٩ - حمام الزاجل : لابن الصباغ - نشره « دى ساسى » .

٢٠ - كشف الأسرار : لابن غانم المقدسى - نشره « دى ساسى » .

٢١ - كامل الصناعتين فى تربية الخيل - نشره « جوبير » .

٢٢ - ملخص الجامع الكبير : لابن البيطار - نشره « سوڤير » .

٢٣ - الأشربة : لابن قوتية - نشره « كى » .

❋

* فى الأساطير :

ترجم إلى الإنجليزية والفرنسية « ألف ليلة وليلة » ، ويعرف باسم الليالى العربية - وطبع منه ثلاثمائة طبعة خلال القرن التاسع عشر فقط ، وقامت حوله دراسات وبحوث - كـ « مائة ليلة وليلة » : عثر عليه « كود غراى ديموميين » الفرنسى ونشره بالفرنسية فى باريس سنة ١٩١١ ، وهو ذو أصول هندية وترجم إلى الفارسية ، ومنها إلى العربية .

*

* فى الرياضة :

١ - مخطوطات الرياضيين الإسلاميين - نشره « كروازه الألمانى » .

٢ - الرياضيون المسلمون - ألفه « كراوزه » الألمانى (طبع برلين عام ١٩٣٦) .

*

* فى الفلسفة :

ترجموا ونشروا الكثير . . ومن ذلك :

رسالة حى ابن يقظان - نقله إلى اللاتينية « بوكوك » الإنجليزى فى القرن السابع عشر الميلادى .

وتطبع الجمعية الشرقية الأمريكية كل عام عدة بحوث إسلامية ، وفى مكتبة مجلس النيابة الأمريكى فى واشنطن زهاء نصف مليون مجلد فى اللغات الإسلامية كالعربية والفارسية والتركية ، وهكذا فى المكتبات الخاصة بالجامعات الكبرى ، وأنا شخصياً استفدت من مكتبة جامعة « هارفارد » فى « بوسطن » .

ولتشجيع البحث وجد مركز البحوث الأمريكى فى القاهرة ، ومعهد الدراسات الأسبانية فى طهران ، وما يماثلها فى صنعاء واليمن واستنبول فى تركيا ، ونرجو أن يكون فائدتها أكثر من غزوها الفكرى .

وكان لثورة إيران ومن قبلها حركة الإخوان فى فلسطين والقنال ثم صمودهم رغم مجازر عبد الناصر والسادات لهم مؤذناً بالبحث عن الإسلام .

* *

● المكتبات والمخطوطات :

أرسل الملك « لويس الرابع عشر » عام ١٦٧١ رسله إلى جميع بلدان الإسلام لشراء المخطوطات ، وزوّد مبعوثيه بأوامر شريفة إلى جميع القناصل الفرنساوية ليضعوا رجالهم وأموالهم فى خدمة هذه الغاية [١] .

لقد تنافس المستشرقون فى جمع التراث العربى واقتناء الكتب الإسلامية والشرقية بوجه عام ، واغتنموا فرصة سيادتهم على الشرق عند اضمحلاله فصادروا مخطوطات المساجد والتكايا ، واشتروا بثمن بخس دراهم معدودة ما لدى الأفراد ، وقامت مؤسسات ومطابع على خدمة هذا التراث لصالح الغرب ، وفى الحقبة ما بين سنة (١٩٢٤ - ١٩٢٩) كان الدكتور « منجان » يجمع من الشرق الأدنى ما يستطيع جمعه من المخطوطات ، ثم جعل لها مع مجموعات أخرى لغيره فهرساً خاصاً . كما قام « مرجليوث » بعمل فهرس آخر لمخطوطات أخرى ، ومن أشهر المكتبات التى تضم ذخائر الثقافة الإسلامية والشرقية مكتبات كل من برلين وباريس وميلانو وروما ولندن وليبزج وليدن وأكسفورد وكمبردج وميونخ ودبلن وأدنبرة ولينينجراد ومكتبة الجمعية الآسيوية البريطانية والأسكوريال ، وقد ضمت هذه المكتبات وأمثالها ما يربو على مائتين وخمسين ألف مجلد [٢] ، ولكل من هذه الخزائن نُظّار نظموا فهارسها ورتّبوا مخطوطاتها وذكروا أوصافها وترجموا لمؤلفيها [٣] ، وتُعَد مكتبة « بودلى » التى تأسست عام ١٦٠٣ من أهم المكتبات المختصة بالمخطوطات فهى تضم (٣٢٧٤) مخطوطة ، وتليها مكتبة المتحف البريطانى التى أسست بعد المكتبة البودلية بمائة وخمسين عاماً .

ولقد أسس « دى كاستل برانكو » مكتبة خاصة للمخطوطات العربية وخلّف وراءه خمسة أولاد كلهم يُحسن العربية ، كما أنفق أسقف نابيو « جوستينيانى » ثروته على جمع المخطوطات العربية واشتهر بها حتى إن

---

(١) المستشرقون والإسلام : لزكريا هاشم ص ٢١

(٢) فى الأدب الحديث : لعمر الدسوقى : ١/ ٣١٤

(٣) المستشرقون ص ٢٥ - الطبعة ثانية .

« فرانسوا » استخدمه لتدريس العربية ، وفى سنة ١٥٩٣ طبع قانون ابن سينا فى الطب ، وكتاب النجاة ، ورسائل فى المنطق والطبيعة ، والكلام للرازى ، وتحرير إقليدس للطوسى .

وبإيطاليا عديد من المكتبات الغنية بالمخطوطات العربية والعبرية وأغناها مكتبات « امبروزيانا » فى ميلانو والفاتيكان وبالاتينا .

ففى مكتبة « امبروزيانا » من المصاحف المختلفة الخطوط نحو (١٤٠٠) عدا مجموعة القوانين العربية التى تبلغ (١٨٤٦) مخطوطة ، ومن الكتب الدينية ما يربو على (٧٠٠٠) مخطوطة ، عدا دواوين الشعر وكتب الفقه والتاريخ والجغرافية والطب والفلسفة .

وفى مكتبات روسيا كان يوجد عند الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧ (خمسون ألف) مخطوطة .

وذلك عدا مكتبة كيميائية ومكتبة « نانيانا » ومكتبة « البندقية » التى اقتناها « روفائيل جروه » السورى ، ومكتبة بولونيا ، ومكتبة نابولى ، ومكتبة بالرمو الوطنية ، والمكتبة الوطنية لمجمع العلوم فى « تورينو » ، ومؤسسة « كايتانى » ، ومكتبة « جوريزيا » ومحفوظات مالطة ، والمكتبة المديتشية التى أسسها الكردينال « فرديناندو دى مديتش » فى فلونسا .

* * *

مراكز للتعريف بالشرق والثقافة العربية

مع تطور الزمن والثقافة الشرقية ، وجدت بالغرب مراكز كثيرة مهمتها التعريف بما فى الشرق من حضارات قديمة وحديثة ومن ذلك :

● معهد العالم العربى فى فرنسا :

يقع المعهد فى باريس ، وقد أصبحت مصر عضواً فيه منذ عام ١٩٨٩ ، وقد حضر رئيس المعهد « ادجار بيزانى » إلى مصر فى مارس ١٩٨٩ ، وشهد فيلم « الآلات الموسيقية الشعبية » ، وقال : « إنه فيلم متخصص فى موضوعه » ، وقد اشتراه المعهد ليعرضه فى دور السينما الفرنسية كنموذج لفيلم مصرى تسجيلى .

وقال : « إن مهمة المعهد تعريف المواطن الفرنسى والأوروبى بثقافة وفنون العالم العربى وبخاصة مصر ، ليعرف العالم كله مدى التقدم الذى وصلت إليه ألوان الثقافة والفن فى مصر » .

وقد أقام معرضاً للآثار المصرية - الفرعونية ، والقبطية ، والإسلامية - افتتحه الرئيسان الفرنسى والمصرى « ميتران » و« مبارك » لإبراز الوجه الحضارى المتقدم للعرب والإسلام ، وكان عنوان المعرض « مصر عبر العصور » وكان ذلك فى يوليو ١٩٨٩

ويضم المعهد مكتبة ومتحفاً للموسيقى والخيَّالة فى العالَم العربى ، وقد قام المعهد بتكليف (١٦ داراً) من دور النشر الفرنسية بترجمة أعمال متنوعة عن العالم العربى ، لأنه ذو صلات كثيرة بفرنسا .

وقد أقام المعهد فى سبتمبر ١٩٨٩ معرضاً لكاريكاتير الفنانين العرب اشترك فيه عدد كبير من الفنانين من مختلف الدول العربية ، وكان من بينها مصر .

وصدر فى باريس « أطلس العالم الإسلامى من عام ١٥٠٠ - حتى القرن العشرين » ، وقد شارك فى إعداده الفرنسيَّان : « فرانسيس روينسون » و« بيتر براون » .

وضم الأطلس ثلاثة موضوعات رئيسية هى :

* الصراع بين المؤمنين وبين السلطة فى العالم الإسلامى .

* الصراع بين المسلمين وبين الكفار أثناء نشر الإسلام فى مناطق جنوب شرق آسيا وإفريقيا .

* أوجه الاتفاق فى المذاهب الإسلامية المختلفة .

* ثم حديث عن الصوفية ، وبخاصة الزعيم الصوفى « جلال الدين الرومى » .

وبالإضافة إلى ذلك تعريف للبسملة التى يستهل بها المسلمون كل عمل هام يقومون به [١] .

* *

● بين القصرين لنجيب محفوظ :

ترجمت دار « لاتيس » الفرنسية رواية « بين القصرين » ، وهذه هى الترجمة الثالثة لها بعد ترجمتها إلى الإيطالية والإنجليزية والصينية والروسية والسويدية والمجرية والإسبانية .

* *

● الرحلات العلمية :

الرحلة إلى العلم أسلوب عرفه المسلمون من أول يوم ، وقد عرفته أوروبا لأول مرة فى القرن الخامس عشر ، فقد قصد « اندره مونكاجون بلو » الإيطالى دمشق فتضلع من العربية وأتم علمه برحلة قام بها إلى لبنان ومصر وفارس وآسيا الصغرى ، وعاد إلى مدرسة « باودى » لمؤسسيها العرب ، فشرح فلسفة ابن سينا ورأى أن ترجمته فى بلاط « فردريك الثانى » لم تكن صحيحة فصححها ، ثم تتابعت الرحلات فزار لبنان « روجيه سبتيه » ، وزار « شاتو بريان » القدس ، وزار « رينان » لبنان . . . وغيرهم كثيرون [٢] .

* *

---

(١) الأهرام - وغيره من الصحف - فى ١٩٨٩/٥/٥

(٢) المستشرقون ص ١٥٢ ، ٣١

● منابر اللُّغة العربية واللُّغات السامية :

في سنة ١٥٣٠ أنشأ « فرانسوا الأول » معهد فرنسا بباريس وأعد فيه منبراً لتدريس العربية واليونانية ، وفي سنة ١٥٨٧ جدد « هنري السادس » منبر العربية في معهد فرنسا . وفي أواخر القرن السابع عشر اشتهر في جامعتي « أكسفور » و« كمبردج » عدد من فطاحل المتخصصين في العربية ، أمثال « توماس جريوز » و« إبرهام ويلوك » و« صموئيل كلارك » ثم « بريان ولتون » ثم « دلي لفتوس » العلام الإيرلندي المشترع ، ودفع ذلك الجامعتين إلى تأسيس منصبين جديدين للُّغة العربية ، وقبل أن ينقضي القرن الثامن عشر كانت جامعة « أكسفورد » قد أعدت مطبعة عربية لنشر أنفس المخطوطات العربية ، وظهر أول كتاب في « قواعد اللُّغة العربية » لأربانيوس - ليدن سنة ١٦١٣

وفي مطلع القرن التاسع عشر أنشيء منصب للعربية في جامعة لندن ، ثم كان للعربية منابر ومجلات في سائر البلاد التي اتصلت بفرنسا كالجزائر ومراكش ثم مصر وسوريا ولبنان [١] . كما أنشئت منابر لتدريس العربية في أشهر جامعات روسيا كجامعة قازان سنة ١٨٠٧ ، وموسكو سنة ١٩١١ ، وبطرسبرج سنة ١٨١٨ ، والمدرسة التهذيبية العليا سنة ١٨١٩ ، والكلية الأرمنية « لازارف » ،ومعهد الرهبان الأرثوذكس بقازان ومنبره أنشيء بدلا من منبر العربية بجامعة قازان ، وقسم اللُّغة العربية بمعهد « بوليتكنيك » بلندن .

وفي أسبانيا يوجد المعهد الاسباني العربي للثقافة بمدريد ، والجمعية الإسبانية للمستشرقين ، وجمعية فرسان المستعربين « موثارابيس » ، والمعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد .

وقال الأستاذ « لامنسون » (١٨٥٧ - ١٩٣٤) : « إن تاريخ الأدب جزء من تاريخ الحضارة ، فالأدب مظهر لحياتنا القومية » [٢] وكما قال العرب : الشعر ديوان العرب .

---

(٢) المستشرقون ص ٢٨ ، ٢٩ (٢) النقد المنهجي : للدكتور مندور ص ٣٩٧

وقال « أنطوان مابيه » (١٨٦٦ - ١٩٣٦) : « إن علم اللِّسان جزء من علم الاجتماع ، واللغة العربية تستند - ككل ظاهرة اجتماعية - إلى سلسلة لا نهاية لها من وقائع الماضى ، ومن ثَمَّ كان علم اللِّسان - كغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى - علماً تاريخياً على نحوٍ ما » [(١)] .

* *

● **معاهد اللُّغات الشرقية :**

فى جامعة برلين الحرة يوجد معهد العلوم الإسلامية فى برلين الغربية ، وفى فبراير ١٩٨٥ عقد بإشرافه المؤتمر الثانى لترجمة الأعمال الأدبية بين مصر وألمانيا ، اشترك فيه وفد من أساتذة اللُّغة الألمانية بالجامعات المصرية .

وقد أنشئت فى العواصم الكبرى بأوروبا وأمريكا مدارس للغات الشرقية يقصد إليها الغربيون ، وبعض المبعوثين من الشرق ، ليتلقوا من المستشرقين دراسات فى الآداب الشرقية ، ومن أشهر هذه المعاهد مدرسة اللغات الشرقية بكل من لندن وباريس وبرلين ، وتضم كل مدرسة مكتبة قيمة ، وتهتم باللَّهجات والأصوات اللُّغوية ، وفى مدرسة لندن دراسة لما يزيد عن ثلاثين لغة شرقية .

فى عام ١٧٣٢ أنشأ الأب « ماتيو ريبا » المعهد العالى للغات الشرقية فى نابولى بإيطاليا ، ثم أنشىء المعهد البابوى للغات الشرقية وألحقت به مكتبة غنية بالمخطوطات العربية ، ثم تبعه مؤسسة « كايتيانى » والمعهد الشرقى المنشأ فى روما سنة ١٩٢١ والذى يتولى نشر مجلة « الشرق الحديث » [(٢)] ، وكل ذلك من أجل الإلمام بالثقافة الإسلامية وإيجاد دعاة للمسيحية على العلم بكل المداخل إلى الفكر الإسلامى والقلوب الإسلامية .

وفى مصر - على سبيل المثال - كلية اللاهوت الإنجيلية ، وهى تعادل كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، وتخضع لإشراف جامعة « برنستون » بالولايات

---

(١) المرجع الساق ص ٤٢٩ (٢) المستشرقون ص ٥٢ - الطبعة الثالثة .

المتحدة الأمريكية وعدد أساتذتها (١١) ، والوطنيون منهم بنسبة (١ : ٢) من الأمريكان ، وعدد جميع الطُلاب حتى أوائل الستينات فى جميع المراحل (١٦ طالباً) فقط يدرسون العبرية واليونانية ثلاث سنوات كما يدرسون الردود على الإسلام بدراسة كتب المستشرقين [١] .

* *

● **الجامعة اليسوعية :**

وفي بيروت الجامعة اليسوعية (جامعة القديس يوسف) تُوجَّه دينياً من الفاتيكان ، وسياسياً من فرنسا ، ويتبعها معهد الآداب الشرقية الذى يشرف عليه المستشرق الفرنسى الأب الدكتور « ميشيل آلار » ، ولا يقبل اليسوعيون أىَّ مسلم للتدريس فى مؤسساتهم إذ يقولون : « إن المبشر الأول هو المدرسة » [٢] .

وفى عام ١٩٥٤ كان بأمريكا كليات تدرس اللُّغة العربية صيفاً للراغبين ، ثم أسهمت مؤسسة « فورد » فى هذه النفقات بعد عام ١٩٦٠ ، ثم الحكومة الأمريكية .

وفى عام ١٩٦٧ كان بأمريكا ستون جامعة وأربعون مكتبة وثمانية عشر مركزاً ، جميعها تهتم بدراسة الشرق الأوسط ، قامت بتدريس (٥٠٠) منهج لثمانية آلاف طالب .

وفى عام ١٩٧١ قدمت أكثر من ستين كلية وجامعة مناهج منظمة ، لا دروساً متفرقة ، وتقدم ثلاث برامج خارج نطاق الجامعات لتعليم اللُّغة العربية تابعة للحكومة ، ويلاحظ أن المدرسين بمراكز دراسات الشرق الأوسط فى أربعة منها من اليهود ، وفى سبعة منها من العرب ، وفى ثمانية من مجهولى الشخصية .

وبعد حرب أكتوبر (١٩٧٣) واستعمال سلاح النفط انخفض عدد المنح التى

---

(١) المستشرقون والمبشرون فى العالم الإسلامى ص ١٣

(٢) مجلة المجتمع الكويتية : ١/ ٥/ ١٩٧٥

يقدمها مشروع « التعليم من أجل الدفاع القومى » إلى الطلبة وأعضاء هيئة التدريس فى بعض مراكز دراسات الشرق الأوسط ، وانقطع تماماً من غيرها ، وفى الوقت نفسه نجد اهتمامات حكومية أكثر بشئون المنطقة .

وهذا التناقض يحتاج التأمل من العرب عند تعاملهم مع أمريكا أهمّ الدول التى أثَّرت فى السياسة العربية تحت مظلة سياسة « الانفتاح » فى مصر ، وسياسة « السلام فى الشرق الأوسط » .

* *

● فى الولايات المتحدة الأمريكية :

يوجد أكثر من (٢٥) كلية جامعية تتخصص فى الدراسات الشرقية العربية ، إذ يُقدَّر عدد المسلمين بنحو ثلاثة ملايين على الأقل نصفهم - تقريباً - من العرب الذين بدأت رحلاتهم من الشام فى نهاية القرن الثامن عشر إلى جنوب البلاد طلباً لحياة اقتصادية أفضل ، ثم تكاثر الفلسطينيون بعد نكبة (١٩٤٨) وتكرر نفس الوضع بين عامى (١٩٥٨ - ١٩٦١) بالنسبة للمصريين بعد اعتقال الإخوان وتعذيبهم ، وهكذا هاجر كثير من العراقيين بعد مسلسل الانقلابات التى بدأت بانقلاب عبد الكريم قاسم .

ومن أهم المعاهد بالولايات المتحدة معهد « هارتفرد » فى ولاية « كانتيكت » ، ومؤسسة « برنستن » للعلوم الدينية ، والاثنان تابعان للملل بروتستانتينية تبشر به ، وكل الذين درسوا القليل عن الإسلام من اليهود والنصارى فى إطار من الفهم الصليبى المملوء حقداً ، وكان « فيليب حتى » و« ادوارد » من العرب الأمريكان فى جامعة « برنستن » من المسيحيين المنصفين للإسلام رغم ما أُخِذَ على بعضهم من أخطاء .

ومما ساعد على التغرير بالإسلام مجلة العالم الإسلامى التى تصدرها

جامعة « هارتفرد » ، وشجعت بعض المؤسسات على التخصص فى اللغات الشرقية والآداب الإسلامية مثل « فورد » و« روكفلر » و« كرنيجى » ، ونحو ٥٠ مؤسسة أخرى تساعد هذه الأقسام

❊ ❊

● المعهد الغربى للثقافة الإسلامية بإسبانيا :

نظم فى مدينة « تيرويل » بإسبانيا فى المدة من (٢٢ - ٢٥ سبتمبر ١٩٨٨) مؤتمراً احتشد فيه عدد كبير من الباحثين العرب والأوروبيين ، وبخاصة الإسبان ، لإلقاء المزيد على الطابع الفريد للحضارة الإسلامية فى إسبانيا ، فقد كان المعهد أعد برنامجاً طويل المدى ، يهدف إلى شد الانتباه إلى أمرين معاً : التوازيات الثقافية والتنوعات الثقافية بين تراث المسلمين فى الأندلس ، وتراث المناطق المجاورة لها ، وقد كان وراء ذلك ثراء الثقافة الإسلامية على وجه العموم ، والثقافة الإسلامية فى عصرها الأندلسى على وجه الخصوص .

وقد ركز المؤتمر فى ذلك العام على تأثير الحضارة الإسلامية على منطقة « أراجون » وهى المنطقة الواقعة شمال منطقة الحضارة الإسلامية الأندلسية ، وقد دأب سواد المؤرخين - حتى وقت قريب - على تجاهل فضل الحضارة الإسلامية على منطقة « أراجون » ، ولكن هذا التأثير واضح فى غنى وتنوع العناصر ذات الأصل الإسلامى فى حضارة « أراجون » .

ومن ذلك مثلاً : أسماء الأماكن ، وأساليب الزراعة ، والتعبيرات التقليدية ، أو ما يُعرف باسم « العجمة ، كما تُنطق بالعربية ومثلها فى الأسبانية : (Aljoma) - وهى لغة أهل الأراجون المسلمين ، مكتوبة بالحروف العربية .

وكان من المقرر أن يشارك فى المؤتمر من العرب محمود على مكى (القاهرة) ، ومحمد بن شريف (الرياض) ، وأحمد على مرسى(المعهد المصرى للدراسات الإسلامية) ، وخالد ماغوط (حلب) ، وكوكبة من الباحثين

الأوروبيين ، من بينهم « خوليو سامسو » (برشلونة) ، و« يواقيم لوميا » (سراقوسة) ، و« أفريكه نيورى » (مدرسة المعماريين بمدريد) .

* *

● **معهد الاستشراق السوفييتي :**

ويوجد به حتى العام (١٩٩٠) علماء متخصصون يطلق عليهم وصف « ايرانو لوج » أى المتخصصون فى الشئون الإيرانية ، بحكم قرب إيران من الحدود السوفييتية ، مثل العلماء المتخصصين فى المصريات بآثارها وعاداتها من علماء الغرب .

ولا غرابة فى ذلك فإنه لا يفصل إيران عن روسيا الآسيوية سوى بحر قزوين ، الذى تقع عليه « باكو» عاصمة « أذربيجان » التى زارها بعد إنهيار النظام الشيوعى للاتحاد السوفييتى « على أكبر هاشمى رافسنجانى » ، رئيس الشورى فى إيران فى أواخر يونية ١٩٨٩ ، ودعا أهل مسجدهم إلى زيارة « المسجد المقدس » فى مدينة « مشهد » .

* * *

ندوات

● ندوة بمدينة الأسكوريال :

وقد عقد بمدينة « الأسكوريال » فى « مدريد » حلقة دراسية عن العالَم العربى ، وكان من أبرز المتحدثين فيها الدكتورة « كارمن رويث برابو » المستعربة الأسبانية ، وقد تحدثت عن أهداف هذه الحلقة فقالت :

* أهداف الندوة :

إن من بين الأهداف فتح أبواب جديدة للمهتمين بالثقافة العربية ، سواء فى إسبانيا أو غيرها من الدول ، وذلك لأن العالم العربى صار فى يومنا هذا مصدراً للأخبار اليومية التى تمتاز بطابع المأساوية والحروب من أمثال حروب « العراق وإيران ، أو العراق والكويت ، أو العراق والأكراد ، أو إسرائيل والدول العربية المجاورة ، أو الصومال ، أو أريتريا ، أو البربر والمغرب ، أو السودان شماله وجنوبه » .

ولم يصاحب أخبار هذه القوى المتفجرة شيء عن ثقافة هذه البلاد ، فاستكمالاً للمعلومات عن المنطقة العربية عقدت الندوة ، واشترك فيها متخصصون يقدمون لنا دراسات تعتمد على الإحصائيات العلمية ، والتوجهات الفكرية وأقطابها ، وكانت قد نشطت دور النشر فى أوروبا - وبخاصة اسبانيا - فى ترجمة معالم الفكر الأدبى والسياسى المعاصر ، وترجمة عن منتجيه مثل نجيب محفوظ فى « زقاق المدق » ، الذى صدرت له تسع طبعات منذ حصوله على جائزة نوبل ، إلى جانب أعمال أخرى له نحو عشرة ، لتكوين صورة متكاملة - بتحليلها - يمكن التعرف على مداخل الأمة العربية .

*

* الاهتمام بالأدب العربى :

فضلاً عن الغرض السياسى الذى ألمحنا إليه ، فإن فى الأدب الشرقى - بعامة - عناصر جذب كثيرة ، تبدو فى مضمون الأساطير والأمثال ، وفى

وسائل التعبير كالشعر والنثر والقصة والمجاز والخيال الكامن فى الاستعارة والتشبيه ، والكناية ، والفوازير ، والأدب الفكاهى .

كما أن الحقد الذى كان وراء طرد العرب من الأندلس جعل سياسة إبعاد كل ما يتصل بالعرب عن الذهن الأوروبى والإسبانى - بخاصة - عملاً استراتيجياً فى الحرب الصليبية التى كانت تضعف أحياناً أمام بعض المستعربين الأحرار ، جعل بعض الإسبان اليوم - وبخاصة الشباب - يدركون أن الانغلاق دون الثقافات العالمية ، ومن بينها ثقافة العرب التى كان لها امتداد فى تاريخهم ، مظهراً للتخلف وتفضيل السجن القومى الفكرى والحضارى على الانفتاح العالمى والتنقل بين أنواع الزهور الحضارية والفكرية العالمية .

ومن الصحف ووسائل الإعلام التى وراءها الصهيونية ، أو المعصوبة بالعنصرية أو الاستعلاء الطبقى والقومى مَن جعلوا أدب « نجيب محفوظ » وكأنه فلتة ليست مرتبطة الجذور بمنبتها العربى والمصرى ، ومَن جعلوا الأدب الأوروبى وحده هو الأدب المتميز - وبخاصة الإنجليزى والفرنسى ، حتى إنك لتجد الكتاب الإسبانى ضعيف الانتشار سواء بالإسبانية أو بلغة يترجم إليها .

وهناك فى إسبانيا شعور جديد بتاريخ وأدب مشتركين بين الفكر العربى والإسبانى ، وقد اكتشف « بدرو مارتينيث مونتانيث » كثيراً من مفاخر الأدب العربى سجلها فى كتابه « مختارات من الأدب العربى » الذى صدر فى عام ١٩٥٨ ، كما فعل ذلك المستعرب « أسين بلاثيوس » الذى اكتشف تأثير أدب ابن العربى ورسالة الغفران لأبى العلاء المعرى فى الأدب الأوروبى ، وبخاصة فى كوميديا « دانتى » التى تسمى « جحيم دانتى » وكان أثر ابن العربى كبيراً فى الشعر الصوفى الإسبانى والأوروبى .

تقول الدكتورة « كارمن رويث برابو » : إن المهمة الأساسية للمستعربين الإسبان اليوم هى كسر الحواجز الأكاديمية الخالصة ، ومحاولة الخروج إلى المجتمع فى سبيل نشر الثقافة العربية ، وهذا ما بدأنا نلاحظ آثاره فى الفترة الأخيرة ، حيث إن هناك الكثير من البرامج الإذاعية والتلفازية التى تتناول الثقافة العربية ، والتى تساهم فيها وفى حواراتها أعداد كبيرة من الناس ، من خلال الاتصالات الهاتفية ، من أجل السؤال أو التعليق .

*

* التأثيرات العربية فى الأدب الإسبانى :

تقول الدكتورة « برابو » : إن الأدب الإسبانى : سواء منه ما كان مكتوباً باللغة الإسبانية ، أو باللغة القطونية أو غيرها إنما ولد فى مجرى نهر الأدب العربى ، فإن « دون كيشوت » ولدت من أصول عربية ، لأن هذا النوع من الأدب « شبه الروائى » أو القريب من الرواية الحديثة ، له صلة مباشرة بالأدب العربى ، ليس لأن فى هذا العمل شخصيات عربية وحسب ، وإنما بسبب الأسلوب الذى تعتمده من حيث الخلط بين الحلم وبين الواقع ، وهذه ميزة خاصة بالأدب العربى .

ثم الجمع بين الشخصيات المتناقضة والمواقف المتعارضة وهذه من الأساليب العربية الأصيلة وتسمى المقابلة إذا كان التعارض بين جملتين أو فكرتين ، ويسمى طباقاً إذا كان بين لفظين مثل « معزٌ مذلٌ » و « الأبيض والأسود » .

وكان الشعر العربى قد ترك بصماته على الأدب الإسبانى فى القرون السابقة ، إلا أن هذه التأثيرات أصبحت محدودة بعد طرد « الموريسكيين » من إسبانيا ، وبدأت محاولات للفصل ما بين الأدبيين ، فى حين أن فصلهما لم يكن ممكناً من قبل ، وذلك لأنهما كانا مجموعين فى إناء واحد ، وهو الأدب الإسبانى العربى .

أما فى وقتنا الحاضر . . فإن المسألة تعقدت وصار الأدب العربى بالنسبة للأدباء الإسبان غريباً وبعيداً .

وبالرغم من صعوبة تحديد التأثيرات العربية فى الأدباء الإسبان المعاصرين ، فإنها موجودة ، شئنا أم أبينا ، لأنهم يعتمدون فى ثقافتهم على مصدرين تراثيين :

أحدهما : الثقافة الشرقية التى تحتل منها الثقافة العربية موقعاً متقدماً .

والآخر : الثقافة الغربية .

*

* تأثير الأدب الإسبانى فى الأدب العربى :

تقول الدكتورة « برابو » : اتخذ الأدباء العرب « لوركا » رمزاً ومثلاً فى كتاباتهم ، وبهذا أثبت الكُتَّاب العرب أنهم أكثر تفتحاً من الإسبان ، وأكثر

عالمية فى نظرتهم إلى الواقع ، ومن هؤلاء العرب بالمغرب محمد شكرى ، ومحمد الزفراق فى مثل عملهم الأدبى « الصياد الإسبانى » ، إذ يتناولون الحديث عنه كأنه جزء من حياتهم ووجودهم .

كما دخلت فى الأدب العربى عناصر كثيرة من أدب « نيرودا » ، أو « أوكتافيوباث » وغيرهما من أعلام الأدب الإسبانى .

وبإختصار : يمكن القول بأن تيارات الأدبين الإسبانى والعربى وأمواجهما قد التقت واختلطت وتأثرت ببعضها .

*

* المشكلات التى تواجه الإسبان فى تعلم العربية :

تقول الدكتورة « كارمن » : من أهم المشكلات جهل الإسبانى كل شىء عن العرب وتاريخهم وجغرافية بلادهم ، فضلاً عن مفردات اللُّغة وحروف الكتابة ، ثم انعزال أقسام التاريخ فى الجامعات الإسبانية عن قسم اللُّغة العربية ، وبخاصة تاريخ العرب الحديث .

ولكن من الجوانب الإيجابية وجود كلمات عربية كثيرة فى اللُّغة الإسبانية وبخاصة أسماء الأشخاص والأماكن والأشياء .

كما قالت الدكتورة « كارمن رويث برابو » : إن الثقافة العربية الحالية هى « المجهول الكبير » فى أوروبا الغربية ، وإن العالم العربى يعيش زمناً مأساوياً طويلاً من التعديل والانتقاص من التغييرات العميقة السريعة ، بيد أن الرسم والموسيقى بدءا يشقان طريقهما إلى آفاق رحبة جديدة فى العالَم العربى ، حيث لا تقتصر الطفرة على ميدان الأدب .

ورداً على سؤال حول « الطابع الرجالى » للمجتمع العربى ، وما يعينيه ذلك بالنسبة للمرأة العربية قالت الدكتورة « كارمن » : « إن المفهوم الرجالى للمجتمع لم يكن يوماً ذا جذور عربية ، بل هو شكل من أشكال مجتمعات حوض البحر الأبيض المتوسط التى تعود إلى القرون الوسطى ، بل وإلى ما قبلها –

أى قبل الإسلام - وهى مجتمعات انتقلت من مفهوم التبعية للأُمم إلى مفهوم التبعية للأدب ، دون أن يكون لذلك علاقة بالتراث الأدبى » .

وأشارت المستشرقة إلى الحضور « النسائى » البارز فى الميادين الثقافية فى العالم العربى ، وبنسبة تضاهى أى مكان فى القرى والمدن ، ولا سيما فى مجال الأدب .

* *

● مؤلفات الدكتورة « كارمن » :

للدكتورة « كارمن » مؤلفات كثيرة حول الأدب والثقافة العربية ، وحول القضية الفلسطينية التى تعتبر هى من أبرز المدافعين عنها فى إسبانيا ، كما أنها ترجمت عدداً من الكتب لكُتَّاب وكاتبات من مختلف أنحاء الوطن العربى فى السبعينيات والثمانينات .

* *

● ندوات أخرى :

قامت جامعة « منسوتا » بعمل برنامج خاص بتدريس أصول الديانات العالمية الكبرى كالبوذية والمسيحية والإسلام ، وكانت الجهود موجهه إلى طُلاب المرحلة الثانوية ، ثم استجيب إلى طلب الكليات الجامعية بعد ثلاث سنوات مع الثانوى ، وأضيف إلى المعلومات الدينية ما يجب أن يعلمه الأمريكان لتحسين العلاقة مع بلدان الشرق الأوسط ، ومحاضرات وندوات تتضمن العوامل التى تسئ إلى العلاقات بين المسلمين والأمريكان .

وواضح فيها أنها ذات هدف سياسى تتفق عليه المؤسسات الكبرى ذات المصالح فى الشرق العربى والإسلامى .

كما تهتم هذه المؤسسات بمعونة الطُلاب الذين يريدون التخصص فى الحضارة الإسلامية وعلاقتها تاريخياً ووصفها بالحضارات العالمية الأخرى ، ومن هذه الجامعات التى فتحت أبوابها لهذه الدراسات : « برستن ، وهارفارد ، وكولومبيا ، وبنسلفانيا ، وميتشجان ، وكاليفورنيا ، وتاكسس ، وأنديانا ، ومنسوتا ، وشيكاغو » .

* * *

فى الشريعة والأدب واللُّغة

خاض المستشرقون فى مجال الشريعة والأدب واللُّغة بما لا مزيد عليه ، فترجموا وألَّفوا وشوَّهوا وفهرسوا . . وأفادوا وأضلوا غيرهم ، وقد نشروا أدب المقامات وأدب القصة ، فاهتموا بمثل « كليلة ودمنة » و« ألف ليلة وليلة » و« مجمع الأمثال » للميدانى .

وفى الشريعة : نشروا فى التصوف والتفسير والحديث والسيرة والفقه السُّنِّى والشيعى مئات المراجع الصغيرة والكبيرة ، وبخاصة ما يساعد على الاضطراب الفكرى بين المسلمين ، وما كانت روايته ضعيفة وكان المسلمون الأوَّلون قد نبهوا على ضعفها أو كذبها فبادت وأراد المستشرقون إحياءها طلباً للفتنة .

وكتب أحدهم فى مقدمة كتاب له عن الشريعة الإسلامية أن الإمام الشافعى كان سبب الجمود فى الفكر الإسلامى ، لأنه هو الذى أرسى قواعد الفقه بكتابته « الرسالة » التى أرست للفقه قواعد تنتصر للحديث ضد مدرسة الرأى ، فجنى على مَن يسميهم المستشرقون : « الفقهاء الأحرار » .

وكما قيل : كان الفقهاء ، والمحدِّثون منهم نياماً فأيقظهم الشافعى برسالته التى أرست قواعد الجمع بين المختلفين من الحديث ، وأن الحديث مجردٍ بيان للقرآن فلا يعارضه .

وما عارض النص القطعى الدلالة مرفوض . . وكان الشافعى إذا ذكر قولاً للخصم استوفى ذكر دليل الخصم من جميع وجوه الاستدلال المحتملة ثم ناقشه ، كما قال الخضرى فى وصف « الرسالة » ، فالحقيقة أن الشافعى لم يحدث جموداً ، بل أحدث موازين لانضباط الفكر وتوسيعه .

* *

● نقد المستشرقين من المركز والذاتية العربية :

فالمستشرق يجرح النقاد العرب لأنهم ينبعثون من أهوائهم وقومياتهم ، ولهذا فهم يختارون أن يكون الناقد غربياً غير منحاز .

وهم يسقطون فى هذا التوجه مرتين :

الأولى : من حيث أن الناقد العربى أعلم بلغة شعراء العرب وفحوى اللُّغة ومجازاتها فهو أكثر إدراكاً للحقيقة .

الثانية : أنه طبقاً لهذا المبدأ يسقط كبار شعراء الغرب الذين دوَّن الناقد الأوروبى روائع شعرهم مثل « ڤولتير » و« لافونتين » ، و« شكسبير » .

المنهج الفيلولوجى : الأصل فيه أنه يلتزم بالدقة والأمانة باعتباره يقوم أساساً على معالجة النص القديم بطريقة تساعد على تقريبه إلى المعاصرين ، فإن هذا المنهج - كما ظهر على يد المستشرقين - لم يكن يسلم من الزلل حين يخرج من الوصف إلى الحكم الذى لا يستند إلى الدراسة المتأنية بقدر ما يستند على هشاشة الأهواء ، وفى هذا الإطار وجوه نستطيع أن نفهم الحكم الاستشراقى الذى ظل يتردد طوال قرنين من الزمان ، والذى يقول : « إن المكانة التى يحتلها المتنبى لا تعود إلى قيمته الأدبية بقدر ما تعود إلى فساد ذوق أُمته » .

وهكذا كانت الخلفية الأيديولوجية الخاصة وراء المستشرقين فى التوجه للدراسة الجزئية التى تساعدهم على الدفع بجوانب معينة فى الدراسة تتناسب مع أهداف المرحلة الاستعمارية الغربية التى يريدها المستشرقون .

ومع الزمن والتقدم الفكرى يظهر مستشرقون لا يعجبهم هذا العدوان الواضح على الشعوب الشرقية ، ولهم مطاعن فى القرآن الكريم وأوهام حوله تناولتُ بعضها بالرد عليه ، يدعون سطحية العبارة والتكرار فى القرآن ، وترابط الآيات والسور ، والأهلة وإتيان البيوت ، والتلقى عن الكتابيين والتشكيك فى أصالة القرآن وفى قصصه [(١)] .

ومهما يكن من أمر فقد أثْرت المكتبة الأوروبية بالكتابة عن الإسلام والآداب العربية ، وأتيح للمستشرق من المراجع والمال والفراغ والعون الحكومى والشعبى والأمن والاستقرار ما لم يُتح لغيرهم من المسلمين . . ولولا أنهم

(١) السيرة النبوية وأوهام المستشرقين ص ٥٧ - ٧٢ ، وفصل « شبهات كارليل » ص ١٣٢ - ١٤٤

وراءهم الفكر الصليبى أو اليهودى المتعصب لحمدت الثقافة الإنسانية نشاطهم ، ولأناروا دياجير الحياة بدلاً من ملئهم إياها دخاناً محرقاً ، وقد أثمرت هذه الحركة الاستشراقية ثمرتها المرجوة للمستشرقين ، وحققت أغراضها التى استهدفوها إلى أقصى ما أمكن على مستوى القارة الأوروبية بل والأمريكية وفى كل المجالات ، بل كان ما نقله المستشرقون عن العرب المحور الذى تحرَّكت حوله الأفكار التى نشأت عنها حركة النهضة فى أوروبا منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادى .



فى دائرة المعارف الإسلامية

صدرت الدائرة بالإنجليزية والفرنسية والألمانية تحت رعاية الاتحاد الدولى للمجامع العلمية وأهم كُتَّابها المسئولين عنها :

* هوتسما ، فنسنك ، هفنتك ، كب ، ليفى بروفنسال ، شاده ، باسيه ، هارتمان ، أرنولد ، باور لويس ، بلا ، هـ . ن . جب .

وقد ترجم هذه الدائرة إلى العربية الأساتذة : إبراهيم زكى خورشيد ، أحمد الشنتناوى ، عبد الحميد يونس .

ومن المحررين فيها أيضاً :

* ف . بابنجر ، أ . أ . ايزنبرج ، و . ايفانو ، ج . بارت ، ر . باريت ، هـ . هـ . برى ، ر . باست ، س . س . برج ، ج . ل . دلافيدا ، دى بور ، دى تريش ، هـ . ر . بركندروف ، ك . ف . زيترستين ، هـ . سبير ، م . سترك ، مُ . سميث ، سنوك هوج روچيه .

* دكتور شترتمان (من أصل ألمانى) ، ج . شليفر .

* ب . شريك ، س . فان أريندونك .

* هـ . فوخس ، ف . فوكا ، كارل بروكلمان .

* أ . فيشر (وهو ألمانى الأصل) ، ر . أ . كرن .

* أ . كور ، ج . هـ . كريمرز (هولندى الجنسية كثير الطعن للإسلام) .

* لونجورث دايمز ، ت . لويش ، ج . مارسايز .

* ف . مينورسكى (كان أستاذاً بجامعة كبردج) ، ت . منتزل .

* هونجمان ، أ . ج . هويسمان ، هـ . س . نيبرج .

* و . هارنتر ، هورفيش (ألمانى) ، ب . هلر .

* و . هبفنتج ، هيوارت (وهو مشهور بتخبطه فى عرض الإسلام) .

* ج . ووكر (وهو صاحب ملامح من التوراة فى القرآن) .

* جولدزيهر ، ب . ويتك ، ت . هـ . دير .

* هنرى لامانس اليسوعى ، يوسف شاخت .

ومن محررى مجلة العالم الإسلامى من المبشرين بالنصرانية والمستشرقين :

* أدوين كالفلرى (وهو أمريكى متعصب ، وهو رئيس تحرير المجلة ، كما أنه من محررى دائرة المعارف الإسلامية ، وممن باشروا التدريس فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة عدة مرات ، واتجاهاته التنصيرية سافرة) .

* أ . أ . الدرس (وهو قسيس ، ومحرر فى مجلة العالم الإسلامى التى تصدر بالإنجليزية فى أمريكا) .

* ألفرد كارلتون (وهو مدير كلية حلب ، كما عمل نائب رئيس جمعية البعثات الأمريكية التنصيرية فى الخارج) .

* * *

نماذج من أمريكا للكُتَّاب

* **جروف هينز** : صاحب كتاب « إفريقيا اليوم » ، وقد طبع بمطبعة « جونز هوبكنز » بمدينة « بولتيمور » بالولايات المتحدة الأمريكية ، ويشتمل على ستة أبواب أو مقالات ، تتناول الكلام على القارة الإفريقية من النواحى السياسية والدينية والثقافية والاقتصادية .

ومما يسترعى النظر هذا الفصل الذى كتبه « جورج كارپنتر » عن الدور الذى تقوم به المسيحية والإسلام فى إفريقيا المعاصرة ، والفصل الذى كتبه سير « فيليب ميتشيل » الذى شغل منصب حاكم كينيا عن إفريقيا والغرب ، والفصل الذى كتبه » لورينزو تيرنر » عن علاقة التربية العربية بأساليب الحياة فى إفريقيا . والفصل الذى كتبه « كوفى بوسيا » عن ساحل الذهب ونيجيريا فى طريق نيل الحكم الذاتى ، و« وليام مورجان الصغير » عن معونة الولايات المتحدة الأمريكية الفنية والاقتصادية إلى إفريقيا ، و« پول نيتزه » عن الولايات المتحدة وإفريقيا من وجهتى النظر الأمريكية والإفريقية [١] .

* **جوستاف فون جرونيباوم** – الأستاذ بجامعة شيكاغو : كتاب « الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية » ، وطبع بمطبعة جامعة شيكاغو ، ويشتمل هذا الكتاب على مقالات تعالج الإسلام باعتباره ديناً وحضارة ، وتبحث التراث الثقافى وحالة البلاد الإسلامية ، وعلاقة العرب بالحضارة الإسلامية ، وتأثير الشريعة الإسلامية فى شمال إفريقيا وإفريقيا الاستوائية ، وعن المؤثرات الإسلامية فى شرقى إفريقيا وغربيها [٢] .

* **موريس دى لافوس** : المرابطون فى السنغال (طبع باريس ١٩١٦) ، ومثله كثيرون أثْروا البحوث فى كل شئون إفريقيا .

---

(١) حسن إبراهيم حسن : أنتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى – المقدمة (ر – ك) – طبعة ١٩٥٧

(٢) المرجع السابق – المقدمة : ص (ك) .

* **هنرى فورنيل** : فتح العرب لإفريقيا (طبع باريس ١٨٧٥) .

* **فيدج** : تاريخ غرب إفريقيا (كمبردج ١٩٥٥) .

* **سير آلان بيرنز** : تاريخ نيجيريا (لندن ١٩٥٥) وقد شغل منصب حاكم عام هذه البلاد سنوات عديدة .

* **ميك** : قبائل نيجيريا الشمالية (لندن ١٩٢٥) .

* **سبنسر ترمنجهام** : الإسلام فى السودان (طبع لندن ١٩٤٩) ، الإسلام فى الحبشة (لندن ١٩٥٢) .

* **ثيوبولد** : المهدية (لندن ١٩٠٥) .

* **ريتشارد بيرتون** : المواطن الأولى فى شرق إفريقيا (لندن ١٨٥٦) .

* **جوردون براون** : دليل شرقى إفريقيا (لندن ١٩٥٥) .

* **بدج** : تاريخ أثيوبيا (لندن ١٩٣٨) .

* **صمويل وسر** : رئيس جمعية الدراسات الشرقية الأمريكية ورئيس تحرير مجلتها .

* **س . موريسون** : له كتاب « التوتر السياسى والاجتماعى والدينى فى الشرق الأوسط » (صدر عام ١٩٥٤) .

* **مارجريت رونالد** : مستشرقة أمريكية معاصرة .

* **دكتور جون بادو** : عمل سفيراً لأمريكا فى القاهرة سنة ١٩٦٤ ، ومن قبل كان مديراً للجامعة الأمريكية بالقاهرة .

* **ك . يانج** : أمريكى مارس التنصير فى إيران ثم عمل مستشاراً لوزارة الخارجية ، ومديراً لقسم الدراسات الشرقية بجامعة « برنستون » بالولايات المتحدة الأمريكية .

* **جورج زنتز** : (١٩١٢) وظف بالسفارة الأمريكية بمصر حيث تزوج ثم انتدب فى مهمة سياسية بالجزيرة العربية .

* *

● جمعيات أمريكية :

يوجد فى الولايات المتحدة الأمريكية كثير من الجمعيات العربية الأمريكية ومئات من الجمعيات الإسلامية .

ومن الجمعيات العربية الأمريكية :

* جمعية العرب الأمريكيين : تأسست فى تكساس ، ورئيسها (عام ١٨٩٠) د . عزت أبو العينين ، رئيس قسم التوليد بجامعة « هيوستن » بولاية « تكساس » .

* المؤسسة التعليمية العربية الأمريكية فى « تكساس » : وقد تبنت إنشاء كرسى دائم بجامعة « رايس » ، التى تعتبر سابع جامعة فى مركزها العلمى بين مئات الجامعات الأمريكية .

وقد خصص هذا الكرسى للدراسات العلمية الجادة فى مجالات اللُّغة العربية وتاريخ وحضارة العرب وعلاقتهم بدول العالم ، والسياسات الأمريكية تجاه المنطقة العربية .

ولوحظ أن كُتَّاب دائرة المعارف وغيرهم بذلوا جهوداً جبارة ، ولكن كتاباتهم لم تسلم من الغمز واللَّمز والغرض المشبوه .

* * *

المؤتمرات

وقد عقد المستشرقون عدة مؤتمرات من أجل هذه البحوث العلمية الموجهة وجهة تخدم الغرض العلمى الذى ينفع الغربيين والغرض التبشيرى والسياسى الذى ينفع الكنيسة والسياسيين معاً ، كان أول مؤتمراتهم هو الذى عقد فى باريس سنة ١٨٧٣ ، وتكررت بعد ذلك المؤتمرات حتى بلغت الستة والعشرين فى عام ١٩٦٤ ، واشتركت مصر فى بعضها ، وكان ممن اشتركوا فيها من مصر : « عبد الله فكرى ، وحمزة فتح الله ، وحفنى ناصف » رحمهم الله [(١)] ، وفى مؤتمر « أكسفورد » بلغ عدد المندوبين (٩٠٠) نابوا عن ٢٥ دولة و(٨٥ جامعة) و(٦٩ جمعية علمية) .

ولنعطيك صورة عن طبيعة هذه المؤتمرات ودراستها نقدم لك نقلاً عن الأستاذ العقيقى صورة من جدول أعمال المؤتمر الخامس عشر المنعقد فى برلين سنة ١٩٠٨ ، وكان مخصصاً للشئون التاريخية .

١ - التاريخ البابلى : لفرنتز كومون البلجيكى .

٢ - آثار مصر التاريخية : لجاستون ماسبرو الفرنسى .

٣ - تاريخ مصر القديم واكتشاف البردى : لجرنفل الإنجليزى .

٤ - المدافن الملكية من السلالة الرابعة عشر : لرينير الأمريكى .

٥ - المدافن الملكية من السلالة الخامسة : لبورفوت .

٦ - اكتشاف الكرنك : للوجرين جوينكل .

٧ - أميرات مصر وملكاتها القديمات : لماهافى الإيرلندى .

٨ - ما بين الكتب المقدسة والآثار المصرية : لجوينكل .

---

(١) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث : ٣١٣/١ ، طبعة أولى ، ونجيب العقيقى : المستشرقون ، الفصل الثالث ، طبعة ثانية ص ٢٥ - ٢٧ ، وص ١١٤٨ طبعة ثالثة .

٩ - فضل الكنيسة فى إبطال الرق فى القرون الوسطى : لبيير الهولندى .

وواضح من هذا البحث إرادة تعميق احترام الكتب المقدسة والتراث الوثنى الفرعونى ، وهذا ينشأ عنه بالتالى - على المدى البعيد - خلخلة العقيدة الإسلامية المناهضة للوثنية الفرعونية والمسيحية واليهودية فى نفس الوقت ، وإيجاد أرض للتفاهم مع الوثنيين وغير المسلمين عامة على قاعدة الاحترام والإجلال لهم ولمقدساتهم ، وبالرغم من أن احترام أى شىء يمت إلى الوثنية بصلة مدخل للشرك .

١٠ - مشروعات اليهود الدينية : لوليم دافيس الإنجليزى .

١١ - حفريات أريحا والآثار الكنعانية : لسلن النمساوى .

وواضح فى هذين البحثين روح الشر الصهيونى وقد ألحق بالجدول أيضاً تاريخ بنى إسرائيل : لستانلى كوك من أساتذة « كمبردج » المتخصصين فى حفريات فلسطين .

١٢ - النظام الكنائسى فى آسيا فى القرن الرابع عشر .

١٣ - رسوم الملك چوستنيان : لريكوبونو الإيطالى .

١٤ - تاريخ الشرق والإسلام : للبرنس كايتانى الإيطالى .

١٥ - اقتصاد العرب المالى فى بدء الفتح المصرى : لبيكر الألمانى .

وبالإضافة إلى جدول الأعمال طرحت الموضوعات الآتية :

١٦ - هيكل جزيرة أسوان وآثارها المكتشفة حديثاً .

١٧ - بحث للأب اليسوعى الألمانى « ف . كوجلر » ، ودكتور « باربر مندس » الأمريكى عن العلوم الفلكية والرياضية عند الأشوريين .

١٨ - مقامات ابن ناقية : لبتار الفرنسى .

١٩ - مكاتبات السلطان بايزيد والأحبار الرومانيين .

٢٠ - أقدم مسجد فى القسطنطينية .

٢١ - مقابر المسلمين فى بغداد : لماسينيون .

* *

● مؤتمر المستشرقين الألمان :

فى كل أربع سنوات يُعقد مؤتمر للمستشرقين الألمان ، وكان المؤتمر الحادى والعشرين لهم فى أوائل إبريل سنة ١٩٨٠ بمدينة برلين ، وتطرح فى ساحته عشرات الموضوعات المرتبطة بالدراسات الشرقية أو الاستشراقية القديمة والحديثة على ساحة الشرق كله من أندونيسيا والهند شرقاً إلى المغرب العربى .

وفى هذه الحلقات الأربع عشرة التى نظمها المؤتمر طيلة سبعة أيام كانت حلقة للدراسات الإسلامية وحلقة للغات السامية .

ومن مباحث الحلقة الإسلامية بحث عن منهج ابن عساكر فى التأليف ، وبحث عن أكاديمية الإمام أبى حنيفة للفقه الإسلامى ، وآخر عن تاريخ بخارى عند ابن حبيب ، وآخر عن منهج الدراسات الحديثة فى البحوث الإسلامية ، وغير ذلك أبحاث أخرى مثيرة مثل بناء الكعبة كما أرادها الرسول ، وجغرافية القدس أثناء العصر المملوكى ، وغزو الكعبة ، والمتصوفة والفقهاء ، والتصوف والسياسة ، والمؤسسات الدينية فى المغرب العربى .

وفى حلقة الدراسات السامية ألقيت أبحاث مثل الأطلس اللُّغوى لمصر ، اللُّغة المالطية وصلتها بالعربية ، رموز الألوان فى لهجات السودان ، تاريخ الكلمات فى حضرموت فى سياقها التاريخى .

وكان من أبرز المستشرقين الحاضرين « فالتر براون » ، و« هانز ريمر » ، و« فرانز روزنتال » ، و« ولف فيشر » ، و« فرديريك شيللر » ، و« فريتز شتيبات » الذى قدم بحثاً عن « التيارات السياسية المعاصرة فى الدول الإسلامية » ، وألقاه فى القاعة الكبرى لمكتبة برلين الحكومية بصوت جهورى ثابت :

« أيها المستمعون ؛ ينبغى لنا أن نفرق بين المسلمين المعاصرين وبين الإسلام ، فالإسلام دين عظيم يدعو إلى العزة والحرية والعدالة ، والعلم والرقى ، ولكن الساسة المسلمين المعاصرين لم يلتزموا بروح الإسلام ، فكان من أمرهم هذا الذى تشهدون » .

* *

● **مؤتمر الأدب المقارن :**

وفى أغسطس سنة ١٩٨٥ عقدت الرابطة العالمية للأدب المقارن مؤتمرها الدولى الحادى عشر ، فى الفترة من (٢٠ إلى ٢٥ أغسطس) حضره حوالى (٦٥٠) باحثاً من أنحاء العالم .

* *

● **الأدب والفن :**

كما عقد مؤتمر الأدب والفن فى بريطانيا ما بين (٢٦ - ٢٩ أغسطس ١٩٨٥) ، وكان للأدب العربى دوره فى الحوار ، وقد عرض فيه الدكتور « حسام الخطيب » بحثاً عن « تأثير السياسة على نشأة القصة السورية القصيرة » .

* *

● **الجمعيات الآسيوية :**

تأسست هذه الجمعيات واهتمت بنشر التراث العربى والإسلامى جميعه كيما يتربى فى الأُوروبيين ملكة العرب فى التفكير والخيال ، ويتدربوا على منهجهم العلمى فى شتَّى البحوث .

وكانت أقدم جمعية من هذا النوع هى التى أُنشئت فى « بتافيا » عاصمة جاوى بالهند عام ١٧٨١ ، ثم الجمعية الآسيوية البنغالية التى أسسها السير « وليم جونسى » فى كلكتا عام ١٧٨٤ ، وكان أعضاؤها جميعاً من الإنجليز .

وقد نشرت هذه الجمعية أبحاثها فى عشرين مجلداً فيما بين عامى (١٧٨٨ - ١٨٣٦) عدا ما نشرته من بحوث فى مجلة الجمعية الآسيوية للبنغال التى ظهر أول أعدادها عام ١٨٣٢ ، ولا تزال تصدر حتى اليوم .

كما أُسست الجمعية الفرنسية عام ١٧٨٧ لنشر المخطوطات الشرقية مثل مروج الذهب للمسعودى ، ورحلة ابن بطوطة ، وجغرافية الإدريسى ، وتفسير القاضى البيضاوى ، وسيرة ابن هشام .

وأُسست الجمعية الآسيوية الفرنسية عام ١٨٢٠ وأصدرت المجلة الآسيوية التى اهتمت بدراسة الفرق الشاذة لتشويه طبيعة الفكر الإسلامى لدى الغرب ، إلى جانب ما نشرته من علوم العرب الفلسفية والطبيعية والأدبية والجغرافية

كما أُسست الجمعية الآسيوية الملكية بلندن سنة ١٨٢٣ فنشرت مقامات الحريرى ، وترجمان الأشواق لابن عربى [١] .

ثم ظهرت الجمعية الآسيوية فى بومباى وأصدرت لها مجلة ربع سنوية أخذت تنشر منذ عام ١٨٣٤ عدة بحوث وترجمات لمؤلفات أدبية وصوفية وتاريخية لم يرض عنها جمهور علماء المسلمين ، وإنما أراد المستشرقون بنشرها أن يُثيروا اضطرابات فكرية كانت قد خمدت وذلك مثل « مشكاة الأنوار » لأبى حامد الغزالى الذى ترجمه « جيروز » ، ثم سعى إلى نشره بالعربية أحد تلاميذ المستشرقين .

وفى عام ١٨٤٢ خذت أمريكا وألمانيا حذو إنجلترا وفرنسا فأنشأتا جمعتين ومجلتين آسيويتين ، كما ظهرت مجلة فى كل من النمسا وإيطاليا وروسيا ، ففى عام ١٨٤٠ تأسست بأمريكا الجمعية الأمريكية الشرقية .

* * *

(١) فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى : ١/٣١٣ - الطبعة الأولى .

الاستشراق بين العلم والإيديولوچيا

● مفهوم الإيديولوچيا :

قال الأستاذ « حسن الأمرانى » [1] : ظهرت كلمة« إيديولوچيا »أول مرة عام ١٧٩٦ فى فرنسا على يد الفيلسوف الفرنسى « دو تراسى » (١٧٥٤ - ١٨٣٦) عضو الأكاديمية الفرنسية ، وفى عام ١٨٠١ أصدر كتابه « الإيديولوچيا » .

ومعناها الفريب هو علم الأفكار أو فن البحث فى الأفكار والتصورات .

وعند « ماركس » و« إنجلز » : عدم الوعى الواضح بالدوافع الكامنة وراء الأفكار التى يطرحها ، ثم عدم الوعى بطبيعة الأفكار من حيث هى أفكار تحددها شروط متصلة بالوضعية المادية السائدة فى مجتمع الإنسان الذى يفكر ، كما أنها - عندهما - ترسم صورة ناقصة ومشوهة للعلاقات الواقعية السائدة فى المجتمع : « إن الإيديولوچيين يخلقون ضلالات نوعية فى المجتمع الذى يعيشون فيه ، ويضفون عليها طابع المثالية والخلود ، ثم يعتنقون هذه الضلالات عن صدق وبنية طيبة .. فهى نوع من الوعى الذى يتحول إلى أغلوطة » .

ولم يختلف « لينين » عن ذلك كثيراً ، فقد جعل الإيديولوچيا مرادفة للنظرية أو المذهب ، وفرَّق بين الإيديولوچيا العلمية وغيرها فقال : « إن كل إيديولوچيا تخضع لشروط من الوجهة التاريخية ، بَيْدَ أن كل إيديولوچيا علمية (خلافاً للإيديولوچيا الدينية) تقابل فى جميع الأقوال الحقيقة الموضوعية والطبيعة المطلقة » [2] .

وقال الباحث الماركسى « ماركوفيتش » : إنه باسم الإيديولوچيا الماركسية نفرض على الكتاب ألا يرسموا سوى الجوانب المضيئة من الحياة السوڤييتية ،

---

(١) الإنسان : العدد الأول ، مارس ١٩٩٠   (٢) العلم والإيديولوچيا ص ٣٠

وأن يشيدوا بالأبطال الإيجابيين والبناة ، ونطالب الموسيقيين بالتخلى عن لغة الموسيقى الحديثة ، والعودة إلى تشايكوفسكى .

وبهذا لا يمكن للعلم أو الفن أن يزدهرا إذا كان عليهما أن يخضعا للسياسة اليومية من الناحية المبدئية [1] .

والحاكم المستبد يحتاج إلى إيديولوچيا تبرر الواقع الذى يسير فيه حياة المجتمع ، ويكره العلم الذى له قواعد ثابتة .

❋ ❋

● الإطلاق الحديث للإيديولوچيا :

تطلق اليوم كلمة « الإيديولوچيا » على القواعد والأصول المختمرة لدى فرد أو جماعة أو أُمة تحقق لها رغباتها فى الحاضر وطموحاتها المستقبلية سواء ارتكزت على فكر دينى أو غيره ، والإسلام فى ذاته إيديولوچيا للمسلمين بما فيه من أصول وترغيب وترهيب .

❋ ❋

● المستشرقون والإيديولوچيا :

قال « ج . لكلرك » : ليست الإيديولوچيا أكثر من تبشير بالنصرانية يدَّعى العلم والأخلاق .

وقال الأستاذ « جسن الأمرانى » : وإذا كانت الإيديولوچيا تختلف عن العلم فى أنها تتجاوز دراسة ما هو كائن إلى التبشير بما ينبغى أن يكون ، استناداً إلى أسلوب دعائى حيناً مباشرة ، وحيناً آخر بإيحاء يتقنّع بقناع العلم ، فإننا نستطيع أن نحدد - بوضوح - المعنى الإيديولوچى فى التركيز عند دراسة شاعر كالمتنبى على جوانب معينة ، والدفع بها وجهة تتناسب مع أهداف

---

(١) العلم والإيديولوچيا ص ٤٠

المرحلة الاستعمارية الغربية ، إذ لم تكن دراسة موضوعية لظاهرة تاريخية تجسدت فى شاعر عربى ، بقدر ما كانت تهدف إلى تفسير الحضارة الإسلامية برمتها تفسيراً عرقياً ، يصور النزعة التسلطية للجنس العربى - قديماً وحديثاً - تحت ستار روحى ثقافى ، وهو تفسير يسعى إلى تعضيد العناصر المفرّقة لكيان موحد ، وذلك عن طريق إضفاء الطابع البطولى على نزوع الحرية ، الذى تجلى عند أعراق تأبت على الذوبان والخضوع للتسلط العربى ، كالبربر فى المغرب ، والأكراد والقوقازيين فى المشرق .

وإذا كان من طبيعة المنهج الفيلولوچى الالتزام بالدقة والأمانة ، باعتباره يقوم أساساً على معالجة النص القديم بطريقة تساعد على تقريبه إلى المعاصرين ، فإن هذا المنهج - كما ظهر على يد المستشرقين - لم يكن يسلم من الزلل حين يخرج من الوصف إلى الحكم الذى لا يستند إلى الدراسة المتأنية ، بقدر ما يستند على هشاشة الأهواء ، وفى هذا الإطار وحده نستطيع أن نفهم الحكم الاستشراقى الذى ظل يتردد طوال قرنين من الزمان ، والذى يقول : إن المكانة التى يحتلها المتنبى لا تعود إلى قيمته الأدبية بقدر ما تعود إلى فساد ذوق أُمته .

وقد تجاهل المستشرقون حقيقة أن المتنبى لم يبلغ إلى ما بلغ إليه إلا بفضل المنافسة ونضج النقد الأدبى فى ذلك الوقت ، وتجاهلوا كم من الحِكَم الفلسفية والاجتماعية صاغها فى إطار موسيقى الشعر من النادر وجود مثلها فى الغرب .

* * *

● **التوبة الاستشراقية المحدودة :**

لقد استشعر كثير من المستشرقين عند منتصف القرن العشرين الإسراف فى مغالطات السابقين ، فبدأوا يتجنبون ذلك ليبدو أنهم منصفون حتى يُسمع لهم ، ولكن بقيت فيهم آفة هى أنهم يتصورون أن مقاييسهم النقدية هى الوحيدة فى فهم النصوص وفى الحكم على صحتها أو على جمال الأُسلوب ، وتجاهلوا اختلاف البيئات التى نبت فيها الشاعر أو الكاتب ، بيئة مدنية أو ثقافية أو دينية .

ولقد يتهم المستشرقون العرب بالتعصب لبنى جنسهم ، ولا يريدون أن

يقولوا إنهم أعلم ببواطن الأُمور لأنهم أهل البيئة ، وأقرب إلى أصحاب الإنتاج الفكرى والأدبى ، بينما من الممكن أن يرمى شعراؤهم ومفكروهم بنفس ما انتقصوا به شعراءنا ومفكرينا .

لقد عمدوا إلى الشخصيات القلقة كالحلاج يبرزونها فى صور غير صادقة ليخدموا أغراض الكنيسة خاصة ، وعمدوا إلى تغريب الشرقيين بما بثوه من أفكار ، وبما شجعوا عليه من عادات ، وحمل لواؤهم أمثال طه حسين ، ومحمد أركون . . وما أكثر هؤلاء فى المسلمين تلاميذ المستشرقين فى الغرب ممن يحملون لواء العمل الإسلامى هناك .

قد اقترح علاج ذلك بالحوار الحضارى الذى يستوجب استكمال البناء الحضارى الإسلامى على بصيرة ، فما لم يرتفع مستوانا سيظل المستشرقون ينظرون إلينا من أعلى ونظل نحن تستشعر الصغار والنقص عند حوارنا معهم .

* *

• الدراسات الخاصة والترجمة :

يرجع الاهتمام بالعلوم العربية ودراستها إلى القرن العاشر الميلادى حيث اهتم ملوك أُوروبا بالآداب والعلوم الإسلامية كافة ، وكما كان المأمون من خلفاء العصر العباسى يبذل بسخاء لترجمة الكتب الأجنبية ، فعل « ألفونس » ملك قشتالة لترجمة كتب العرب ، وهكذا كان قبله « فردريك الثانى » ملك صقلية عام ١٢٥٠ م ، وقد بلغ ما تُرْجِم من العربية فى القرون الوسطى أكثر من (٣٠٠ كتاب) منها (٩٠) فى الفلسفة والطبيعيات ، (٧٠) فى الرياضيات والنجوم ، و(٩٠) فى الطب ، و(٤٠) فى الفلك والكيمياء ، وظلت هذه هى زاد أوروبا التى أخذت تثريه وتفيد منه شيئاً فشيئاً حتى كانت نهضتها المادية الكبرى التى هددت كياننا بعد ذلك .

وإلى جانب جهود الملوك كان جهود كبار القساوسة والعلماء وإليك بعض الأمثلة :

١ - جيرار دى كريمون (١١١٤ - ١١٨٧ م) :

تضلع فى العربية ونقل منها إلى اللاتينية فلسفة الكندى والفارابى وابن سينا ، كما نقل للرازى بعض مؤلفاته ، ونقل عن العربية كذلك كتاب الأحجار لأرسطو وجالينوس وكتاب « إقليدس » فى علم الفلك ، وترجم كتاب علم النجوم لجابر بن أفلح ، وكتاب الأدوية ليحيى بن سرابى ، ويقال : إنه ترجم سبعين كتاباً فى جميع فنون العلم وضروب الآداب كانت فقدت أصولها العربية ولم يسلم إلا ترجمتها اللاتينية ، وهو إيطالى من الرهبان البندكتية ، وقد توفى بطليطة حيث كان يعمل مترجماً بمدرسة طليطلة كتب العرب إلى اللاتينية [١] .

٢ - ميكائيل سكت (١١٧٥ - ١٢٣٥م) :

وهو اسكتلندى المولد بندكتى الرهبنة ، وقد حاز لقب الرياضى من جامعة باريس ، ثم انتقل إلى بلرمة وطليطلة مهدَىْ الثقافة العربية ، ومن دراساته « خلاصة الفلسفة لابن سينا » انتهى من وضعه سنة ١٢١٠ م ، وكان « سكت » معاصراً لابن رشد المتوفي سنة ١١٩٨ م ، وقد ترجم شروح ابن رشد التى كتبها تعقيباً ونقداً لأرسطو عن السماء والأرض والنفس ، كما نشر « الأسرار الطبيعية » وكتاب « المسألة الدقيقة عن طبيعة الشمس والقمر فى علم السيمياء » ، وكتاب « الحيوان » لأرسطو ، وهى مؤلفات استقاها من كتب العرب .

٣ - باكون (١٢١٤ - ١٢٩٤ م) :

هو راهب إنجليزى المولد ، أولع بالنجوم والكيمياء حتى أتقنهما فى مدارس باريس العربية ، ثم أكب - فى دير الفرنسيسكان - على درس مؤلفات

---

(١) المستشرقون لنجيب العقيقى ص ١٢٦ الطبعة الثالثة .

والبندكتية : نسبة إلى القديس « بنديكتوس » ، أسس رهبانيتهم فى جبل كاسينو عام ٥٢٩ م ومن طائفتهم المستشرق « الأب جاتن » ، و« توما الأكوينى » .

ابن الهيثم فإذا نتيجة درسه اختراع المجهر « الميكروسكوب » ويقرر « باكون » أن الكندى و« بطليموس » فى الصف الأول من الفكر الفلسفى .

وقد نقل عن العربية - فى علم الكيمياء - كتاب « مرآة الكيمياء » .

٤ - روبرت أوف تشستر الصقلى (فى القرن الثانى عشر الميلادى) :

هو من أهالى كينون فى « روثلاند » . عاش فى إسبانيا حقبة طويلة تعلم فيها العربية ، وقد لقى « بطرس المحترم » سنة ١١٤١م فحرضه بطرس على ترك علم النجوم والاضطلاع بترجمة القرآن إلى اللاتينية ، فتم ذلك فى عام ١١٤٣ م ، ثم ترجم « تشستر » كتاب الخوارزمى فى علم الجبر عام ١١٤٤ م وكانت ترجمته فاتحة علم الجبر فى أوروبا ، كما ترجم كتاباً فى « الكيمياء القديمة » وهو أول كتاب كيمائى تداولته أوروبا الغربية ، ثم ألّف عدة رسائل ونقح كتاب « الخوارزمى » سنة ١١٥٠ م لينطبق على خط الزوال فى لندن وهو بهذا يحاول تغريب العلوم وقوانينها الشرقية ، دخل الرهبانية البندكتية ، وعين أسقفاً على بامبلونة . ثم اختير مستشاراً لصقلية [١] .

٥ - ادلارد أوف باث (١١٢٥م) :

نسب إلى مدينة « باث » مسقط رأسه ، ثم رحل إلى إسبانيا وسوريا فى فجر حياته لدراسة الثقافة العربية ، قد ترجم إلى اللاتينية كثيراً من الكتب العربية أفاد منها معاصروه ، وعدد كبير منها فى علمى الفلك والرياضة ، وبهذه العلوم العربية حاز مركزاً ممتازاً أهّله ليكون مربياً للأمير « هنرى » الذى أصبح فيما بعد الملك « هنرى الثانى » ملك إنجلترا .

٦ - دوزى (١٨٢٠ - ١٨٨٣ م) :

ولد فى « ليدن » من أصل فرنسى ، وهو من عائلة اشتهرت بالاستشراق ، ترجم مقدمة ابن خلدون ، كما نشر تاريخ بنى زياد ملوك تلمسان بعد أن ترجمه

---

(١) المستشرقون ص ١٢٣ - الطبعة الثالثة .

وعلق حواشيه ، وعلق على كتاب المقرى الذى نشره « فايشر » ، ونشر الجزء الثالث من الذخيرة لابن بسّام ، والمعجب فى تاريخ المهدى لعبد الواحد المراكشى ، والبيان والمغرب لابن عذارى ، عدا مؤلفات عديدة ضخمة مثل « تاريخ الإسلام فى إسبانيا (أربعة أجزاء) ، وكذا كتاب العرب فى دولة العباديين (فى ثلاثة أجزاء) وملحق ، وتكملة المعاجم العربية (فى جزءين) .

ومن بحوثه كذلك كتاب الأمراء ، وكتاب أصل الكلمات العربية ، والكلمات الدخيلة عليها ، وكتاب أصل الكلمات العربية فى اللغتين الإسبانية والبرتغالية ، ودرسٌ فى ثمانين صفحة عن مقدمة ابن خلدون نشرته المجلة الآسيوية سنة ١٨٦٩ ، وكتاب عن أريب وأديب ابنى سعيد الإسرائيليين فى مكة .

٧ - المستشرق الدكتور « ديفيد كينج » :

هو أستاذ تاريخ العلوم فى جامعة « فرانكفورت » ، ومدير معهد تاريخ العلوم فى نفس الجامعة ، وأستاذ اللغات الشرقية فى جامعة « نيويورك » ، ومتخصص فى تاريخ الفلك والرياضيات فى العالم الإسلامى فى العصور الوسطى ، اشتغل بالمخطوطات العربية ، وإنما كان اهتمامه بتاريخ استخدام الفلك للاحتياجات الدينية عند المسلمين ، وهو أستاذ معاصر ، وله فهرس يضم (٢٥٠٠) مخطوط عربى علمى ، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية ، وتاريخ علم الميقات فى الإسلام ، وتاريخ علم الفلك فى مصر وسوريا واليمن . هذا عدا مقالات عديدة عن تحديد مواقيت الصلوات وتحديد القِبْلة .

وقد زار الكويت وألقى بها محاضرة ، تطرق فيها إلى وصف الآلات الفلكية الإسلامية المحفوظة فى دار الآثار الإسلامية بالكويت ، وركز فى شرحه على الاسطرلاب المصنوع فى أوائل القرن الرابع الهجرى الموافق للقرن العاشر الميلادى ، والذى وصفه « محمد بن عبد الله » المعروف باسم « نسطولس » ، كما تناول شرح آلات أخرى واستعمالها مثل « دائرة المعدل » .

* *

● مستشرقون معاصرون بالقاهرة :

أقيمت ندوة لمدة أربعة أيام باسم ندوة نجيب محفوظ فى معرض الكتاب الدولى بالقاهرة فى (آخر يناير وأوائل فبراير ١٩٨٩) وشهدها من المستشرقين « روجر إلن » ، و« تريفور بوجاسيك » ، و« إميل چيبى » .

* ومن المعاصرين كذلك : « **ستيفن روتسمان** » صاحب « تاريخ الحروب الصليبية » .

* « **ر . ليفى** » صدر له فى عام ١٩٣٣ كتاب مقدمة لدراسة علم الاجتماع الإسلامى كما كتب الهيكل الاجتماعى للإسلام فى عدة أجزاء ظهرت فى عام ١٩٥٧ .

* « **آرثر جيفرى** » : متعصب سافر ضد الإسلام ، وله : الكلمات الدخيلة فى القرآن ، ومصادر تاريخ القرآن ، والقرآن كتاب دينى .

* « **لويس أراجون الفرنسى** » : كان شاعراً مجيداً ، وعندما ماتت زوجته « إلزا » سنة ١٩٧٠ شعر وكأن الوجود عين مفقودة ، وقد عاش بعدها اثنتى عشرة سنة وهو يترقب يوم الرحيل عن هذه الحياة ، وقد واتاه فى فجر يوم الجمعة من نهاية عام ١٩٨٢ ، وكان شاعراً رومانسياً عاطفياً . أطلق عليه بعد وفاة زوجته « مجنون إلزا » فقد كان هذا المستوى من الحب شرقياً لا يتصور الغرب أن يكون فى ديارهم يوماً ، وبخاصة فى باريس .

وفى الحق إنه كان فى حبه وشعره وعواطفه متأثراً بالشرق ، وتأثره بالشرق ثابت من خلال جولاته التى قام بها إلى هذا العالم المختلف عن طبيعة الغرب ، وهو شاعر ناقد ، وقد قام بدراسة مقارنة ، قارن فيها بين مجموعة شعراء « الطوربادور » فى فرنسا أثناء القرون الوسطى ، وبين الشعراء العرب ، وقال : « لقد شدنى إلى شعراء العرب ما وجدته من قرابة روحية ، وشَبَهٍ فى المحتوى » .

لقد ظل فترة من عمره يتخبط فى شعارات ظن أنه بمناصرتها يخوض قضايا المعدمين والفقراء والموجوعين ، ثم ما لبث أن اكتشف عدمية تلك الشعارات وسقوطها ، فقال عبارته التى جعلها عنواناً لأحد كتبه : « لا بد أن نعرف الأشياء بمَسمَّياتها » وبدأ يتجه إلى الفكر الفلسفى عن الوجود وعن الشرق ولم يتخل عن نُصرة الدعوة إلى الإسلام الذى حرمه الشرق حتى مات .

* **إيتيان بيترى** : مستشرق فرنسى ، شارك فى الملتقى الدولى الثالث فى مناهج اللغة الأدبى بتلمسان - الجزائر فى نوفمبر ١٩٨٩ . وكانت محاضرته عن « منهج لسانى ذو مقاربة تقاليبية » .

* **برنار بويتيه** : مستشرق فرنسى ، ساهم فى الملتقى المذكور ، وكانت محاضرته عن « تأثير اللِّسانيات المعاصرة غير العربية فى الأنظمة اللِّسانية العربية » .

* **أندرتى رومان** : فرنسى ، اشترك فى الملتَقى المذكور ، وكانت محاضرته عن « اللِّسانيات عند العرب وعلاقتها بالنظام اللِّسانى العربى » .

* **إدجار بيزانى** : وهو رئيس معهد العالم العربى فى فرنسا ، وعمل مستشاراً للرئيس « ميتران » ، ويسكن فى إحدى مقاطعات الريف الفرنسى .

* *

● فى إسبانيا :

* **البارو ماتشو دورم** : وهو صحفى معاصر ، اشتغل بالصحافة فى أورجواى الناطقة بالإسبانية فى أمريكا الجنوبية ، كما عمل فى راديو اريل ، وفى القناة العاشرة فى التلفاز ، كما ألقى عدة محاضرات فى الأدب بجامعات أورجواى ، والأرجنتين ، وكولومبيا ، وبرجواى ، هذا إلى جانب مجموعة ضخمة من البحوث فى الاقتصاد والثقافة العامة والسياسية مثل موضوع « استرداد الأراضى الفلسطينية » وموضوع « الجامعة العربية بصفتها تعبيراً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً » وموضوع « الأمة الإسلامية » .

وفى حقل الإسلام نشر كتاب « أركان الإسلام » ، وكتاب « محمد رسول الله »

الذى ترجمه إلى العربية الدكتور عبد اللطيف محمود عضو البعثة المصرية فى إسبانيا .

وهو الآن يشغل منصب نائب رئيس الاتحاد الوطنى لنقابات العمال والمستشار العمالى فى مجلس الحكومة الإسبانية .

* **بسكوال دى جاينجوس** : عاش فى الفترة (١٨٠٩ - ١٨١٧) ، وتتلمذ فى جامعة مدريد على الأب أرتيفاس ، وعين مترجماً فى وزارة الخارجية .

* **لويس بورغيس** : لسانه إسبانى كسائر الأرجنتين التى يحاضر بها ، ويقال إنه متأثر بالثقافة العربية ، ويقول : إن جدته كانت إنجليزية تقرأ عليه التوراة ، حتى أصبح يتصور أن إسرائيل تشكل جزءاً عميقاً منه ومن المجتمع المسيحى ، ونسبه منذ الطفولة ذو عمق فى إسرائيل وارتباطه بها أقوى من رابطة الدم أو المنحدر العنصرى .

* *

• وفى أمريكا :

وفى مدينة « كامبير » بولاية « أوهايو » صدرت مجلة جمعية الدراسات الشرقية ، ولها فروع فى لندن وباريس وليبزج وتورنتو فى كندا ، وهى سياسية الطابع من وجهة نظر الغرب ، وإن كانت تعرض من وقت لآخر لبعض المشكلات الدينية ، وخاصة فى باب التعريف بالكتب .

وفى أمريكا أيضاً تصدر مجلة الشرق الأوسط ، ومجلة شئون الشرق الأوسط ، وطابعهما سياسى ، وأخطر منهما مجلة العالم الإسلامى التى أنشأها « صموئيل زويمر » فى سنة ١٩١١ ، وتصدر من « هارتيفورد » بأمريكا وكان يرأس تحريرها « كنث كراج » ، وهى تبشيرية سافرة ، ومثلها فى فرنسا مجلة العالم الإسلامى .

كما أصدروا بكل اللغات الحية دائرة المعارف الإسلامية محشوة بالمغالطات ، كما أصدروا لها موجزاً بنفس تلك اللغات .

وأسست المستشرقة الروسية « أولجادى لبيديفيا » المشهورة باسم « كلنار »

الجمعية الشرقية الروسية ، وحذا حذو هذه الأمم شعوب أخرى مثل بلجيكا والدانمارك ، ثم أنشئت بكل جامعة ومعهد مجلات خاصة بالمشرقيات نيفت على ثلاثمائة مجلة متنوعة .

وفى عام ١٩٦٦ أنشئت جمعية دراسات الشرق الأوسط بالولايات المتحدة الأمريكية ، وهى تنشر مجلتين لتيسير الاتصال بين علماء الأمريكان المهتمين بالمنطقة .

* *

● **وفى هولندا :**

تأسست « الدائرة العربية الهولندية » عام ١٩٥٥ ، وهى جمعية موالية للعرب ، حيث يلقون فيها محاضراتهم السياسية والاجتماعية والأدبية كلما طلبوا ذلك .

* * *

تولستوى

من أعلام المستشرقين الروس ، بل وأعلام الغرب كله ، لقد أدرك فى فجر حياته أن مصادر ما فى الغرب من تراث روحى هو الشرق ، فنادى بالعودة إلى الشرق للأخذ عنه ، وبدأ هو بعمق دراسته لتراث الشرق .

فهو يرى فى الغرب حضارات فاسدة ومفسدة ، أما الشرق فلم يزل فيه استمساك بالفضائل ، وذلك لاستمساكه بأصالة الفكر الدينى الذى يرى فيه « تولستوى » حصيلة جامعة للقيم الأخلاقية التى اختبرت لقرون ، والتى يجب أن تظل الحقيقة الراسخة الوحيدة فى مسيرة الشعوب .

قال « تولستوى » : إن أزمة الواقع المعاصر له تتمثل فى ابتعاد الناس عن القيم الأخلاقية النابعة من الإيمان الحقيقى بالدين .

● **من مؤلفاته :**

١ - كتاب الاعتراف : وفيه قرر أنه عند اقترابه من الخمسين بدأ يفكر فى حقيقة الموت والحياة ، وأعياه البحث حتى كاد أن ينتحر إلى أن لاحظ أن المعنى الحقيقى للحياة يجده هؤلاء الناس الذين يؤمنون بالدين فى دينهم ، فيعطيهم القوة والإيمان بالحياة ، ولهذا - كما يقول فى « الاعتراف » - أخذ يقترب أكثر فأكثر من المؤمنين .

٢ - طريق الحياة .

٣ - لكل يوم .

٤ - دائرة القراء .

وفى هذه الكتب التى كتبها بعد أن درس القرآن والسيرة المحمدية ، وكثيراً من أحاديث الرسول محمد ﷺ أودع الكثير مما أشارت إليه مما يتفق مع اقتناعه الذاتى وتصوراته عن الحياة . . وقد اجتذبته بشدة معانى القرآن التى تدعو إلى السماحة ، والتواضع ، وحب العمل ، وصلة الرحم ، وكذلك المعانى التى تحرم السرقة ، وشرب الخمر ، وقتل النفس .

٥ - أحاديث مأثورة : ويقع فى ثلاثين صفحة ، وصدر عام ١٩١٠ عن سلسلة « المفكرون الرائعون لكل العصور والشعوب » ، وكتب له مقدمة عن جزيرة العرب ، وعن حياة محمد وإيمانه بالمرسلين قبله ، وقال : « إنه اختار تلك الأحاديث من كتاب صدر فى الهند بالإنجليزية لمؤلفه عبد الله السودافاردى ، وجعل مقياس الاختيار أن تكون محتوية على حقائق عامة لكل الأديان .

❊ ❊

● بيرسى شقيقة تولستوى :

« بيرسى » مستشرقة روسية تأثرت بصيحة أخيها حين دعا إلى الاتجاه إلى الشرق مصدر الديانات التى هى أصل الأخلاق الفاضلة المستقرة .

وقد كتبت مقالاً عن الرسول محمد ﷺ ، وكتب تولستوى له مقدمة ، وجرى قلمه بتقييد ملاحظات وتصويبات فى المقال ، وهذه المقدمة التى كتبها لمقال أخته هى مجرد تعريف بمكانة الإسلام .

ولكن الرقابة حذفت من المقدمة الكثير ، وبقيت مسودة مقال « بيرسى » بأرشيف « تولستوى » فى موسكو .

❊ ❊ ❊

فى اليابان

ظهرت الدراسات الاستشراقية تقليداً للغرب ، ومن .أبرز المعاصرين « شيروتانكا شيرو » الذى يهتم بدراسة العوائق فى طريق المد الإسلامى .

* *

● **وفى النمسا :**

تأسست جمعية الشرق النمساوية بڤيينا ؛ وهى تقترن باسم المستشرق « هامر بورغستال » ، وهى معنية بثقافة الدول الإسلامية والعربية ، وقد نظمت سلسلة محاضرات لإلقاء الأضواء على العالم العربى بشكل عام .

كما تعمل الجمعية من خلال فعالياتها ونشاطاتها المختلفة على توطيد الصداقة العربية النمساوية ، وتضم عدداً من الأساتذة المستشرقين فى الهيئة الإدارية ، منهم البروفيسور « فايس » المعنى بجغرافية الدول العربية ، والبروفيسور « دوستال » رئيس قسم علوم الشعوب فى جامعة « ڤيينا » الذى سبق واختص بمنطقة الجزيرة العربية واليمن وله بحوث ودراسات مهمة فى هذا المجال ، كما تضم الجمعية عدداً كبيراً من الأساتذة من مختلف الأوساط والمهن من النمساويين والعرب ، كما ألقى الدكتور مصطفى عبد الله محاضرة حول التطوير الديمقراطى فى مصر بمعهد العلوم السياسية بجامعة ڤيينا ، وقد أقام البروفيسور « أميل ريتسك » الذى يُعَد من رواد الفن التشكيلى والمدرسة الانطباعية بالنمسا معرضاً ضم لوحات من مصر ولبنان ، تمثل منتصف الخمسينيات فى القاهرة والإسكندرية وغيرها ، ولبنان ، نتيجة لانطباعات من خلال زيارات مختلفة زارها « ريتسك » لدول عربية مختلفة وتأثر بالطبيعة والإنسان فى هذه الدول ، وقد سبق إنجاز هذه اللوحات المعروضة عام ١٩٥٦ بالألوان المائية ، كما عبر بريشته فى رسومه عن الإنسان فى مصر ولبنان فى الحياة اليومية ، كما عرض مناظر للمدينة وللأسواق والموانى والجوامع والعمارة الإسلامية وغير ذلك .

وقد حضر المعرض سفير مصر والمستشار الثقافى إلى جانب عدد كبير من الفنانين والجمهور النمساوى .

كما يوجد مقرٌ للجامعة العربية فى ڤيينا ، ونادٍ للمصريين ، لهما أثر فى التعريف بالعرب وبالإسلام .

* *

• جمعية آداب اللُّغة العربية فى لندن :

أسسها أحمد زكى أبو شادى المولود بحى عابدين بالقاهرة سنة ١٨٩٢ ، والمتوفى يوم ١٢/ ٤/ ١٩٥٥ ، وكان رئيسها المستشرق الدكتور « مارجليوث » .

* *

• معهد الشرق بإيطاليا :

كان بدء نشأته فى أوائل الثمانينيات ، ومن أنشطته ترجمة بعض كتب الأدب العربى إلى الإيطالية .

* *

• قسم لغات الشرق الأدنى وثقافاته :

وهو بجامعة « أنديانا » بالولايات المتحدة الأمريكية ، ويوجد فى معظم الجامعات الأمريكية والإنجليزية والفرنسية والألمانية أقسام للغات والديانات الشرقية ، ولكنها تجد من الصهيونية كثيراً من المتاعب .

* *

• معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بألمانيا :

وهو يعمل فى إطار جامعة « فرانكفورت » بألمانيا ، ويشرف عليه الدكتور فؤاد سركين ، وقد أصدر المعهد « مجلة تاريخ العلوم العربية والإسلامية » وهى سلسلة كتب بدأ إصدارها سنة ١٩٨٤ ، وقد صدر كتاب منها فى فبراير

سنة ١٩٨٨ تضمن جزءاً باللُّغة العربية والجزء الثانى مقالات بالألمانية والإنجليزية مع ملخصات لها بالعربية .

وقد أسهم فى هذا العدد المستشرقون الدكاترة « ادواركندى » ، و« إيكهارت نوى باور » ، و « كارل إيبرج » ، و« ديتمر بيشوف » ، و« فولفهارت هاينريكس » ، ومعهم « مازن يوسف عماوى » .

*

● أهداف مطبوعات المعهد :

يهدف المعهد إلى إبراز مكانة هذه العلوم وتاريخها ، وإلى جانب العرض التاريخى فإنها تقدم موضوعات هامة فى ميادين الطب ، والفلسفة ، والرياضيات ، والعلوم الإنسانية فى إطارها التاريخى والعلمى ، إلى جانب النصوص الأصلية للتراثين الفكريين العربى والإسلامى ، وترجمتها إلى اللُّغات الأجنبية ، وبخاصة الألمانية والإنجليزية ، مع صرف النظر عن القضايا العربية المعاصرة الساخنة .

*

● مضمون كتاب مجلة العلوم العربية والإسلامية :

تضمن الكتاب الصادر فى فبراير ١٩٨٨ - وهو فى (٤٣٠ صفحة) - عدداً من البحوث اهتم بها المستشرقون :

١ - كتاب الآثار العلوية : وهو بحث باللُّغة العربية للدكتور فؤاد سركين حول رسالة « ثاوفرسطس » ، موضوعه تعليل الظواهر الجويّة ، وكان « أرسطو » قد تناول بالبحث هذا الموضوع وترجمه الحسن بن البهلول - فى القرن الرابع الهجرى - ومما تناوله تحليل وتعليل ظواهر الزلزال ، والبرق ، والرعد ، وسقوط الأمطار ، والهالة المحيطة بالقمر .

٢ - كتاب « ثلاث رسائل فلسفية » لجابر بن حيان هى كتاب : المعرفة ، وكتاب النفس ، وكتاب القسمة ، وهى كتب تمهيدية للفلسفة الإسلامية العربية .

٣ - ملخصات بالعربية لكتب أجنبية ، سواء كتبها عرب أو أجانب باللُّغات الأجنبية أهمها :

(أ) مقالة البيرونى فى سير سهمى السعادة والغيب ، كان قد كتبها « ديفيد نيجيرى » و« ادوارد كندى » ، وفؤاد حداد .

(ب) كتاب ملاحظات فى مصطلحات الاسطرلاب ، بقلم الأستاذ « باول كونيتسن » .

(جـ) كتاب طريقة استخراج سمت القِبْلة - فى رسالة علم الظل لابن الرقام - وهو بالإنجليزية للدكتور « خوان كارندل » ، ويتناول موضوعى : استخراج البُعد الدائرى لأى مكان من الأرض عن مكة المكرمة ، ثم تحديد اتجاه القِبْلة المشرفة من المكان نفسه .

(د) كتاب علم الفلك العربى و« كوبرنيكوس » وضعه بالإنجليزية الدكتور جورج صليبا ، أثبت فيه أن الطرق التى اتبعها « كوبرنيكوس » - فى وصف حركة الكواكب والسيَّارات مطابقة للطريق التى سلكها علماء الفلك المسلمون من قبله ، مما يعزز احتمال نقل « كوبرنيكوس » لنظريته المعروفة عن العرب .

(هـ) كتاب « حركات الأرض فى رسائل إخوان الصفا » للأستاذ « اليساندرو باوسانى » وهو باللُّغة الألمانية ، ويبحث عن المقاطع الواردة فى رسائل إخوان الصفا حول حركة دوران الأرض .

(و) بحث « رسالة أبى سهل الكوهى حول عمل مخمس متساوى الأضلاع فى مربع معلوم » ، وهو بحث وضعه الأستاذ « بان بيتر هوهنديك » بالإنجليزية ، معتمداً فى ذلك على عدَّة مخطوطات ، وعلى رسالة الكوهى التى أهداها إلى الملك شرف الدولة فى أواخر القرن الرابع الهجرى .

(ز) بحث « طريقتان للبيرونى فى رسم الخرائط » للأستاذين « إدوارد كندى » ، و« مارى تيريز ديبارنو » ، وفيه يعرض طرق رسم كرة على سطح

مستوٍ ، وبخاصة طريقتى « تساوى الأبعاد السمتيَّة » ، و« الإسقاط الكروى » السهلة .

(ح) بحث للأستاذة الألمانية « إيرين فيلمان » يدور حول سؤال هل قانون ابن سينا انتحال لقانون الحاوى للعالم أبو بكر الرازى ، وهو يناقش ما قاله البعض من أن ابن سينا اعتمد فى معظم أجزاء بحثه على كتاب « الحاوى » للرازى ، معتمدين فى ذلك على مخطوطة موجودة فى لندن بعنوان « حاوى زكريا ورازى » بينما أكدت المؤلفة أن المخطوطة المشار إليها لا تتطابق مع كتاب « الحاوى » للرازى .

(ط) بحث علمى للأستاذ الألمانى « فولفهارت هاينزيكس » بعنوان الترابط الاصطلاحى بين الاستعارة والبديع فى النقد الأدبى القديم عند العرب ، أكد فيها الباحث أن أُدباء العصر العباسى استخدموا مصطلح « البديع » مرادفاً لمصطلح « الاستعارة » .

(ى) دراسة وضعها الدكتور چورچ مقدسى بالإنجليزية بعنوان « جمعيات القانونيين فى العصور الوسطى » ، عالج فيها قضيتين مترابطتين من قضايا تاريخ « علم الحقوق فى القرون الوسطى » هما وجود الطوائف والمدارس الفقهية فى الإسلام ، ونشوء جمعيات القانون .

* *

● أقسام الدراسات الإسلامية بالغرب :

معظم جامعات الغرب - فى أصلها - ملحقات بالكنيسة ، ثم استقلت بإداراتها وميزانياتها ، وظلت فى توجهاتها الكنسية ، فهى باسم الدراسة المقارنة للأديان أو العلوم الإنسانية كالتاريخ والاجتماع وعلم النفس تبث سمومها فى تكوين الطالب غربياً مسيحياً أو يهودياً ، أو شرقياً مسلماً ، أو بوذياً أو غير ذلك .

ولما كان الإسلام هو صاحب الإيديولوچية الواضحة القادرة على تقديم منهج متكامل للحياة نافع للبشرية ، وهو قابل للحوار ، بل داع إليه كان

خوف النصرانية والمسيحية منه عظيماً ، وبخاصة الأقلية اليهودية ، فأقيمت تحت اسمه البرّاق أقسام الدراسات الإسلامية ، لاستقطاب مَن يستهويه هذا الجانب ، ثم تقديمه من وجهة نظر خصوم بارعين مدرَّبين على العرض المشوَّه للإسلام الذى يخدم أغراضهم التى أهمها تقزيز غير المسلمين منه ، ثم تشويهه وجعله فى نظر المسلمين قضية فيها نظر وليست من مُسلَّمات الفكر المعتمدة .

وقد بلغ عدد هذه الأقسام فى الجامعات الغربية أكثر من ستين قسماً فى أكثر من ستين جامعة في الغرب ، على رأس الأقسام أساتذة يهود .

ومحاورهم الأصلية تدور - فى كياسة - حول التشكيك في الوحى ، وفى السُّنَّة ، وفى تجريح الرسول والصحابة ، وتجريح كبار حملة الإسلام فى تاريخه الفكرى والحركى .

ومما يجعل أثرهم خطيراً ومثمراً للسوء :

١ - سياسة تطبيع العلاقات بين الغرب والشرق ، والشمال والجنوب ، نتيجة حاجة الضعيف إلى القوى ، والفقير إلى الغنى بالمال أو التقنية الحديثة .

وتمارس ذلك الكنائس والجامعات بوجه عام ، وأخيراً فى المركز الإسلامى لمنطقة البنى - حى كولونى بالولايات المتحدة ، أخلى المسجد من أى عالم شرعى ، وانتدب له متحدث جيد بالإنجليزية فتح له المعبد اليهودى المجال للمحاضرة فيه ، وبالتالى فتح لهم - أى اليهود ، وللنصارى من قبل - أبواب المركز الإسلامى ، ولا مجال للتغيير لأن المسيطرين على المسجد باكستانيون تربوا فى مدارس كنسية علمانية ، أو رعاع قدموا لأمريكا من أجل الرغيف ، وليس عندهم رصيد من الإسلام يمكنهم من مناقشة ما يُعرض فى المسجد فميزانهم علمانى - يعنى العقل - دون الموازين الشرعية .

٢ - الحرص على المؤهل الجامعى الذى جاء من أجله العربى أو المسلم الشرقى ، مع استمرار عملية غسيل المخ له حتى يتحول فى طريقة تفكيره وبحثه إلى نمط التفكير والبحث وترتيب الأولويات الفكرية والبحثية للأستاذ اليهودى أو النصرانى ، وبعدها يُعطى المؤهل العالى ماجستير أو دكتوراة .

وبهذا يرجع الخريج المسلم إلى بلاده أحد سدنة التابوت اليهودى أو المذبح الصليبى متوجاً باسم إسلامى .

٣ - وقد استغل اليهود ويخدمهم الكثيرون من المستشرقين والقساوسة وأصحاب الأقلام النصارى والعلمانيين - على غرس أسباب الاختلاف والتمزق بين المسلمين كالخلافات بين السُّنَّة والشيعة ، او بين المعتزلة وأهل السُّنَّة ، أو بين السَلَف والأشاعرة آو الماتوريدية أو الجهمية ، وغير ذلك مما يمكن أن يبعث خلافاً له جذور قد دفنت تاريخياً كبعض الخلافات الفقهية أو الاعتقادية فى حد المرتد أو رجم الزانى المحصن ، أو زواج غير المسلمة وغير المسلم بالمسلمة ، أو التبنى أو الاختلاط ، أو التبرج وحدود ما يجوز وما لا يجوز ، أو التشبه بالأجانب غير المسلمين فى الزى والعادات والأعياد ، وحجم ما يُقبل وما لا يُقبل . . إنها دوّامة كبرى تُشغِل المسلمين فى الغرب عن نقاء الإسلام ، وعن جوهره الأصيل .

٤ - أن البلاد الإسلامية بحكم ساستها المبهورون بالحضارة الغربية ، المرتبطون بها وبقياداتها سياسياً واقتصادياً ، ولا يحبون أن يخسروا هذه العلاقات ، فلا يقدرون على العمل الجاد المتوازى مع ما ذكرناه من إنشاء أقسام ، ولو جامعة واحدة إسلامية مع شبكة تلفاز تربط المدن الكبرى ذات الجاليات الإسلامية الكبيرة بالفكر الإسلامى الصحيح مثل لندن وشيفيليد وباريس ونيويورك ولوس أنجلوس ، وبوجهات النظر فى السياسة العربية والإسلامية ، فى القضايا المطروحة من وجهة نظر اللاإسلاميين فى الإعلام اللاإسلامى .

* * *

● لماذا ينصاع الغرب للأقليات اليهودية ؟

أولاً : لأن « البايْبُل » المسمى بالكتاب المقدَّس عند النصارى ، وهو الإنجيل يضم عدة أسفار من التوراة يُتعبد بها ، فكل نصرانى تضم عقيدته التوراة أو جزءاً لا بأس به منها ، وفى هذا الجزء أن نزول المخلِّص « يسوع » سينزل بعد إقامة مملكة بنى إسرائيل ، ومن ثَمَّ فمن عقيدتهم وجوب إقامة مملكة إسرائيل بحدودها التوراتية من النيل إلى الفرات ، ومن هنا كانت سياسة تيسير المطالب اليهودية بأجمعها .

ثانياً : لأن المادية سيطرت على القساوسة من أكبر قسيس إلى أصغر شمّاس أو عضو فى جوقة الأناشيد والموسيقى بالكنيسة ، واليهود - بخبرتهم - قادرون على لَيِّ أعناق هؤلاء النصارى فى آفاق الاقتصاد الاستهلاكى والإنتاجى ، وبخاصة مجالات إشباع الغرائز والبطون بوسائل الإعلام ، وصالات الرقص والمجون ، وحانات الخمور ، وطاولات القمار ، وأفلام الجنس الخاصة فى قنوات تلفازية بالأجر والاشتراك الشهرى ، أو عن طريق الڤيديو ، مما أصاب أوروبا وأمريكا بالدوار ، والعجز عن الخروج من الهاوية والتبعية ، وعن القدرة على استعادة الشخصية ، بسبب موجات الانحلال التى تقودها الصهيونية من أجل التفرد بزمام المرافق المهمة فى الحياة .

وهذا الدهاء اليهودى الصهيونى الخبيث ليس قاصراً على دول الغرب والمسلمين ، بل إنه ليثمر فى كل مكان - كأى عطب - يؤثر فيما حوله ، وينقل العطب مما حوله إلى ما حوله ، حتى يدمر العالم بأسره .

* *

● معارضات شرسة :

ومع مزيد التلاحم بين العرب وأمريكا - وبخاصة بعد اكتشاف الغرب قيمة سلاح النفط واكتشاف أمريكا قدرة العرب على استخدامه ، فإن الاهتمام بالتعرف على الشرق الأوسط على حقيقته زاد فى المجتمع الأمريكى ، لا سيما وأن هجرة الفلسطينيين إلى أمريكا ، وتقبل أمريكا للمهاجرين ليُفسحوا المجال لليهود فى فلسطين ، هذه الهجرة أثبتت أن الفلسطينيين أضحوا رصيداً بشرياً منتجاً ، وأنهم رافد للثروة فى الولايات المتحدة الأمريكية . أقول : مع التلاحم والهجرات الفلسطينية زادت الرغبة فى التعرف على الشرق الأوسط فكراً وديناً واقتصاداً ولغة وقضايا سياسية ، من واقع الحقيقة ، لا من تصوير أعدائهم .

والوسيلة الطبيعية إلى ذلك هى إيجاد برامج للدراسات العربية أكاديمياً فى الجامعات والمعاهد الأمريكية .

فتركز هجوم اللُّوبى الصهيونى فى عام ١٩٨٤ من خلال تهديد وابتزاز ومضايقة هيئات التدريس والمفكرين والطُّلاب الذين يساعدون فى وضع البرامج وإقرارها ويتعاطفون مع المجموعات المؤيدة للعرب وقضاياهم ، ومن ثَمَّ فرض السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام فى الجامعات والمعاهد العلمية والمدارس الثانوية وما دونها .

كتبت ابنتى « لمياء » فى المجلة المدرسية تنتقد الإدارة العامة للتعليم فى منطقة « نسكيونا » بولاية نيويورك ، وكان فيما قالت : نحن جيل التعليم الثانوى لم نكن موجودين وقت مذابح اليهود فى ألمانيا ، فلماذا تُعطَّل دراستنا لمحاضرات عن ماض لم نعشه ، ولماذا لا يحاضرنا أناس فى مشكلات معاصرة كقضايا أبناء الحجارة وقنابل إسرائيل الموجهة لهم ، أو على الأقل : نسكت فلا نتحيز لمشاكل تقع فى غير أمريكا ؟

فقامت ضجة وتهديدات وتوبيخات لها وتسفيه لما تقول بعضه من « السانا جوج » - أى المنتدى اليهودى .

إن غسيل المخ وحشوه بما يبرز اليهود شعباً مظلوماً وخادماً لشرايين حياة البشرية ، وأنهم - بأموالهم - عصب الحياة الإنسانية ، وأنهم الشعب المختار لإنقاذ الغرب والشرق والشمال والجنوب ، هو برنامج السياسة الأمريكية العامة ، ولتغلق الأفواه أو تقل : « يهود فوق الجميع » .

ويتجلى هذا التعدى على حرية الرأى فى الوثائق السرية الخاصة بـ « اللَّجنة الأميريكية اليهودية » وفى الدليل الجامعى الخاص بـ « اللجنة الأمريكية - الإسرائيلية للشئون العامة » وهى المسماة « أيباك » التى حصلت عليها جريدة الشرق الأوسط عام ١٩٨٤ حيث تتضمن معلومات تفصيلية عن خطة اللُّوبى الصهيونى لمواجهة ما يسميه بالحملة المعادية لإسرائيل فى الجامعات الأمريكية . .

* أيباك و « الدليل الجامعى » :

يخدم هذا الدليل أقوى لجنة صهيونية وهى لجنة « أيباك » ، وهو مسخَّر لخدمة أغراض الصهيونية ، وفى مقدمتها محاربة العرب أينما وُجِدوا ، والسيطرة على الرأى العام الأمريكى ، عن طريق تزويده بوجهة النظر الإسرائيلية ، وإخضاعه لمقولاتها المضللة ، ويقولون إن ٦٤ ٪ من الأمريكان الذين فى سن الالتحاق بالجامعات من المؤيدين لإسرائيل ، وأن مستوى طُلاب الجامعات فى علوم السياسة الخارجية - وبخاصة المتعلقة بالشرق الأوسط - ضعيف جداً ويجب أن يبقى هكذا .

* *

● رسالة سرية :

بعث « إيرا سيلفرمان » - مدير برامج اللّجنة اليهودية الأمِريكية - إلى « ميلفان ميريانز » رئيس اللّجنة الوطنية المكلَّفة بمراقبة ومتابعة النشاط العربى فى الولايات المتحدة ، ويصف فيها كيف استطاع الأول عرقلة مشروع لتأسيس قسم للدراسات العربية ، فى جامعات « سوارثمور ، وهافرفورد ، وبراين ماور » ، وكيف ساعده فى ذلك أحد أعضاء الكونجرس ، ويعلل لما فعله قائلاً : « الآن من شأن إنشاء ذلك أن يتيح الفرصة لتفهُّم القضايا العربية من جانب الأمريكيين ، كما أنه يخلق الأجواء المشجعة لإقامة علاقات طيبة بين البلاد العربية وهذه البلاد فى المستقبل » .

كما تقول الوثائق والدليل فى تعليل منع إقامة برامج للدراسات العربية :

« إن من شأن هذه البرامج الدراسية أن تشجع البحوث حول العالَم العربى المعاصر ، وأن تنشر الرأى السياسى العربى فى هذه الجامعات ، وبالتالى بين الرأى العام ، وتنبغى الإشارة إلى أن الجامعات الأمريكية تُخَرِّج رجال السياسة الأمريكيين ، مما قد يترك الأثر فى المستقبل على تفكيرهم وقراراتهم ،

كما أن هذه الظاهرة (إنشاء مراكز دراسات وبرامج عن البلاد العربية) ستتفاقم لتشمل جميع الجامعات الأمريكية الحكومية فى المستقبل » .

وتوصى بأن يكون الحديث مع المسئولين وصنَّاع القرار سراً ، وبكافة الأساليب غير المباشرة ، حتى الملتوية منها ، ولا حرج فى استخدام الكذب والدس لكيلا تظهر على الوجود .

* *

● **مزاعم صهيونية :**

نجح اللُّوبى الصهيونى ، فمنع تخصيص مبلغ ٢٢ مليون دولار كانت رصدتها بعض الشركات الأمريكية العاملة فى الشرق الأوسط لإنشاء مركز للدراسات عن الشرق الأوسط فى « كاليفورنيا » .

وكان « روبرت فلور » - أحد أعضاء مجلس أُمناء الجامعة ، ورئيس مؤسسة « فلور » التى لها مشروعات فى السعودية - من أصحاب فكرة إقامة المركز الذى قال عنه : إنه كان يهدف إلى تفهم أفضل لمنطقة الشرق الأوسط ، والحدٍّ من سوء تفهُّم القضايا الأساسية الإسلامية والعربية فى الولايات المتحدة .

واحتجت المعارضة بأن تمويل مركز للدراسات الأكاديمية من جهة شركات لها مصالح مع دول الشرق الأوسط ، سيسىء إلى الحرية الأكاديمية فى الجامعات ، وسيكون تحت إشراف إحدى الحكومات العربية .

ووصف « فلور » : « هذه الحُجَّة غير صحيحة ، وأن التناقض الذى يتحدثون عنه لا وجود له إلا فى خيالهم » .

وجاء فى تقرير أصدره اللُّوبى الصهيونى : إنه يجب الحفاظ على التفوق العددى للطُلاب اليهود فى هذه المراكز ، وعدم السماح للأطراف الأخرى بالتفوق فى هذا المضمار .

كما شن التقرير هجوماً على الجامعات التى لا تلتزم التعتيم على كل ما لا يطرح وجهة النظر الإسرائيلية .

وأشار التقرير إلى نجاح المنظمات الصهيونية فى إغلاق العديد من المراكز التى تقدم برامج عن الشرق الأوسط ، أو الدراسات الإسلامية ، فى عدد من الجامعات الأمريكية ، لأنه - كما يدَّعى التقرير - « إن أى انتقاد لإسرائيل ، وأى اعتراف بإنجازات الحضارة العربية ، هو اعتداء على إسرائيل ، وانحياز للعرب ، وإن تدريس الحضارة الإسلامية هو طعن وإلغاء للتراث اليهودى » .

وقال دليل « أيباك » الجامعى : إن المجموعات المؤيدة للعرب فى الجامعات صغيرة ؛ لكنها نشيطة ، ومعظم أفرادها من الطُّلاب الأمريكيين والأجانب مما يستوجب التصدى لها بكل حزم .

ثم قدَّم الدليل قائمة بأسماء النشطين ضد النفوذ الصهيونى ، ومن بينهم :

١ - إسرائيل شاحاك : وهو إسرائيلى عاش « المذابح » اليهودية أيام النازية - المشتبه فى حقيقتها - وفرَّ من إسرائيل « النازية الجديدة » .

٢ - إلمر برغر ، وهو من أبرز المعادين للصهيونية .

٣ - فيلتون أو بنزنغر : عضو التحالف اليهودى ضد الصهيونية .

٤ - مايكل بارام : وهو يهودى أمريكى خدم فى الجيش الإسرائيلى ، وفرَّ منه للجرائم التى اقترفها .

٥ - نوام شويسكى : أستاذ فى جامعة « ماساشوستس » .

٦ - حاتم الحسينى : عن منظمة التحرير الفلسطينية لدى الأُمم المتحدة ورئيس مكتب الإعلام الفلسطينى .

٧ - حسن عبد الرحمن .

٨ - إدوارد سعيد : أستاذ الأدب الإنجليزى فى جامعة « كولومبيا » ، وعضو المجلس الوطنى الفلسطينى [1] .

---

(١) جريدة الشرق الوسط فى ١٩٨٤/٦/٢٠

الأغراض الاقتصاية

● التجارة :

احتاج الإيطاليون وغيرهم من المشتغلين بالاتجار مع شرق البحر الأبيض أن يتعلموا لغة العرب وآدابهم ، وأن يتعرفوا على عاداتهم وتقاليدهم حتى يمكنهم أن يحسنوا معاملتهم ، ويعقدوا معهم المعاهدات بلغتهم ، ففى عام ١٢٦٥م كُتِبَتْ باللُّغة العربية المعاهدة التجارية التى أُبرمت بين تونس وبيزا ، ومنذ الحملة الصليبية الرابعة انفردت إيطاليا فى أعمالها عن بقية الصليبيين واهتمت بتحسين علاقاتها التجارية مع الشرق الإسلامى ، فكانت « البندقية » همزة الوصل بين الشرق والغرب ، وتكلم أهلها العربية حتى سقوط القسطنطينية فى قبضة محمد الثانى سنة ١٤٣٥م فأضافوا التحدث بالتركية إلى جانب التحدث باللُّغة العربية .

وتأثرت فرنسا بتجارة الشرق ، واتصلت بلبنان بمرفأ مرسيليا التجارى ، وكانت فرنسا تستورد منه الحرير والنبيذ والأخشاب ، وبلغ قيمة ما تشتريه من حرير لبنان (٤٠٠ر٠٠٠) فلس فى السنة ، وهذه التجارة الواسعة اقتضت إقامة قنصلية لفرنسا فى لبنان فانتدبت لها أبا نوفل الخازن .

وتوسع الفرنسيون فى تجارتهم الشرقية فأقام « ريشليو » ثم « هنرى الرابع » شركة ملاحة شرقية ، فما كان القرن السابع عشر ، وفى عهد « لويس الخامس عشر » ، إلا وأندية فرنسا مؤثثة بتحف الشرق النادرة ، ورياشه الفاخرة ، وطاب للفرنسيين أن يستخرجوا كنوز الشرق ، فألَّفوا بعثة برياسة « شارينتييه » سنة ١٦٦٥م ، وكان جُلُّ أعضائها من المجمع العلمى – لجوب الشرق ودرسه ، واستخراج غناه حتى توصلوا إلى بسط حمايتهم على الهند سنة ١٧٤٠م ثم لحق بهم الإنجليز إليها .

وفى سنة ١٧٩٧م تألَّفت حملة نابليون إلى مصر ، وفيها بعثته العلمية التى كان قوامها المستشرقين والمترجمين الشاميين من أمثال الأب « روفائيل » الراهب المخلص لهم و« ميخاييل الصباغ » و« نقولا ترك » ، وعلماء أعلام فى كل فن

من فنون الثقافة فى ذلك العصر ، ليمكن اعتصار كل خيرات البلاد والسيطرة على كل شيء فيها من إنسان وحيوان ونبات ومعتقدات ، وكانت هذه الحملة آخر الحلقات التى اتصل بها الغرب بالشرق ، اتصالاً لم ينفصم من بعدها ، وكان من أثرها انتشار الثقافة الغربية فى الشرق ، وازدهار الاستشراق فى الغرب (١) .

وقد أنشأت ألمانيا مدرسة اللُّغات الشرقية سنة ١٨٨٧م لتعليم هذه اللُّغات للتجار والسفراء ، وقد أنفقت شركة هندية على « جالان » (١٦٤٦ - ١٧١٥م) فى رحلته إلى الشرق لتبنى سياستها الاقتصادية على أساس المعلومات التى يقدمها لها ولخبرائها (٢) .

* *

● التكسب من الاستشراق :

وكثيرون ممن لم يجدوا فى أنفسهم القدرة على منافسة أقرانهم فى أبحاث الطبيعة والعلوم الكونية وأمثالها وجدوا أن أنسب مجال يبرزون فيه هو المجال البكر الذى لا يقوم على اقتحامه إلا القليل وهو مجال دراسة المشرقيات .

* *

● الترف والهواية :

وربما كان بعض المستشرقين من ذوى الجاه والمال ، ويستهويهم دراسة الغريب الذى يجهلونه ، فأرادوا الكشف عن التراث العربى والإسلامى بوجه خاص ، والكشف عن تراث الشرق بوجه عام يحدوهم حب الاستطلاع ، وإن لم يُلقوا رداء المسيحية أو اليهودية عن كواهلهم إبَّان دراستهم ، فكان لذلك آثاره فى دراساتهم ، ومنهم كثيرون من أصحاب النفوس الكبيرة المتمردة على استعباد الفكر البالى البيِّن فساده ، يستوى فى ذلك الذكور والإناث ، ونضرب لذلك مثلاً « إيزابيل ايبرهارت » أديبة الصحراء .

* * *

---

(١) المستشرقون ص ٨ ، ٩

(٢) المستشرقون ص ٣٣

إيزابيل إيبرهارت الروسية ثم السويسرية
(١٨٧٧ - ١٩٠٤)

● مولدها ونشأتها :

ولدت « إيزابيل إيبرهارت » فى روسيا - ابنة غير شرعية - لأرملة وزير الداخلية ، وعلّمها والدها ركوب الخيل والفصحى ، وعاملها معاملة أشقائها الذكور ، وقد كانت تعيش مع أمها فى چنيف ، وشيئاً فشيئاً أخذت ترفض التقاليد ، وتضرب عُرض الحائط بالسلوك المتبع بين أبناء الطبقة العليا . فارتدت ملابس الرجال ، وسعت إلى أن تكون كاتبة صحفية ، وفى هذه الفترة من حياتها توجهت شطر الشرق ، حيث آثرت صحراء المغرب العربى ، وقد قالت : « إننى بدوية رحّالة منذ الصغر ، فقد كنت أحلم دائماً وأنا أنظر إلى الطريق الأبيض الممتد وراء الأفق حيث الشمس أكثر سطوعاً فوق المجهول الساحر » .

*

● بين المساجد والصحراء :

وما أن وطئت قدماها أرض الجزائر حتى أخذت تتردد على المساجد ، ثم تتزود ببعض متاعها إلى الصحراء ، وما أن عادت إلى چنيف بعد رحلتها هذه حتى أقنعت أمها بالتوجه إلى الجزائر واعتناق الإسلام حيث وجدت فيه الحقيقة التى تبحث عنها .

ثم انضمت إلى الطريقة القادرية الصوفية ، فأثارت حولها شكوك حرس القيصر والشرطة الفرنسية ، والجماعات الإسلامية المناوئة للطريقة القادرية ، ولم يحل ذلك دون كتابتها عن جمال الصحراء وغروب الشمس .

*

● زواجها :

تزوجت جندياً جزائرياً مسلماً أحبته هو « سليمان » فى وادى عين صفرا ، وكانت معه فى الليلة السابقة لوفاتها فى نفس الوادى الذى جرفتها سيوله فماتت غريقة وهى فى السابعة والعشرين من عمرها وعثر عليها بعد ذلك وسط أوراقها المبعثرة فى الطين ، التى تتضمن قصصاً قصيرة ويومياتها وروايات لم تتم ، جميعها مستمدة من رحلة حياتها .

❊

● أدبها وأعمالها الكاملة :

كثيراً ما يقارن النقاد بين حياتها وحياة الشاعر الفرنسى الشهير « رامبو » إذ تجمعهما الرغبة فى التمرد على المجتمع ، والقدرة على ترك كل شىء بحثاً عن الحرية والحقيقة ، حتى لو كان الثمن هو الموت فى مقتبل العمر ، وقد أكد هذا « ليوتيه » القائد العسكرى الفرنسى الذى كان يتولى مهمة توسيع المستعمرات الفرنسية لتشمل الصحراء الجزائرية بأكملها ، والجزء الشرقى من الغرب الجزائرى ، فقال : « إنها كانت لا تهتم بما يقوله الناس ، أو بأحكامهم المسبقة ، غير خائفة أو مستسلمة للحياة التافهة ، إنها عصفور يحلق فى الفضاء » .

❊

● الاحتفاء بإيزابيل :

وقد احتفت الدوائر الأدبية الفرنسية بصدور الأعمال الكاملة للأديبة المستشرقة « إيزابيل إيبرهارت » للمرة الأولى فى فبراير ١٩٨٩ ، وهو الوقت الذى صدرت فيه عدة كتب تروى سيرتها الذاتية ، من أهمها « السيرة الذاتية » التى وضعتها « أدموند شارك رو » زوجة « هاستون دوفير » وزيد الداخلية الراحل بعنوان « رغبة فى الشرق » .

❊ ❊

الأغراض التبشيرية

أراد الرهبان أن يتعرفوا على اللُّغة العربية ولغات البلاد الشرقية الوثنية والإسلامية ، رغبة فى نشر المسيحية بهذه البلاد بعد أن انكمش سوقها فى أوروبا ، وبعد أن قامت الثورات الدينية والاجتماعية فى وجه رجال الدين المسيحى ، وقلَّب قادة المسيحية أوجه النظر فرأوا ألا نجاة للمسيحية إلا بمحاولة إيجاد حقول جديدة لها ، وارتئى أن الشرق الفقير الجاهل سيكون الفريسة السهلة للغزو المسيحى .

وقال المؤرخ « رينيه جروسيه » و« جوانفيل » الذى رافق الملك « لويس التاسع » فى حملته : « إن لويس فى خلوته هو أوَّل مَن فكر فى سلاح التنصير ، وفى جمع كلمة أوروبا على هذا المنهج ، والعمل على استخدام مَن يمكن اغراؤهم من نصارى الشرق ، وإنشاء قاعدة فى الغرب للعمل الصليبى على الأراضى الممتدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وتشمل فلسطين والأردن ولبنان وجزءاً من سوريا والبلاد المقدسة ، وحتى الإسكندرية [(١)] .

والسبيل إلى ذلك : هو الدراسة المستفيضة للغة البلاد التى سيُبعث إليها المبشِّرون ، والتعرف على عادات أهلها وتقاليدهم وتاريخهم وأنسابهم ، وعلى الصراعات القائمة بينهم وأسبابها ، لاستغلالها فى دوام تمزيق المجتمع ، كيما يسهل ازدراده لُقْمة لُقْمَة .

ولهذا قضى مجمع ڤينا عام (١٣١١م) ، برئاسة البابا « كلنتس الخامس » أن يؤسس فى « باريس » و« أكسفورد » ، و« بولون » دروساً فى اللُّغة العربية والعبرانية ، ليتسنَّى لهم أن يدرسوا الطب الذى فى كتب العرب ، على غرار المدرسة العربية التى أنشئت فى « إشبيلية » عام ١٢٥٤ هـ [(٢)] ، ثم أسست مدرسة الدعاية

(١) حقائق عن التبشير ص ١٠٩

(٢) نذير حمدان : الرسول فى كتابات المستشرقين ص ١٢ – سلسلة دعوة الحق (٣) .

« البروباجندة » عام ١٦٢٧م فى عهد البابا « أريانو الثامن » وقد جعلها مركزاً ذا نفوذ لدراسات اللُّغات السامية ونشر ثقافتها .

ثم أنشا الكاردينال « بورمبو » مكتبة « أمبروزيانا » وجعلها تحت إشراف « جيجو » لإذاعة الثقافة العربية بين الذين يتصدون للتبشير .

ثم أنشأ الأب « ماتيوريبا » المعهد العالى للغات الشرقية فى « نابولى » ، ثم أنشىء المعهد البابوى للُّغات الشرقية وألحقت به مكتبة غنية بالمخطوطات العربية ، ثم تبعه مؤسسة « كايتيان » ، والمعهد الشرقى المنشأ فى « روما » سنة ١٩٢١ والذى يتولى نشر مجلة « الشرق الحديث » [(١)] ، وكان الكرادلة يتلقون أوامر « روما » لتدريس العربية ، فبدءوا بها إذعاناً ، وأتموها محبة لما فيها من الثقافة الرفيعة .

فالكاردينال « فريدريك دى مدسيس » وهو من الأُسرة المالكة بإيطاليا أنشأ عام ١٥٣٦م مطبعة فى فلورنسا وطبع فيها (...ر١٨) نسخة من الإنجيل باللُّغة العربية ، وأرسلها إلى البلاد الشرقية ، ونشر فى مطبعته كتاب « قواعد العربية » كما نشر فلسفة ابن رشد التى لقيت رواجاً كبيراً فى « نابولى » ، التى كانت يومها محضناً للُّغة العربية ، وكان سر الاهتمام بنشر فلسفة ابن رشد هو ما أذيع عنها أنها فلسفة إلحادية تخالف الإسلام وتهدمه ، فرأى المستشرقون فى نشرها عملاً من أعمال هدم الإسلام بأيدى أهله ، وأقلُّ ما فى نشرها أن تصرف العقول إلى الجدل حولها بدلاً من الانطلاق إلى تعميق مفاهيم الإسلام فى أهله وبسطها إلى غير أهله .

* * *

(١) المستشرقون ص ١٥٢ - الطبعة الثانية .

استصلاح المسيحية

لعبت الحروب الصليبية دوراً فى حمل بعض الغربيين على إعادة النظر فى أمور دينية لا تمت إلى المسيحية الصحيحة بصلة مثل « صكوك الغفران » والادعاء بأنه لا اتصال بين الإنسان وربه إلا بواسطة الكنيسة وحدها ، وقد عرفت هذه الحركة باسم « الإصلاح الدينى » تبناها « يوحنا كليفن » ثم تبناها « لوثر » ، واستدعت هذه الحركة مراجعة أصول الدين المسيحى ، فترجم العهد الجديد إلى « اللاتينية » .

وعندما قامت حركة « لوثر » (١٤٨٣ - ١٥٤٦) بالثورة على الفاتيكان ، بدأ دعوته بالدعوة إلى دراسة التوراة فى لغتها الأولى ، وهى العبرية ، ولما كانت العلاقة بين العبرية وبين العربية وثيقة ، وكانت العبرية حينئذ لغة تائهة المعالم ، وغير مضبوطة ، فإن الاعتماد على اللُّغة العربية فى التعرف على الكلمات العبرية كان أمراً ضرورياً .

ولهذا نشأ فى ألمانيا نشاط جم لدراسة العبرية والعربية من أجل بعث الكتاب المقدَّس فى صورة صادقة جديدة ، بعيدة عن التفسيرات الخرافية التى تتبناها الكنيسة .

وتبع « لوثر » فى ذلك مَن يتجهون اتجاهه فى شتَّى عواصم أوروبا .

وقد استرعى الاهتمام بالعبرية والعربية ودراساتهما الرغبة الشديدة فى التبشير بالنصرانية فى بلاد الشرق بعامة .

ويكاد يجمع المؤرخون على أن انتشار الاستشراق فى أوروبا - ظهر بصفة جدِّية لا فردية - بعد فترة ما تسمى بالإصلاح الدينى .

ولما كانت باريس مهداً للعربية فقد رحل إليها من الطلبة الألمان « مالينوخ » و« لبرخت » و« فايشر » (١٨٠١ -١٨٨٨) و« إيفلد » (١٨٠٣ - ١٨٧٥) ، وقد تتلمذ للأخيرين « نولدكه » عام (١٨٣٦) ، و« سخو » مؤسسو المدرسة الشرقية فى برلين ، و « بروكلمن » مؤرخ الآداب العربية ، و« لهسن » (١٨٤٤ - ١٩١٨) أستاذ مدرسة « غوطنفن » .

وفى منتصف القرن الثامن عشر ازداد النشاط لضبط التوراة والكتاب المقدَّس ،

والموازنة بين النصوص فى اللُّغة العبرية والنصوص فى اللُّغة العربية وغيرها من اللُّغات ، مما دعا إلى النشاط فى تعلم العربية ، وكان من أبرز المشتغلين بذلك « دى ساسى » (١٧٥٨ - ١٨٣٨) .

* *

● **مذاهب الرهبنة :**

أحسَّ كبار المشتغلين بالتربية الدينية المسيحية بأن فيما ورثوه من تعاليم المسيحية انحرافات فى الفكر والعقيدة وأخرى فى أسلوب العمل ، أو فى الشكل الواجب مسامتته للمسيحى الراغب فى ملكوت الله ، وأشهر هذه المذاهب :

١ - **البندكتيون** : وهم يتبعون أقدم حركة نهضت لاستصلاح المسيحية وتصحيح العقيدة والتقويم الروحى .

ومؤسس هذه الفرقة هو القديس « بنديكتوس » ومقرها الأول « جبل كاسينو » ، وكان هذا سنة ٥٢٩ م .

وقد تناولنا ذكر بعض رجالهم مثل « توماس الأكوينى » ، و« ميخائيل سكوت » الاسكتلندى ، و« جراردى كريمون » و« روف أوف تشتر » الصقلى ، و« قسطنطين » الإغريقى المتوفى عام ١٠٨٧م ، وقد ولد فى قرطاجنة بتونس وترهب فى دير « مونتى كاسينو » ، و« هرمان الدلماطلى » فى سنة ١١٧٢م ، أسقف « أستورجه » ، و« أومونجو نثالث » المتوفى سنة ١١٨١ م ، نائب أسقف « شقوبية » من أشهر مترجمى « طليطلة » .

* *

٢ - الفرنسيسكان (أى الإخوة الأصغرون) :

وقد أسس رهبانيتهم القديس « فرنسيس الأسيزى » عام ١٢٠٩م ، وأجلّ ما يهتمون به الأراضى المقدسة فإليها مبكاهم وتطلُّعهم ، وهم نشطون ، أقاموا لهم مطبعة عربية فى « طنجة » ، وشادوا الكلية الإكليريكية فى الجيزة بالقاهرة عام ١٩٣٦ منتهزين فرصة التسامح والدعاية الموجهة لخلق جو صداقة بين

المصريين والإنجليز ، وهم الصورة المجسمة للمسيحية ، وذلك فيما سُمِّى بمعاهدة الصداقة (معاهدة سنة ١٩٣٦) ، ومن أساتذة هذه الكلية الأب « مانفريدى » الإيطالى المولود سنة ١٩٤٠ وهو خريج المعهد البابوى للقديس « أنطونيوس » ، وهو أستاذ الحق القانونى بالكلية .

ومن أشهر رجالهم : الأب « سوميلى الإيطالى » (١٨٦٤ - ١٩٣٩) - والأب « روهمر » ، والأب « ليمنس » (١٨٦٤ - ١٩٢٩) ، والأب « جيرولو مجولوفيتش » (١٨٦٥- ١٩٤١) ، وهو من مواليد القسطنطينية ، وكانت وفاته بإيطاليا ، والأب « كافالون » (١٨٨١ - ١٩٤٢) ، والأب « أوليجر » الألمانى (١٨٧٥ - ١٩٥١) ، والأب « سالير » المولود بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٩٥ ، و« الأب جيجاى » دكتور فى اللاهوت ، والأب « أوبيشينى » المتوفى سنة ١٦٣٨ وكان رئيس دير الفرنسيسكان بالقدس .

* *

٣ - الكبوشيون :

وقد انشعب عن الفرنسيسكان رهبنة الآباء الكبوشيين ، أسسها « ماتيو دا باشيو » وقد زاولت هذه الرهبنة نشاطها فى الشرق منذ القرن السابع عشر الميلادى ، وشيَّدوا فيه الأديرة والمدارس والمؤسسات الخيرية (صيداً عام ١٦٢٥ ، والقاهرة عام ١٦٢٦ ، وحلب وبيروت وحصرون وبغداد عام ١٦٢٨ ، وطرابلس عام ١٦٢٩ ، ودمشق عام ١٦٣٧ ، وعبيَّة عام ١٦٨٦ ، وغزير عام ١٦٩٥) [١] .

* *

٤ - الدومينيكون (الإخوة الوعاظ) :

وقد أسس رهبانيتهم القديس « دومينيكوس » عام ١٢١٦ لدحض البدع عن طريق العلم ، ويبدو أن انتفاضة المسيحية عسكرياً بطرد المسلمين عن الأندلس ،

---

(١) المستشرقون ص ١٠٥١ الطبعة الثالثة .

وروحياً بتطهير المسيحية من الخرافات والبدع ، وعلمياً بترجمة آثار الحُرب العلمية ووضعها موضع الإفادة ؛ كان شيئاً واحداً ذا اتجاهات يمكن أن تسمى استصلاح المسيحية حيناً ، والنهضة الأوروبية حيناً آخر ، والحروب الصليبية آونة أخرى .

وقد وفد الدومينيكيون على الشرق كالكبوشيين والكرمليين واليسوعيين منذ القرن السابع عشر مع الحركة الاستعمارية لدعمها ، ولقد أسس الدومينيكيون فى الموصل مطبعة عربية نشرت التوراة ، ومن أشهر مستشرقيهم الفرنسيين الأب « چوسين » الفرنسى المولود سنة ١٨١٧ ، والأب « تيرى » ، والأب « سافينياك » (١٨٧٤ - ١٩٥١) والأب « چاك چومييه » من مواليد ١٩١٤ ، والأب « بوركاى » المولود سنة ١٩١٧ ، والأب « بوللو » خريج كلية الهندسة من باريس عام ١٩٣١

* *

٥ - **الآباء الكرمليون :**

تأسست رهبانيتهم فى القرن الثانى عشر بفلسطين ، وانتقلت إلى أوروبا ، ولكن عاد رهبانهم إلى الشرق فى القرن السابع عشر مع الحملات الاستعمارية ، ولم تصاحب الجيوش لا هى ولا أى نشاط رهبنى لتكون بعيداً عن الظنة .

* *

٦ - **الآباء اليسوعيون :**

أسس رهبانيتهم القديس « أغناطيوس أيولا » عام ١٥٤٠ وقدموا الشرق منذ القرن السابع عشر ، ومن أشهر مستشرقيهم - عدا من سبق ذكرهم - من فرنسا الأب « دى كوبيه » (١٨٣٦) والأب « أبوجى » (١٨١٩ - ١٨٩٥) والأب « بيلو » (١٨٢٢ - ١٩٠٤) والأب « جوليان » (١٨٢٧ - ١٩١١) والأب « روز » (١٨٣٤ - ١٨٩٦) والأب « كوش » (١٨١٨ - ١٨٩٥) والأب « مارتن » (١٨٢٥ - ١٨٨٠) وغيرهم كثيرون من جنسيات شتَّى ، كالأب « كايروت » (١٥٨٨ - ١٦٥٣) ، والأب « بلن » (١٨٥٣ - ١٨٩١) وقد توفى بالقاهرة ، والأب « بوليج » ولد فى « بروسيا » عام ١٧٢١ وتوفى بـ « روما » سنة ١٨٩٥ ،

والأب « هورى » (١٨٢٤ - ١٨٩٧) توفى فى رحلة ، والأب « بوثييه » (١٨٧١ - ١٩١٦) ، والأب « جيسموندى » (١٨٥٠ - ١٩٠٤) أستاذ اللغات السامية فى الجامعة الغريفورية ، والأب « فرنييه » (١٨٣٨ - ١٩١٧) المولود فى باسافان فى بيروت ، والأب « لويس رونزفال » (١٨٧١ - ١٩١٨) ولد بتركيا وتوفى فى روما ، والأب « بولوموا » (١٨٥٦ - ١٩٢٦) أستاذ النبات بكلية الطب فى لبنان ، والأب « ديران » (١٨٥٨ - ١٩٢٨) وقد ولد فى « شانمرل » وتوفى فى « ليون » ، والأب « بوير » المولود سنة ١٨٦٩ ، والأب « جوون » من مواليد عام ١٨٦٩ ، والأب « ليفينك » (١٨٦٨ - ١٩٣٨) من « مارسيليا » ، والأب « كولنجيت » (١٨٦٠ - ١٩٤٣) رئيس لجنة السلم الموسيقى فى مؤتمر الموسيقى العربية الذى عقد بالقاهرة عام ١٩٣٢ وقد توفى فى « كيفيا » بلبنان ، والأب « جرفانيون » (١٨٧٧ - ١٩٤٨) ، والأب « بوفييه لابيير » (١٨٧٣ - ١٩٥٠) ، والأب « بولس موترد » المولود سنة ١٨٩٢ ، والأب « هنرى شارل » المولود عام ١٩٠٠ ، والأب « فليش » المولود سنة ١٩٠٤ ، والأب « دالفرنى » المولود سنة ١٩٠٧

ولكل رهبنة من هذه الرهبنات صلاحيتها لكافة أعمال الاستشراق والتبشير ، وخدمة الاستعمار الغربى ومصالحه السياسية والتجارية .

ويلاحظ أن المسلمين لم يمنعوا دخولهم إلى بلاد الإسلام ثقة فى قوة تعاليم الدين الحنيف ، واعتماداً على النص الكريم : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَدْ تَبيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (١) .

فأين هذا من موقف هيئة الأمم المتحدة فى عدوان الصرب على البوسنة ثم أسر قوى الأمم المتحدة المسلمين ، وترك قوى الأمم المتحدة نفسها الذين ينتمون إلى غير الإسلام من الأوروبيين والأمريكان ؟!



* * *

(١) البقرة : ٢٥٦

العلاقة بين الاستعمار والتبشير والاستشراق

لقد مضى الاستشراق والغزو الاستعمارى فى طريق واحدة ، المستعمر يغزو البلاد ، والمستشرقون يغزون الفكر والتراث الإسلامى .

الاستعمار يحتاج الدعائم الفكرية والروحية التى تمهد له الطريق ، وتثبت له حكمه ، ودلائل ذلك كثيرة نعطى منها بعض الملامح لكيلا تكون هنالك شبهة فى أن الاستعمار الغربى والتبشير والاستشراق فصائل جيش غزاة الغرب للشرق .

● فى المؤتمرات :

يشترك رجال السياسة فى المؤتمرات التبشيرية كما يشترك قادة التبشير فى المؤتمرات الاستعمارية السياسية .

ففى المؤتمر الاستعمارى الألمانى كان من أعضائه الأساسيين « م . ك . إكسنفلد » صاحب التقرير الخاص بالجانب الإسلامى فى المؤتمر ، وهو أيضاً سكرتير جمعية التبشير فى « برلين » ، وقد جاء فى مقاله :

« امتاز المؤتمر الاستعمارى بميزتين :

الأولى : أنه بحث فى الشئون الصناعية والاقتصادية .

الثانية : إجماعه على وجوب ضم المقاصد السياسية والاقتصادية إلى الأعمال الأخلاقية والدينية فى سياسة الاستعمار الألمانى ، واستشهد بقول « شنكال » رئيس غرفة التجارة فى « همبرج » : إن نمو ثروة الاستعمار متوقف على أهمية الرجال الذين يذهبون إلى المستعمرات ، وأهم وسيلة للحصول على هذه الأمنية إدخال الدين المسيحى فى البلاد المستعمرة ، لأن هذا هو الشرط الجوهرى للحصول على الأمنية المنشودة حتى من الوجهة

الاقتصادية ، وحض الساميين على تقدير عمل المبشرين واحلاله محله اللائق به » .

وعندما أخذ المؤتمر الاستعمارى يبحث الموضوع الرابع فى جدول الأعمال - الخاص بالمسألة الإسلامية - أفاض المبشرون حتى خيل للجميع أن المؤتمر الاستعمارى يحول إلى مؤتمر تبشير .

*

*** العلمانية :**

وجاء فى حديث « إكسنفلد » : « إن الحكومة لا بد لها من القيام بتربية الوطنيين المسلمين فى المدارس العلمانية ما دام هؤلاء المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية ، ونحن نعترف بأن المدارس العلمانية تزيد الإسلام نمواً وارتقاءً ، ولكن هذا أقل خطراً مما لو تُرِكوا إلى مدارس إسلامية » .

*

*** النزعة الوطنية :**

استصرخ « إكسنفلد » المؤتمر لشن الغارة على العالَم الإسلامى قائلاً : « إن ارتقاء الإسلام يهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم » .

واتفقت كلمة المؤتمرين على ضرورة المحافظة على خطة الحياد فى الشئون الدينية فى المستعمرات مع الاستعانة بالوجهة الوطنية لا بالوجهة الدينية فى التوصل إلى مقصد الاستعمار ، ولا بأس فى عملية التربية بالاستعانة بالآداب الإسلامية ، وفى الوقت ذاته تبث مبادئ المدنية ، وتنشأ مراكز ثابتة الأركان لدين النصرانية ، مع عمل الحكومات على عرقلة المد الإسلامى .

*   *

● الإحصاء للمسلمين :

واهتم المؤتمر بفحص إحصاء عدد السكان المسلمين فى كل بلاد العالم ، وقد جاء فى كتاب « الهند وحياتها وأفكارها » للدكتور « چونس » أن عدد المسلمين ازداد فى السنوات العشر (الأولى من القرن العشرين) ٩١ فى الألف ، بينما كانت زيادة عدد السكان بوجه عام هى ١٩ فى الألف فقط ، وجاء فى هذه الدراسة أنه لا تخلو بلدة فى آسيا وإفريقيا من مسلمين ولو أقلية ، إلا أن هذه الأقلية تكون فى نمو مستمر وسريع .

وفى مؤتمر « لكنو » الذى انعقد فى الهند فى (٢١ يناير ١٩١١) وفى مدرسة « ايزابلا ثوربون » للبنات ، وظل منعقداً إلى (٢٩ يناير سنة ١٩١١) قال القسيس « چون تكل » : إن الإسلام آخذ فى الازدياد وإن تكن المجهودات التى تبذل فى سبيل انتشاره تكاد تكون فى حكم العدم ، ثم تساءل عن أسباب نمو المسلمين ، وأجاب بأنه لا يمكن أن يُنسب هذا النمو إلى تعدد الزوجات ، لأن المتزوجين بأكثر من واحدة من مسلمى « البنغال » لا يتجاوزون ٢٩ ٪ فقط ، وقد أعلن المؤتمر فرحه بالانقلابات التى حصلت فى فارس والدولة العثمانية حيث أصبح السلطان عبد الحميد سجيناً فى « سلانيك » ، وأصبح عدد المسلمين الذين تحت سلطات دول الغرب - انجلترا وفرنسا وروسيا وهولندا - يفوق عدد المسلمين الخاضعين للسلطنة العثمانية (قبل توزع ممتلكات الرجل المريض) ، وقال المؤتمرون : وهذا يزيد مسئولية ملوك النصارى فى مهمة تنصير العالم الإسلامى .

* *

● الخوض فى السياسة :

وفى مؤتمر « لكنو » بالهند عند المبحث الرابع من جدول الأعمال ، وهو « الإسلام ووسائل منع اتساع نطاقه بين الشعوب الوثنية » قال القسيس « زويمر » : كان مؤتمر القاهرة (سنة ١٩٠٦) فاتحة عصر جديد ، إذ استنجد

بالكنائس واستصرخها ، فخاضت الجرائد والمجلات فى مسألة الانقلاب العثمانى ، والانقلاب الفارسى ، والنهضة المصرية ، وصيحة « مصر للمصرين » ، وحركة الجامعة الإسلامية ومكانها من الحال السياسية الحاضِرة ، وكل هذه الكتابات التى نشرتها الصحف أبانت عما يجب أن نعمله فى العالم الإسلامى .

كما صُنِّفت الكتب الكثيرة التى يُراد بها تعريفنا ببلاد الإسلام وأحوال المسلمين مثل كتاب الشرق الأدنى والشرق الأقصى (٤٥٫٠٠٠) نسخة ، وأخواتنا المسلمات ، والعالم الإسلامى ، ودين الإسلام ، والشعائر الدينية الإسلامية ، والإسلام والنصرانية فى الهند والشرق الأقصى ، وصليبو القرن العشرين ، ومصر الحرب الصليبية ، والإسلام فى الصين .

وتحدث القسيس « نلسن » عن الجامعة الإسلامية فى السلطنة العثمانية (قبل سقوطها) فقال : « إن الألوف من مسلمى الأرض يتجهون كل سنة إلى مكة ويشربون من ماء زمزم ، إلا أنه بالرغم من وجود كل أسباب الارتباط الخارجى ، ووجود الاتحاد الذى يجعل لفكرة الجامعة الإسلامية قوة حقيقية يعمل لها المبشرون النصارى وحكوماتهم ألف حساب ، فإنه ليس فى المسلمين العنصر اللازم لجمع شمل السُنِّيين والشيعة ، ويضم الأتراك والفُرس والهنود إلى العرب ، فالجامعة الإسلامية بحالتها الراهنة أمرٌ وهمى لا ثمرة له غير توليد أحلام تقلق رجال السياسة الذين يغلب عليهم الخوف .

وقال القسيس « ورنز » عن الجامعة الإسلامية فى إفريقيا : إن مدينة مكة والطرق الصوفية هى أكبر العوامل على بث شعور الوحدة بين المسلمين ، والنفرة من كل شيء غير إسلامى ، وهذا ما يسمونه بالجامعة الإسلامية ،غير أن انتشار الإسلام يقوم بعمليات عفوية ، فإن الاستعمار إذ يسلب عن المستعمرات السلطة الإسلامية السياسية فإنه يزيد الإسلام نفوذاً فيها ، فالمستعمرون مضطرون إلى استخدام المسلمين فى النقل والحراسة والزراعة ، فيحتك هؤلاء بغير المسلمين فإذا بهم يدخلون الإسلام .

وقال القس « سيمون » عن حركة الجامعة الإسلامية فى « ماليزيا » : إنها ترتبط بمكة قبلةً وحجاً ، كما يدعمها الحقد الذى يكنونه ضد الأوروبيين الغزاة ، مما يستوجب إشاعة روح المحبة بينهم .

وتحدث القسيس « كانون سل » فقال : إن الدراويش - وبخاصة الطريقة التيجانية التى وقفت مع أمير « سكوتو » ضد الإنجليز - بالإضافة إلى نفوذ المسلمين الاقتصادى والتجارى أزال الهوة بينهم وبين الزنوج .

وقالت مجلة العالم الإسلامى الفرنسية الى يصدرها المستشرقون المبشرون : لقد كان للمبشرين القدح المعلى فى توسيع نطاق المستعمرات الإنجليزية بأواسط إفريقيا وغربها ، لأن المبشرين كانوا يستعينون بالزنوج المتنصرين فى ارتياد البلاد وتأسيس مراكز التبشير ، وتوطيد النفوذ الإنجليزى (١) .

وقالت : إن الدكتور « كريف » أول من دخل إفريقيا الشرقية للتبشير ، وتبعه آخرون وامتد نشاطهم إلى إفريقيا الألمانية وأوغندا ، وأنشأوا مئات المدارس يؤمها عشرات الألوف من الطُلاب ، ومع هذا فالإسلام هو الغالب حتى قال السير « بارسى خيروار » حاكم إفريقيا الشرقية فى المؤتمر الذى أقامه المبشرون على ظهر الباخرة « غالف » فى البحر الأحمر : إنه يجب على الحكومة وعلى المبشرين أن يشتركوا فى العمل ضد الإسلام .

* *

● السياسة والعملاء والشركات الأجنبية :

وفى « أوغندا » أعلن الملك « متيسة » ارتياحه إلى اقتباس التربية الأوروبية وذلك عام ١٨٧٥ فتبرع اثنان بمبلغ (١٢٥ ألف) فرنك لجمعية التبشير ، وتحركت الإرسالية إلى هناك عام ١٨٧٦ ، ولكنها هوجمت فى الطريق وفقدت بعض المبشرين ، وتبعتها إرسالية تبشير كاثوليكية ، وتعاونت الإرساليتان ، وتوفى « متيسة » وخلفه الملك « موانغا » الذى كان لا يستريح تماماً إلى المبشرين ، ومع هذا عمل المسلمون على

---

(١) الغارة على العالم الإسلامى ص ٥١ - ٧٧

خلعه وطرد المبشرين عامة سنة ١٨٨٨ ، وبعد عام استطاعت المسيحية إعادته إلى منصبه ، وفى عام سنة ١٨٩٠ رفع العلم البريطانى لأول مرة على « شركة إفريقيا الشرقية البريطانية » ، ثم تبعت ذلك الحماية على البلاد بعد أربع سنوات ، وهكذا الشركات الأجنبية والتبشير والمستشرقون فصائل الاحتلال والاستعمار ، وما فُعل بإفريقيا فعلته شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى الهند حتى كان الاحتلال البريطانى .

وفى عام ١٨٩٦ بارح « موانغا » بلاده ليخلفه ابنه « شوا » عليها ، وتعمَّد نصرانياً وتسمى « داود » ، ودفع ثمن العمالة أو قبضه ، فالذى حدث أنه استقر له ملكه السياسى ولكن لحساب أعداء البلاد ، وأنشىء حتى عام ١٩١٠ (١٠١٠) معاهد ومحطات للتبشير و(١٤٧) مدرسة .

* *

● التصريح بمساعدة السلطات :

وفى تقرير لجمعية التبشير الكنسية الإنجليزية عن أعمالها فى الهند حتى عام ١٩١٠ تقول : إن لها ألفى محطة تبشير وألف مدرسة ، ومئات الإرساليات فضلاً عن مدرسة عاليه يتردد إليها المسلمون ، ويرجع نجاح نشاطها فى هذه البلاد لما تلقاه من المساعدة والمجاملة من المستر « لورنس » أو السير « منفوماری » ، أو الكولونيل « مارتين » عندما تقلدوا زمام الأمور فى ولاية « البنجاب » حتى اتسع نطاق التبشير من حيث التدريس والتطبيب ونشر المطبوعات والمدارس الصناعية وترجمة الكتب التبشيرية إلى اللُّغة الأوردية والسندية ، وتقام المعارض برسم دخول لدعم التبشير تحت رعاية الملوك والرؤساء كمعرض « بوسطن » التبشيرى ، فقد افتتحه المستر « تفت » رئيس الجمهورية فى إبريل ١٩١١

* *

● التبشير وقيام إسرائيل :

قالت مجلة العالم الإسلامى الفرنسية عن التبشير فى مطالع القرن العشرين : « ومن جملة المبادئ والأصول التى يروّجها مبشرو الجمعية التبشيرية الأمريكية

التى يرجع عهدها إلى سنة ١٨١٨ عندما يهبطون إحدى المدن لأجل التبشير ، أنهم يتركون الحرية التامة للذين يدخلون فى مذهبهم فى تأسيس وتشكيل كنائس خاصة يديرها الوطنيون مستقلين ، غير أن الجمعية تهتم بمزيد من التبشير فى البلاد العثمانية وبخاصة سوريا وفلسطين ، عاملين على الاستيطان لأن هذه الجمعية التبشيرية الأمريكية لا ترغب فى ترك البلاد التى كانت مهبطاً للتوراة تحت سيطرة الإسلام .

وبالرغم من أن « هرتزل » زعيم صهيونى فإنه أفاض فى مزايا ومحاسن السكة الحديدية التى اقترح أن تربط « القاهرة » ببلاد « الكاب » ثم قال : غير أن هذا الخط الحديدى يجعل القاهرة محجاً للمسلمين المنتشرين من جنوب إفريقيا إلى شمالها ، فيجب نشر التبشير حينئذ من « الكاب » إلى « القاهرة » .

ثم يقول : إن من سداد الرأى منع جامعة الأزهر أن تنشر الطلبة المتخرجين فيها فى جنوب إفريقيا ، طبقاً لقرار مؤتمر التبشير العام ، لأن الإسلام ينمو بلا انقطاع فى كل إفريقيا .

ولقد قامت المؤسسات الدينية والسياسية والاقتصادية فى الغرب بما كان يقوم به الملوك فى الماضى من الإغداق على المستشرقين وتقديم المنح والمعونات إليهم ، وأقرب مثال لذلك ما قدمته مؤسسة « فورد » وغيرها للدكتور « ميتشيل » فى رسالته للدكتوراة عن « الإخوان المسلمين » ، وكان لليهود دورهم فى الاستشراق بمعوناتهم المادية ، وبأشخاصهم من أمثال « جولدسيهر » ، و « بندلى جوزى » ، و« يورى إيفانوف » . . . وغيرهم ، وهدفهم الآن واضح وهوالحيلولة دون اجتماع المسلمين فى وحدة تقاوم اليهودية العالمية أو دولتهم الباغية « إسرائيل » ، أو حتى مجرد إعادة المطرودين من « فلسطين » إلى أرضهم ليعيشوا مع النصارى واليهود الذين كانوا فيها قبل طردهم من بيوتهم وبيّاراتهم .

* *

● **تخريب إفريقيا :**

إن الغربى يرى أن الجنس الأسود ليس له شرف الانتماء للمسيحية بنفس الدرجة التى للجنس الأبيض ، لأنه لا يتوقع لقلب رجل إفريقى أن تنفذ فيه المسيحية بعمق ، ومن هذا القبيل ما يروى عن « رهربك » أنه قال : « إنه يتعذر على الوطن الشرقى أن يتأثر بنفوذ المسيحية ، فهى عقيدة خاصة بالأجناس الراقية ، فمن دخل منهم فيها فيجب اعتباره فى بادئ الأمر داخلاً تحت حماية مسيحية ، وليس مسيحياً ، ولا يزال المسيحيون السود يُصَلُّون فى كنائس خاصة بهم ، ولا يقبلهم الأوربيون البيض فى كنائسهم

ورفض المستر « غردنر » السكرتير العام لجمعية الطلبة المسيحيين ذلك القول ، ودعا إلى العمل السريع لتنصير جنوب إفريقيا ، وأشار إلى المجلة التى تصدرها جمعية النهضة السياسية الإفريقية التى كان يرأسها فى مطلع هذا القرن الدكتور عبد الرحمن ، وكانت تحض المواطنين على النهوض باقتصاد البلاد ، وعلى السعى للاستقلال والتحرر فقال : « إنها تحمل فى بعض الأوقات على الكنيسة الهولندية وعلى الحكومة ، وقد قالت منذ مدة : لقد أزف الوقت الذى يجدر بالوطنيين أن يقولوا فيه للجنس الأبيض : إن الدين المسيحى الذى تفتخرون به يباين وينافى تعاليم المسيح » .

وقال : « إن هذه الجريدة تنفخ روح النشاط بين السود ، وتحضهم على اقتناء العقارات والاعتماد على أنفسهم ، فعلى المبشرين أن يحولوا أنظارهم ، ويُخمدوا هذه الأعمال والحركات السياسية والاقتصادية . إن المال والحرية هما وقود حركة التحرير الذى تعمل السياسة على تجنيد المبشرين لإبعاد المسلمين عنهما لدرجة أنه يوجد عدد ضخم من المبشرين فى جنوب إفريقيا بنسبة (مبشر لكل ألف وثلاثمائة مواطن) ، بينما حظّ المبشر فى مناطق أخرى يبلغ (٢١ر٤٠٠) وطنى [1] .

* *

(١) الغارة على العالم الإسلامى ص ٩٣

● القضاء على الخلافة الإسلامية :

عقب فتنة الأرمن عام ١٨٩٥ تأسست جمعية إسعافات الأرمن ثم تحولت إلى جمعية التبشير الألمانية ، وكان مؤسسها ورئيسها هو القسيس « لبسيوس » الذى جعل من فتنة الأرمن « قميص عثمان » يطوف به بلاد الأناضول وسوريا لتشويه صورة حكام تركيا ونظام الخلافة ، ومما قاله فى تقرير عن أعمال إرسالية التبشير الألمانية : « إن نار الكفاح بين الصليب والهلال لا تتأجج فى البلاد النائية ولا فى مستعمراتنا فى آسيا وإفريقيا ، بل ستكون فى المراكز التى يستمد الإسلام منها قوته وينتشر ، سواء أكان فى إفريقيا أم فى آسيا ، وبما أن كل الشعوب الإسلامية تولى وجوهها نحو الآستانة عاصمة الخلافة ، فإن كل المجهودات التى نبذلها لا تأتى بفائدة إذا لم نتوصل إلى قضاء لبانتنا فيها ، ويجب أن يكون جُلُّ ما تتوخاه جمعية إرساليات التبشير الألمانية هو بذل مجهوداتها نحو هذه العاصمة ، وهى قلب العالم الإسلامى » (٢) .

هذه معالم للترابط بين التبشير والاستعمار ، ولو كان الغرض من التبشير خدمة المسيحية وتعاليمها لكان الأولى بذلك هم الأوروبيون والأمريكيون ، حيث الإلحاد والعلمانية والجرائم والتحلل الخُلُقى ، والإدمان الكحولى واستعمال المخدرات ، ولكن المبشرين تركوا كل ذلك وراءهم ظهرياً ، وأتوا إلى العالم الإسلامى لتخريبه باسم السيد المسيح ، والسيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام برىء مما يصنعون .

* *

---

(١) المرجع السابق ص ٨٩

● الإرسالية العلمية المغربية :

وتكونت فى فرنسا جمعية اسمها « الإرسالية العلمية المغربية » فى القرن الرابع عشر الهجرى (١٨٨٩-١٨٩٠) ، وأعضاء الجمعية مستشرقون درسوا الكتب الإسلامية ، والعادات الشرقية ، واللغة العربية وغيرها من لغات المسلمين ، خدمة لجامعات فرنسا السياسية والدينية والاقتصادية ، وفى أوائل القرن العشرين الميلادى وحوالى عام ١٣٢٥ هـ أصدرت هذه الجمعية فى باريس مجلة شهرية مصورة باسم « مجلة العالم الإسلامى » ، ويرأس تحريرها المستشرق « ل . شاتليه » أستاذ المسائل الاجتماعية الإسلامية فى إحدى الجامعات الفرنسية ، ومن محرريها المسيو « لويس ماسينيون » ، واختطت المجلة لنفسها تكوين شعبية لها بصبغ المقالات فيها بالصبغة العلمية ، وإظهار أن الجانب السياسى ليس غرضاً للمجلة إلا بالدرجة الثانية .

وقد ظلت تحافظ على الطابع العلمى ، ونشر « شاتليه » بها بحثاً علمياً عن « المركز الاقتصادى للعالم الإسلامى » ، ترجمته إلى العربية مجلة « المؤيد » بمصر ، فلما تم لفرنسا احتلال المغرب أولاً ثم دارت فاس فى فلكها ، وأصبحت طرابلس مستعمرة من المستعمرات ، كشرت المجلة عن أنيابها وأحقادها ، فنشر بحثاً مطولاً عن « فتح العالم الإسلامى » الذى نشر باسم « الغارة على العالَم الإسلامى » ، ويتناول إرساليات التبشير البروتستانية ، ثم نشرت تقارير عدة مؤتمرات تبشيرية ، منها :

١ - مؤتمر التبشير الأول فى القاهرة (مصر) سنة ١٩٠٦ فى ١٩٠٦/٤/٤ بمنزل عرابى باشا فى باب اللوق برئاسة « زويمر » .

٢ - مؤتمر التبشير الثانى فى أدنبرج (إنجلترا) سنة ١٩١٠ ، وفى هذين المؤتمرين توثقت الروابط بين إرساليات ألمانيا وفرنسا .

٣ - مؤتمر التبشير الثالث فى لكنو (الهند) سنة ١٩١٣

ثم تناولت التنظيم المادى لإرساليات التبشير ، ومقاصد المبشرين وآمالهم فى المستقبل ، وأدبيات إرساليات التبشير ، والنتائج والتوصيات .

وكان من أهمها :

١ - ترتيب العقلية فى بلاد المسلمين لتكون غربية مسيحية فى منهجها الفكرى ، وبهذا ينهدم الفكر الإسلامى وسائل وغايات ، فبنشر اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية ، يتحكك الإسلام بصحف أوروبا ، وتتمهد السبل أمام حضارة مادية للمسلمين ، وتقضى إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التى لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها ، ولكن اعتناق المسلمين للمسيحية فأمر خارج على الإمكان لأن المسلم لا تجذبه العلوم العصرية إلى الاعتقادات الدينية .

وبتنازل جمهور العالَم الإسلامى عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية ، مع الضعف التدريجى فى الاعتقاد الدينى ينشأ الاضمحلال المؤدى إلى انحلال الروح الدينية من أساسها ، لا إلى نشأتها بشكل آخر ، ولذا يوصى بكثرة المدارس التبشيرية ، وادخال التعليم الغربى بلغاته ومنطقه إلى كل عقول الشرقيين فى مدارسهم وصحافتهم سواء الرجال والإناث .

٢ - كما أوصى المؤتمرون بإنشاء فروع لجمعيات التبشير تقوم على إعداد متطوعين للتبشير بالمسيحية فى العالَم ، فإن لغة المتطوع وقلبه غير لغة المرتزق وقلبه ، وكان البارون « رويتز » قد دعا فى عام ١٦٦٤ إلى تأسيس كلية تكون قاعدة لتعليم التبشير المسيحى ، ويدرس فيها الطُلاب اللُغات الشرقية التى سيستخدمونها فى التبشير .

٣ - هناك ارتياح إلى أعمال جمعية الاتحاد والترقى ثم ما بذله كمال أتاتورك ، واهتمامه بالتقسيم السياسى الذى طرأ على البلاد الإسلامية ، ويعتقد المؤتمرون أن هذا سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوروبية إذ من المحقق أن الإسلام سيضمحل من الوجهة السياسية ، وسوف لا يمضى غير زمن قصير حتى يكون الإسلام فى حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوروبية ، وعلى هذا الخط كل ما يوسع هوة التقسيم السياسى كتشجيع القوميات .

٤ - آسيا وإفريقيا أهم الأسواق البشرية ، والسيطرة عليها يقتضى ألا تُظهر المذاهب المسيحية ما بينها من فرقة فإن ذلك يجعل الباحثين لا يترددون فى

الحكم على مذاهب النصرانية بأنها فقدت التوازن بالرغم من الخدمات التى تأتى بها الحضارة الأوروبية .

٥ - قال « زويمر » للدكتور « لبسيوس » : إن المسلمين مهما يكونوا موحدين ، فإن تعريفهم لإلههم يختلف عن تعريف المسيحيين .

٦ - يوصى المؤتمر بأن يتحبب المبشرون إلى السامعين فى الشرق بالعزف على الموسيقى التى يعشقها الشرقيون ، ويهتموا بالفانوس السحرى فيما يعرضونه (وذلك قبل السينما والتلفاز والفيديو) ، وأن يلقى المبشر حديثه وهو جالس بصوت رخيم خال من الكلمات الأجنبية ، وعلى قدر المستوى العقلى للسامعين ، وتُختار الموضوعات الاجتماعية البحتة قبل الدخول فى العقائد ، وألا يعرض فكر الإنجيل إلا مقارناً بالقرآن ليوجد تقارب وأُلفة فكرية لدى السامع ، وامتدح منهج مجلة المشرق والمغرب التى تصدرها جمعية الشبان المسيحية فى مصر لافتتاحها باباً غير دينى يناقش قضايا اجتماعية وتاريخية ، كما امتدح اشتراك الأقباط فى دفع تبرعات للشبان المسلمين كسباً لقلوبهم .

٧ - الإكثار من الإرساليات الطبية ومستشفياتها على جميع المستويات ، وتخفيف اللّهجة فى المجادلات الدينية .

٨ - هز الثقة فى الأزهر بإيجاد مدارس لتدريس اللُّغة العربية بأيسر وأفضل السبل ، لتنصرف عنه البلاد العربية والإسلامية .

٩ - تيسير الكتاب بتأسيس مكتبات لبيع الكتب بأثمان قليلة يقوم بالبيع العقائديون الذين يستطيعون فتح حوار فى أثناء البيع لكسب ثقة عدد من المسلمين ، وتعرف مشاعرهم وميولهم ، وإظهار العطف على أمانيهم القومية والسياسية .

١٠ - نشر بحوث بأثمان زهيدة فى كل من : « أسماء وألقاب المسيح التى فى الأناجيل - طبيعة الخطيئة الأصلية - ضرورة الغفران - الجنَّة وكيفية الحصول عليها - الروح القدس وأعماله - عقيدة سر التجسّد - الإنسان فرد اجتماعى وخالقه ليس كذلك -الإله الاجتماعى يشمل الثالوث - الشيطان وكيفية الخلاص منه » .

١١ - يُستعان بالمرأة فى التبشير من خلال العيادات الطبية والمدارس التبشيرية ، أو المدارس العامة حين يمكن العمل بها ومن خلال زيارة قرى الفلاحين والزيارات المنزلية لتقديم الخدمات الاجتماعية ، وإنشاء مدارس للبنات يُقرأ فيها الإنجيل على الجميع ويُعطى للمسلمات حرية عدم الاستماع لقراءة الإنجيل ، ففى الغالب أن إعلان ذلك ستكون نتيجته عكسية ، وهو سماح الآباء للبنات بالسماع ، على أن يُعَد للتبشير كفاءات من الفتيات والنساء لهذا الدور إعداداً تربوياً خاصاً ، ويكون من المتطوعات وليس المحترفات أو مجرد تخصص فنى ، وفى مؤتمر « لكنو » طلب المجتمعون تأسيس مدرسة بمصر من هذا النوع على وجه السرعة .

١٢ - لا فائدة لطريقة المناظرة والجدل لأنهما يُبعدان المحبة ذات الأثر الكبير على قلوب الغير ، والمحبة والمجاملة هى آلة المبشر ، لأن طريق الاعتقاد هو قلب الإنسان ، والمبشر أحوج إلى الصفات الخُلُقية والاستقامة التامة منه إلى المزايا العقلية ، والموازنة بين الأخلاق فى الأمم المسيحية وفى المسيحيين ستجعل الرجحان للنصرانية على الإسلام .

١٣ - المدرسة هى المبشر الأول : وقد جاء فى تقرير اللَّجنة الثالثة لمؤتمر « أدنبرج » التبشيرى ما نصه : « اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى فى عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم التى أسسها الأوروبيون كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية يرجح على تأثير العمل المشترك الذى قامت به دول أوروبا جميعها .

١٤ - نشر الأناجيل بلغة مبسطة ، ومن هنا ترجمته إلى عشر لغات إسلامية من لغات المسلمين فى روسيا .

١٥ - تطوير أسلوب التبشير بالخدمات الاجتماعية ، وكأنهم يقولون : « اطعم الفم تستح العين » أو يرددون قول صفى الدين الحِلى :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم   فطالما استعبد الإنسان إحســـان

وقد ألَّف القس « زويمر » كتابه « مجد المحال » تناول فى القسم الأول بيان البلاد الإسلامية الخالية من المبشرين أو التى بها عدد يحتاج المؤازرة ، أما القسم الثانى من الكتاب فخصصه لدراسة الأمور الاجتماعية التى تتعلق بالأعمال التبشيرية فقال : « إن أكبر حجة كان المبشرون يدعمون بها أعمالهم التبشيرية منذ مائة سنة (والآن مائتين) كانت لاهوتية دينية محضة ، أما الآن فقد أصبحت أعمالهم مشفوعة بأسباب اجتماعية ، وكان يُنظر فى سابق الأيام إلى المبشرين نظر قوم يشنون حرباً صليبية ترمى إلى التنصير فقط ، والآن تغيرت المفاهيم وصارت الأعمال التبشيرية تشف عن فكرة الإصلاح الاجتماعى ، وعن رفع شأن الشعوب غير المسيحية » .

ثم أشار إلى المزايا والسجايا العقلية التى يجب على المبشرين أن يتحلوا بها ، ويتذرعوا بها لأغراضهم .

وذكر بعد ذلك أسباب الانحطاط الاقتصادى (فى مطلع هذا القرن) فى شبه جزيرة العرب ومنغوليا وأفغانستان ، وعن الغارات التى كان يشتعل لظاها بين القبائل العربية فى الصومال وإفريقيا الوسطى الوثنية ، وعن الفقر المدقع المنتشر فى بعض الجهات ، وقال : « إن تمادى الاعتقاد بالتمائم وتأثيرها يؤخر أحوال الشعوب الإسلامية ، ويزيدها شقاء » .

١٦ - التبشير قبل التمدين : ثم حذَّر القسيس « زويمر » : فى خاتمة كتابه قائلاً : « إن الخطة الفاسدة الخطرة التى تقضى ببث مبادئ المدنية مباشرة ، ثم نشر المسيحية ثانياً ، خطة عقيمة ، لا فائدة تُرجى منها ؛ لأن إدخال الحضارة والمدنية قبل إدخال المسيحية لا تُحمد مغبته ، بل تنجم عنه مساوئ كثيرة تفوق المساوئ التى كانت قبلاً » [١] .. وكأن زويمر يقول : « لا صدقة على شعب إلا أن يدفع الثمن ويُقَبِّل يد البابا » .

* * *

(١) الغارة على العالم الإسلامى ، ص ٩٢

التبشير فى أندونيسيا

فى ظل الاستعمار الهولندى وبعده

ظاهرة التنصير فى أندونيسيا قديمة ، فهى منذ عام ١٥٠٠ م ، أى منذ غزا البرتغال جزر البهار « مالوكو » ، ثم قامت الكنائس كجزء من عمل حكومة الاستعمار فى الجزر الأندونيسية التى تضم مائة وثلاثين مليون مسلم أو يزيدون ، أى أكثر من ثُمُن العالَم الإسلامى ، فالحملات التنصيرية تستهدف العالَم الإسلامى قبل غيره ، ويستقطب اهتمامها وجود الفكرة الإسلامية فى صورتها الحية ، وتحاول السيطرة بالعلم والمال حتى أمكن نصارى أندونيسيا وهم لا يتجاوزون ١٠ ٪ [١] من احتلال معظم مناصب القيادة والسيطرة فى الجيش والوزارات المدنية ، ولذلك قرر مؤتمر المبشرين فى مدينة « مالانج » عام ١٩٦٧ أنهم يجب أن ينتهوا من تنصير المسلمين فى جزيرة « جاوة » البالغ عددها ٦٥ مليوناً خلال عشرين سنة تنتهى عام ١٩٨٧ ، وأن ينتهوا من تنصير أندونيسيا خلال خمسين سنة ، وأعدوا لذلك دور النشر الكبرى والمطابع المتطورة لطبع الإنجيل ، ثم الاندفاع بالتبشير حتى كان يجرى فى الشوارع كالسوس الذى ينخر عظام الطفل الصغير [٢] .

ويعود تاريخ استفحال النشاط التبشيرى للنصارى فى أندونيسيا إلى الفترة التى انفرد فيها « سوكارنو » بالسُلْطة المطلقة فى أوائل الستينيات ، وفى غيبة حزب « ماشومى » الذى حلَّه « سوكارنو » ، وهوالحزب الإسلامى العقائدى صاحب الأغلبية الإسلامية الساحقة ، والذى كانت له اليد الطولى فى مقاومة الاستعمار ودعم الاستقلال .

---

(١) ويقال ٣ ٪ (المسيحية الرابعة - لرءوف شلبى) ص ٧ - الطبعة الأولى .

(٢) الإسلام فى أرخبيل الملايو - المقدمة : (ع) ، الطبعة الأولى .

وكانت قمة التوتر بين المسلمين والمسيحيين عام ١٩٦٧ الذى عقد فيه مؤتمر ممثلى الأديان للتفاهم الذى لم يثمر تخفيف وطأة التبشير ، فإنه لا زالت الضغوط على أشدها ، فهى محاصرة من الشمال بحكومة الفيلبين المسيحية الكاثوليكية المتعصبة ، وفيها يتم إعداد القسس والمبشرين المخصصين للعمل فى أندونيسيا ، وفيها محطة إذاعة تبث إذاعة التبشير باللُّغة العربية .

أما فى جنوب أندونيسيا فهناك أستراليا - القارة البيضاء - المسيحية المترفة .

* وإحصائية (١٩٧٥) لمجلس كنائس أندونيسيا لطائفة البروتستانت توضح :

٩٨١٩ كنيسة ، ٣٨٩٧ قسيس ، ٨٥٠٤ مبشر متفرغ .

* وإحصائية (١٩٧٥) للمؤسسات التبشيرية الكاثوليكية فى أندونيسيا توضح :

٧٢٥٠ كنيسة ، ٢٦٣٠ قسيس ، ٥٣٩٣ مبشر متفرغ .

وقد قرر مجلس الكنائس العالمى والفاتيكان الإسهام فى أعمال التنمية فى أندونيسيا تحت شعار : « من الكنيسة إلى المجتمع » ، وأنشأ « هيئة مجلس الكنائس » للمساهمة فى أعمال التنمية هناك لهذا الغرض .

وبالفعل قامت مؤسسات التبشير تساندها قوى جبارة وحسبك أن تعلم أن مؤسسات التبشير في منطقة « كاليمنتان » الغربية فقط تملك ٢٧ مطاراً تبشيرياً وأسطولاً من الطائرات العمودية ، وطائرات « التشنا » وأسطولاً من السفن وضع تحت تصرف المبشرين : يملك سفن « لوجوس » و« سانت فاتيما » و« ستيلا ماريز » و « أنبيسر » للانتقال بها بين المدن والقرى والثلاثة الآلاف جزيرة ، بينما الواحد منا - نحن دعاة الإسلام فى مصر - لا نجد حماراً نركبه فضلاً عن أجر طائرة عامة تقلُّنا ، وكم والله رأيت مَن يركب عربات « الكارو » أو « أوتومبيل الحرث الزراعى » فى تنقلاته فى مصر .

وحسبك أن تعلم أن المبشرين يسيطرون على وسائل الإعلام ولديهم الإذاعات المحلية التبشيرية موزعة فى شتَّى أنحاء أندونيسيا ، ويملكون الصحف

اليومية الكبرى : صحيفة « الكومباس » ، و« سينار هارابان » إلى جانب دور النشر الكبرى والمطابع والمشافى .

وحسبك أن تعلم أن مؤسسة تبشيرية واحدة تقوم بتأمين الدواء إلى ١٨٠ مستشفى ، ١٢٩ مستوصف ولادة ، ٣٤٥ صيدلية ، ٤٥ عيادة متنقلة (كلينوموبيل) (١) .

* *

● أصول المخطط التبشيرى :

اتفقت كلمة المبشرين فى أندونيسيا على الوسائل الآتية :

١ - شراء الأراضى ذات الموقع الاستراتيجى لبناء الكنائس ودور الكتاب المقدس مهما بلغت الأسعار ، فمثلاً فى قرية « تشى جوجور » بالقرب من جبل « تشى رمى » كنيسة أمامها بيت صغير مخصص للدعوة الإسلامية ، فقامت الكنيسة بشرائه بثلاثة ملايين روبية لتحويله إلى مستوصف « زهور الشرق » .

٢ - إقراض الفلاحين ما يطلبونه مقابل إدخال أولادهم مدارس التبشير .

٣ - إنشاء المرافق العامة : أندية - مكتبات - قاعة لاستقطاب الشباب .

٤ - توزيع المعونات المادية والعينية مثل الكساء والأرز .

٥ - إنشاء دور الاحتفالات والتعاون فى معظم المدن والقرى .

ولقد صدر عن « الدار الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع » كتاب فى عام ١٩٦٨ م (١٣٨٨ هـ) باسم « غارة تبشيرية جديدة على أندونيسيا » وهذا العنوان يمثل حقيقة عمل المستشرقين هناك وهو عمل قد يكون فى ثياب التدريس ، أو التوجيه الاقتصادى أو الخدمات والمعونات الإنسانية ، وباعتبار ما حدث فى أندونيسيا نموذجاً لأسلوب العمل ، وإن اختلف من حيث الكم باختلاف البلاد واختلاف الفرص المتاحة للمستشرقين والمبشرين فإننا نذكر لقطات من أندونيسيا .

---

(١) مجلة « الاعتصام » ذى الحجة ١٣٩٧ (نوفمبر ١٩٧٧) .

❊ فى « مكاسار » وهى عاصمة « سولايوس » الجنوبية :

قام القسيس « مانومباهان » وهو يعمل مدرساً بالمدرسة التجارية الحكومية بمهاجمة النبى محمد ﷺ أثناء الدرس ، وقذفه بأنه كان يعاشر نساءه سفَاحاً ، زاعماً أنه لم يعقد نكاحه إلا على تسع ، وهو بهذا يتجاهل نظام التَّسرِّى الذى كان سائداً ومشروعاً حينذاك بالنسبة للسرارى ، ويكذب فى شأن بقية النساء الثابت عقده - صلى الله عليه وسلم - عليهن (١) .

❊

❊ فى « فلوريس » :

عقب الانقلاب الشيوعى الفاشل اتَّهم هؤلاء المستشرقون الذين يقومون بالتبشير فى البلاد كلَّ مسلم فى « فلوريس » بأنه كان شيوعياً ، وبهذا تسنَّى إعدام زعماء المسلمين جميعاً بعد تعذيبهم ، مما اضطر بعض المسلمين إلى الدخول فى النصرانية لينجوا من الموت والتعذيب .

❊

❊ « سينايان » من أعمال چاكرتا :

كانت قرية « سينايان » وادعةً إلى أن أصدر « سوكارنو » قراراً بجعلها مدينة للألعاب الرياضية ، وإجلاء السكان عنها ، فأمر وزير الصحة - وكان مسيحياً - بمنح جمعية الإدفنتست المسيحية قطعة أرض من أراضى هذه القرية كيما يُبنى عليها مستشفى تبشيرى ، فأثار حماسةَ الشباب المسلم فقام بالاستيلاء على هذه الأرض وعلق عليها لافتة باسم « مشروع مسجد الهدى » وذلك بعد معارك عنيفة .

❊ ❊ ❊

---

(١) غارة تبشيرية جديدة على أندونيسيا ص ٧٥

الجمعيات التبشيرية

تنوعت هذه الجمعيات وتكاثرت فى كل البلاد الأوروبية بغية دعم العمل التبشيرى فى آسيا وإفريقيا ، ومن أهم هذه الجمعيات - كما ذكرنا - جمعية لندن التبشيرية التى تأسست عام ١٧٩٥ وبها مئات الأساقفة التى تأسس على غرارها عدد من الجمعيات فى كل من اسكتلندا ونيويورك وألمانيا والدانمرك وهولندا والسويد والنرويج ، وكانت توجه مبعوثيها إلى كل بلاد العالَم غير المسيحى ، ففى الهند لها إرسالية فاكتفوا بأخذ اللقطاء وأبناء الفقراء يربونهم ويعلمونهم المسيحية تحت ضغط الحاجة (١) .

وفى سنة ١٨٥٥ تأسست جمعية الشبان المسيحيين من الإنجليز والأمريكان ، وعقد للطلاب النصارى مؤتمر فى « نورثفيلد » اجتمع فيه ٢٥٠ مندوباً عن ثمانين مدرسة تكفلت بتقديم مائة شاب لنشر المسيحية ، وقد انبثق عن هذا تكوين « جمعية الشبان المتطوعين للتبشير فى البلاد الأجنبية » ، وبخاصة بين المسلمين ، وكان أهم ما تعول عليه هو نشر الإنجيل بينهم .

وفى عام ١٨٩٥ تأسست « جمعية اتحاد الطلبة المسيحيين فى العالم انضم إليها بعد تأسيسها نحو (١٠٠٫٠٠٠) طالب وأستاذ يمثلون أربعين قومية وقطر .

وفى سنة ١٩٠٢ تأسست جمعية لتبشير الشبان مستهدفة استمالة النساء والفتيات والفتيان إلى استماع صوت المبشرين .

وفى سنة ١٩٠٧ تأسست جمعية أخرى لتبشير الكهول .

وتأسست جمعية تبشير شمال إفريقيا للانتشار فى المغرب والجزائر وسائر بلاد المغرب .

---

(١) ولجمعية التبشير الكنسية فروع فى بغداد والموصل بالعراق وفى معظم أنحاء العالم .

ودخل المبشرون الكاثوليك ربوع إفريقيا منذ القرن الخامس عشر أى مع الاكتشافات البرتغالية ، ثم تتابعت الإرساليات البروتستانتية إنجليزية وألمانية إلى جانب الإرساليات الفرنسية ، ومنذ عام ١٨٠٤ وجمعية الكنيسة البروتستانتية تقوم بدور مكثف فى إفريقيا الغربية ثم امتدت إلى الكنغو والنيجر الغربية ، ثم هبط مبشرو المدرسة الجامعة فى مدينة ممباسة ، ونشطت السويد وانجلترا فى إرسال مبعوثين إلى غربى إفريقيا ، كما أرسل الكاردينال وفداً إلى أوغندا فشل فى مهمته للانقسام الذى بين الكاثوليك والبروتستانت .

ثم وفدت بعثة « لفنجستون » و« ستانلى » عام ١٨٧٨ إلى إفريقيا الوسطى ، فاقتسموا مناطقها وكان مجال نشاطهم من الوسط إلى شرق إفريقيا .

وفى الصين بدأت حملة التبشير إلى سنة ١٨١٣ مستعينة أولاً بالأطباء والممرضين .

وفى فارس فتح بها « بروس » عدة مدارس سنة ١٨٦٩ وما بعدها ، كما أسس عدة مستشفيات ضمنها مستشفى للإناث ، ومدرسة داخلية للسيدات فى أصفهان .

وفى الهند ألفى بعثة تبشير حتى سنة ١٩١٠ وألف مدرسة .

* *

● جمعية التبشير الألمانية :

أعلن عنها مؤسسها عام ١٨٩٠ . . وكانت من قبل تسمى جمعية إسعافات الأرمن لأنها تأسست عقب فتنة الأرمن ومذابحها عام ١٨٩٥ ، ولها عدة إرساليات فى معظم بلاد العالم . . وكانت تركز على ما سمى منطقة الشرق الأوسط والقضاء على خلافة العثمانيين تيسيراً لتمكين اليهود من الاستقرار فى دولة إسرائيل .

* * *

قائمة ببعض المستشرقين من رجال الدين

• ففى إيطاليا :

١ - الأب « كاستلانى » (١٨٧٤ - ١٩٤٦) : من مواليد روما وهو فرنسيسكان الرهبنة .

٢ - الأب « مونتانو » ولد بإيطاليا سنة ١٩٠٤ وهو فرنسيسكان الرهبنة .

٣ - الأب « باجاتى » : ولد سنة ١٩٠٥ فرنسيسكى .

٤ - الأب « زائيلا » : ولد سنة ١٩١١ وهو فرانسيسكى الرهبنة .

٥ - الأب « موترد » (١٨٨٠) : ولد في ليون وانسلك فى سلك الرهبانية اليسوعية عام ١٨٩٨

٦ - الأب « ماريتى » (١٧٣٦ - ١٨٠٦) : وقد ألف عدة كتب فى تاريخ الصليبيين تمثل وجهة نظر رجال الدين المسيحى طبعاً [1] .

٧ - الأب « روزا ريوغريفريو » (١٧٥٣ - ١٨٠٩) : وقد تفرغ لتاريخ صقلية فى عهد العرب .

٨ - الأب « لويجى انجاريللى » (١٧٧٩ - ١٨٤٥) : وهو من رجال الدين وكان مديراً للقسم المصرى فى متحف الفاتيكان .

٩ - « أغناطيوس جويدى » (١٨٤٤ - ١٩٣٥) : وهو من مواليد روما ، وقد عهد إليه بتعليم العربية فى جامعتها عام ١٨٨٥ ، فوسع دائرتها بعد أن كانت محصورة فى الرهبان ومَن إليهم من رجال السلك السياسى ، ومن مؤلَفاته « بلاد العرب قبل الإسلام » (باريس سنة ١٩٢١) .

١٠ - الأب « رونكاليا » : ولد فى « رجيولو » بإيطاليا سنة ١٩٢٣ وهو من الفرنسيسكان .

١١ - الأب « بواديار » : وهو من كبار رجال الدين فى إيطاليا ، له كتاب « تنظيم مراعى سوريا الرومانية » فى (٢٥٤) صفحة .

---

(١) المستشرقون : ص ١٥٣ - الطبعة الثانية .

١٢ - الكاردينال « شارل مارتيال لافيجرى » : مكث أسقفاً للجزائر نحو أربعين سنة ، وقد أنشأ زاوية مسيحية فى مدينة « بسكرة » التى تقع فى منتصف الطريق بين جبال الأوراس وبحيرات شط الغرسة ، وأمر أتباعه بارتداء الملابس التى يرتديها المرابطون المسلمون فى زواياهم ، مع فارق واحد ، هو غطاء الرأس ، فألزمهم القبعة بدلاً من الكوفية التى يعتمّ بها المسلمون ، ولم تجد حيلته شيئاً كما يقولون .

١٣ - الأب « فنيسين » رئيس مركز دراسات الكتاب المقدس فى القدس .

١٤ - الأب « بويج » : ولد فى « أوفرنى » عام ١٨٧٨ ، وانضم إلى الآباء اليسوعيين عام ١٨٩٣ ، واشترك فى تحرير مجلة جامعة القديس يوسف التى تسمى « منوعات » ، توفى سنة ١٩٥١

* *

● وفى فرنسا :

١ - الأب « ماريا شنايدر » (١٨٩٦ - ١٩٥٢) : فرنسيسكى توفى بسوريا .

٢ - الأب « لامانسى » (١٨٦٢ - ١٩٣٧) : بلچيكى المولد فرنسى الجنسية صاحب كتاب « الثأر وسمته الدينية فى عُرْف الجاهلية » .

٣ - « بطرس المحترم » (١٠٩٢ - ١١٥٦) : وقد عين رئيساً لدير « كولونى » سنة ١٩٣٣ ثم قصد إلى الأندلس وتثقف ثم عاد إلى ديره يصنف الكتب فى الرد على الإسلام ، ويقال : إنه ترجم القرآن وأتبعه برد على مبادئه .

٤ - « جربر دى أورالياك الراهب الفرنسى » (٩٣٨ - ١٠٠٣) : من الرهبانية البندكتية . تلقى تعليمه فى « تور » و« صقلية » ثم ذهب إلى الأندلس فأخذ من علمائها فى مدارس « ريبول » و« أشبيلية » و« قرطبة » . ثم ارتحل إلى « روما » . وسما على أقرانه وانتخب حَبْرا أعظم باسم « سلفستر الثانى » (٩٩٩ - ١٠٠٣) أى أنه ثقف فى عهد خلافة الحاكم وما قبله من الأعصر

الزاهرة فى الأندلس . وبعد انتخابه أنشأ مدرستين عربيتين . الأولى فى إيطاليا وهى مقر خلافته ، والثانية فى « ريمسى » من أعمال فرنسا وهى وطنه [1] وهو بهذا أول بابا فرنسى .

٥ - « أرنست رينان » (١٨٢٣ - ١٨٩٢) : تخرج من المدارس اللاهوتية وترجم كتاب أيوب ونشيد الأناشيد وحياة يسوع وكتاب « الرسل » وكتاب « القديس بولس » ومن تلامذته المعاصرين « ل . جوتيه » .

٦ - « رينودو » (١٦٤٨ - ١٧٣٠) : وهو راهب فرنسى كتب تاريخ البطاركة الموازنة واليعاقبة والنساطرة والأقباط والأحباش .

٧ - « بورغارد » (١٨٠٦ - ١٨٦٦) : وقد أنشأ أول مطبعة عربية بتونس .

٨ - « جاك بارتلمى » (١٧١٦ - ١٧٩٥) : وهو راهب اشتغل بآثار الفينقيين والتدمريين ونقود الإسلام ، وهو صاحب رحلة « أناكرسيس فى أخبار اليونان » .

٩ - « الأب كولنجت » (١٨٦٠ - ١٩٤٣) : دخل الرهبانية اليسوعية سنة ١٨٧٩ وبعد أن أتم دراسته التحق بمدرسة « القديس كرافيه » للآباء اليسوعيين فى الإسكندرية .

١٠ - « يوحنا بلو اليسوعى » : تلقى دروسه فى مدرسة « ديجون » الإكليريكية بفرنسا ، ثم انتظم فى سلك الرهبانية اليسوعية ، وكان ممن عهد إليهم فيما بعد إدارة المطبعة الكاثوليكية ، وإصدار صحيفة البشير ، ومن مؤلفاته « أجمل روايات الأسفار المقدسة » فى ٣ أجزاء ، وهو من مواليد « لوكسى » من أعمال فرنسا .

١١ - « ادوار مونتيه » (١٨٥٦ - ١٩٢٧) : فرنسى تخرج من جامعات « جنيف » و« برلين » و« هايدبرج » ، وأحرز درجة الدكتوراة فى « اللاهوت البروستانتى » من جامعة باريس سنة ١٨٨٣

---

(١) المستشرقون ص ١٩ وفى الطبعة الثالثة ص ١٢١

١٢ - ادلرد أوف باث (١٠٧٠ - ١١٣٥) : راهب بندكتى . تلقى علمه فى تور ، والأندلس ، وصقلية .

١٣ - « ل . جوتيه » : فرنسى متعصب ضد الإسلام والأجناس غير الآرية عموماً .

١٤ - دكتور « دريوتون » : (١٨٨٩ - ١٩٦١) : ، وهو فرنسى اشتهر فى الدراسات الأثرية ، وقد نال ليسانس العلوم الشرقية من المعهد الكاثوليكى بباريس ، وعين أستاذاً به .

١٥ - « هنرى لامانس اليسوعى » : (١٨٦٢ - ١٩٣٧) : بلچيكى المولد وفرنسى الجنسية ، وهو من أوائل علماء الجامعة اليسوعية ببيروت ، وقد تنقل شرقاً وغرباً فيما بين سنتى (١٨٩١ - ١٨٩٧) فدرس اللاهوت فى إنجلترا ، وتولى إدارة التبشير فى بيروت ، وألف كتاب « مشاهير اليسوعيين » ، وكتب فى الإسلام : « مهد الإسلام » ، و« معاوية الثانى » ، و« مكة قبيل الهجرة » ، و« المعابد فى غرب الجزيرة قبل الهجرة » .

١٦ - الأب « بارجيس » (١٨٨٠ - ١٨٩٦) : أستاذ اللاهوت فى السوربون .

١٧ - « بوهل فرنفز » (١٨٥٠ - ١٩٣٢) : نال درجته العلمية فى اللاهوت عام ١٨٧٤ وأصدر « حياة محمد » سنة ١٩٠٣

١٨ - « جودى بيتر دى همر » (١٨٩٧ - ١٩٤٥) : نال درجته العلمية فى اللاهوت أيضاً عام ١٩٢٢

١٩ - « بدرسن » (١٨٨٣) التحق بالجامعة لدراسة اللاهوت عام ١٩٠٢ وقد اختتم دراساته بالجزءين الثالث والرابع من كتابه « إسرائيل » عام ١٩٣٤ وشرح آيات « رع سمرا » عند اليهود وله « الريبة عند اليهود » ، وازن فيه بين حياة العرب واليهود قديماً .

* *

● **وفى السويد :**

« هولومبوى » (١٧٩٦ - ١٨٨٢) : درس اللاهوت ، ونقح ترجمة التوراة بمساعدة اثنين من أساتذة اليهود عام ١٨٤٦ فاستخلص - عدا مهمته - جغرافية التوراة ، وخريطة لفلسطين ، وأبحاثاً فى مفردات التوراة وأبطالها نشرها فى مجلات ورسائل .

* *

● **وفى أسبانيا :**

١ - الأسقف « أورتيث » : ولد سنة ١٨٩٨ ، من الرهبانية الأوغسطينية .

٢ - الأب « كانيس الفرنسيسكانى » (١٧٣٠ - ١٧٨٩) : أقام فى فلسطين وسوريا ولبنان ، وعلَّم العربية لرهبان دمشق .

٣ - الأب « دى لاتوره » : توفى سنة ١٨١٩ ، وهو من مواليد « كونسوجرة » من أعمال « ماليطلة » وانضم إلى رهبانية « إيرونيموس » سنة ١٧٨٤

٤ - « كانيس الراهب الفرنسيسكانى » (١٧٣٠ - ١٧٥٩) : نزل فلسطين والشام .

٥ - « يوحنا بن داود الأسبانى » : فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى ، يهودى متنصر خلف « ريموند » على أسقفية طليطلة [١] .

٦ - الأب « خوسة لرخندى » الفرنسيسكانى (١٨٣٦ - ١٨٩٦) انضم إلى الرهبانية عام ١٨٥٦ وقصد إلى طنجة حيث أسس مستشفى ومدرسة وكنيسة ومطبعة عربية ، وهذه المؤسسات تشير إلى اتجاهات عمله التبشيرى .

٧ - الأب « فرانشيسكو سيمونيث » (١٨٢٩ - ١٨٩٧) : ولد فى مالقة وتخرج من جامعة غرناطة .

٨ - الأب « آسين بالاثيوس » (١٨٧١ - ١٩٤٤) : انتخب عضواً فى مجامع علمية عديدة منها المجمع العلمى العربى بدمشق [٢] .

---

(١) المستشرقون : ص ١٢٣ - الطبعة الثانية . (٢) المستشرقون ص ٥٩٥ - الطبعة الثالثة .

٩ - الأب « بنويلا اليسوعى » : ولد سنة ١٩٠٢ ، ولقب أستاذاً فى معهد الكتاب المقدس بروما سنة ١٩٤٠ [(١)] .

١٠ - الأب « فيليكس باريخا » اليسوعى : ولد عام ١٨٩٠ ، نال الدكتوراة فى اللاهوت سنة ١٩٢٨

١١ - الأب « مانويل ألونسو » اليسوعى (١٨٩٣) : دكتور فى الفلسفة واللاهوت من الجامعة البابوية بكوميتياس ، وسمى أستاذاً للاهوت فى جامعة نانيانى بإيطاليا .

١٢ - الأب « لوثيا نورومبيو » : ولد عام ١٩٠٩ ، وانتخب رئيساً عاماً للرهبنة الأرغسطينية .

١٣ - الأب « جوميث نوجاليس » اليسوعى : ولد عام ١٩١٤ ، وهو متخصص فى اللَّهجات المغربية البربرية .

١٤ - الأب « اكتبان إيبانيث » الفرنسيسكانى : ولد عام ١٩١٦ ، ومن آثاره العلمية : « يوحنا الشقوبى والقرآن » طبع بثلاث لغات عام ١٩٤٩ ، و« يوحنا الشقوبى والمسألة الإسلامية » وهو رسالته للدكتوراة فى ٣٧٤ صفحة .

١٥ - الأب « خيل بنومايا » : وهو من المعاصرين .

* *

● وفى البرتغال :

الأب « مانوين فيلاسى بواس » : وقد أنشأ فى دير يسوع للفرنسيسكان بلشبونة كرسياً للعربية ، وممن تخرجوا فى هذا الدير الأب « جان بدى صوصة » (١٧٧٤ - ١٨١٢) وهو عربى من دمشق ، والأب مانويل ريبيلو دى سيلفا » ، والأب « جوسه مورا » .

* *

---

(١) المستشرقون ص ٦١٠ - الطبعة الثالثة .

● وفى بولونيا :

الأب « ريلو » (١٨٠٢ - ١٨٤٨) : وهو من الآباء اليسوعيين ، وإليه يعود الفضل فى إنشاء جامعة القديس يوسف فى بيروت ، وقد تولى رئاسة الكلية الأوربانية فى روما .

❊ ❊

● ومن الإنجليز :

١ - « سيمون أكلى » (١٦٧٨ - ١٧٢٠) : وقد عين رئيساً لقساوسة أبرشية « واقيس » مقاطعة كمبردج سنة ١٧٠٥ ، ثم اختير أستاذاً للعربية بجامعة كمبردج .

٢ - « إدوارد بوكوك » (١٦٠٤ - ١٦٩١) : صار قسيساً عام ١٦٢٩ ، وفى عام ١٦٤٢ عين قسيساً لتشيلدرى ، وقد ترجم إلى اللاتينية تاريخ أبى الفرج العبرى وأهداه إلى ملك إنجلترا .

٣ - « كورتون » (١٨٠٨ - ١٨٦٣) · وهو من خَدمة المذهب البروتستانى .

٤ - « توماس هايد » (١٦٣٦ - ١٧٠٣) : راعى كنيسة السيد المسيح فى أكسفورد ، والمترجم الحكومى للغات الشرقية .

٥ - « باكون » (١٢١٤ - ١٢٩٤) : وهو راهب إنجليزى .

٦ - « ريشارد بل » : تخرج من جامعة أدنبرة باسكتلندا ، وهو مس رجال الدين ، قد ترجم القرآن عام ١٩٣٧ وأتمه عام ١٩٤١ محاولاً تأكيد العلاقات المسيحية بالنبى ، وكان غرضه من الترجمة تحليل السور المتفرقة ، ولهذا وضع لها قوانين النقد الأدبى كما هى الحال فى المؤلفات الغربية التى تتناول الأدب العالمى .

٧ - الأسقف « بريان والتون » (١٦٠٠ - ١٦٦١) : كان راعياً لكنيسة الملك - وجمع تبرعات لنشر التوراة بعدة لغات ، ورُسِم أسقفاً على « تشستر » عام ١٦٦٠

٨ - « ديكويل » : من إرلندا ، راهب زار مصر ولمع اسمه عام ١١٢٥م .

❊ ❊

● **ومن الألمان :**

١ - « توما الأكوينى » : (١٢٢٥ - ١٢٧٤) : وهو القديس المعروف الذى نقل الصورة الدينية لقصة الإسراء والمعراج إلى الأدب اللاتينى ، وهو من أسرة المانية الأصل ، تعلم فى دير « مونت كاسينو » للرهبان البندكتين فى ألمانيا .

٢ - « كوزجرتن » (١٧٨٢ - ١٨٦٢) : وقد عين فى عام ١٨١٤ معاوناً فى تدريس اللاهوت والفلسفة فى مدرسة « غريفسولد » ثلاث سنوات .

٣ - « البير الكبير » (١١٩٣ - ١٢٨٠) : وهو ألمانى عاش فى دير كولونى فترة ثم رشحه مطران ألمانيا أسقفاً على « ريجنبرغ » ثم انقطع إلى التأليف فى بولونيا وطبع له « توسيعات فى الفلسفة » و« قضايا فلسفية ولاهوتية » عام ١٤٧٣ - وهو دومينيكى الرهبنة .

٤ - « يوليوس ولهاوزن » (١٨٤٤ - ١٩١٩) : وهو مؤلف تاريخ اليهود ، ويعمل على تشويه مبادئ الإسلام .

٥ - « تيودورى نولدكه » : ألمانى معروف بعدائه للإسلام ، له كتاب عن القرآن وآخر عن التاريخ الإسلامى ظهر بالإنجليزية فى سلسلة تاريخ العالم .

* *

● **ومن الدانمارك :**

١ - « ج . ل . رسموسن » (١٧٨٥ - ١٨٢٦) : ، نال درجته العلمية فى اللاهوت عام ١٨٠٦ ، وفى عام ١٨١١ نال جائزة على رسالته التى رد فيها على « جبل قاف » من أساطير العرب ، وكأن هذه الأسطورة حقيقة إسلامية ، وإنما يبغى بهذا إظهار المعتقدات الإسلامية فى صورة مشوهة ، وقد مات شاباً .

٢ - « هـ . رسموسن » (١٨٥٣ - ١٩٠٤) : نال درجته العلمية فى علم اللاهوت عام ١٨٧٧ وقضى بقية عمره مدرساً .

٣ - « فان مهرن » (١٨٢٤ - ١٩٠٧) : وهو تلميذ الكاهن السياسى الدانماركى « مُنرج » .

* *

● **وفى إيطاليا :**

١ - « دافيد (داود) سانتلانا » (١٨٤٥ - ١٩٠٣) : ولد فى تونس وقد دعاه المقيم العام الفرنسى فى تونس لدراسة تدوين القوانين التونسية ، فوضع القانونين المدنى والتجارى معتمداً على قواعد الشريعة الإسلامية ، ومنسقاً على غرار القوانين الأوروبية (١) .

٢ - « يحيى عمان » : واحد من ثلاثة إيطاليين قدموا اللُّغة العربية إلى إيطاليا ، وهو من المعاصرين ، ولا يزال حريصاً على متابعة الإبداع العربى ليقدمه فى محاضراته لطلبته فى جامعة نابولى بإيطاليا .

ولد فى القاهرة سنة ١٩٢٢ ، ثم تركها ليستقر فى إيطاليا عام ١٩٥٠ . ولا يزال بها ، يشغل حالياً (١٩٩٢) منصب رئيس كلية الدراسات الإسلامية بجامعة نابولى ، وهو أيضاً استاذ اللُّغة العربية وآدابها بنفس الجامعة .

وحين كان بالقاهرة صغيراً قدمت له أمه - وكانت مدرسة بالمدراس الإيطالية - جريدة الأهرام ليقرأ العناوين وبالتدرج يقرأ الموضوعات ، وأحضرت له مدرساً للغة العربية فدرس له كتاب قواعد اللُّغة العربية للرشيد الشرطونى ، ومع الاختلاط بالمصريين استطاع أن يهضم اللُّغة العربية .

وفى جامعة نابولى ثلاث كليات تهتم باللُّغة العربية : وهى كلية الدراسات الإسلامية ، ثم كلية الآداب ، وكلية العلوم السياسية ، وبكل منها قسم للدراسات العربية ، وهى تشترط على طلبتها دراسة اللُّغة العربية ، وإن كانوا قِلّة لعدم وجود وظائف حكومية أو غيرها تتطلب اللُّغة العربية ، وقد تقدم « يحيى عمان » إلى الجهات المعنية بمصر بمشروع ترجمة بعض كتب الأدب العربى يتفق عليها بين بعض المهتمين بالأدب من مصر وإيطاليا .

٣ - « نللينو » : وهو أحد المهتمين بالأدب العربى ، وقد أنيط به تدريس الأدب العربى قديماً بجامعة القاهرة .

---

(١) المستشرقون ص ١٦٠

٤ - « جابرييلى » : وقد أصبح فيما بعد رئيساً لأكاديمة « لينشاى » بروما ، وهى أكبر أكاديمية علمية وأدبية فى إيطاليا .

* *

● **وفى سويسرا :**

الأب « زيموفيه » (١٨٤٨ - ١٩٢٨) : من اليسوعيين .

* *

● **وفى المجر :**

١ - « جولد زيهر » (١٨٥٠ - ١٩٢١) : وهو من شر مَن حرَّفوا فى الإسلام وتاريخه ، ومن أبحاثه التى نشرها بالألمانية : « الإسلام » ، كما ترجم « مهدى الموحدين » لمحمد بن تومرت ، وله بالفرنسية رسالة فى « السامرى » ، و« عجل الذهب » ، ورسالة « الحسين بن منصور الحلاج » نقد فيها كتاب « الطواسين » لماسينيون وذلك عام ١٩١٣ ، وله بالألمانية « الجدل عند الشيعة » (ليبزغ عام ١٨٧٤) والأساطير عند اليهودية ، وله كتاب الفقه العربى فى مجلدين ، كما نشر كتاب المعمَّرين للسجستانى .

٢ - الآب « كمسكو » : شغل مركز « جولد زيهر » الخالى عام ١٩٢٧

٣ - « يليوس جرمانس » (١٨٨٤) : وهو تلميذ « جولد سيهر » و « فامبرج » ، ولكنه أسلم فى الهند ، وألف كتاب « الله أكبر » .

* *

● **وفى بلغاريا :**

الأب « سباستيان رونزفال » (١٨٦٥ - ١٩٣٧) : وهو يسوعى الرهبنة .

* *

● **وفى النمسا :**

١ - الأب « كلاينهانس » : ولد سنة ١٨٨٢ ، وهو من الفرنسيسكان .

٢ - الأب « ياهن » (١٧٥٠ - ١٨١٦) : وثقافته قد اقتبسها من مؤلفات المستشرقين ابتداءً حتى تعلم العربية عنهم فأخذ يقرأ بها (١) .

٣ - « زونتايمر » : وهو طبيب بالجيش ، وقد أرسلته النمسا إلى السودان فى فبراير عام ١٨٤٨ أول حملة تبشيرية كاثوليكية بدعوى العمل بين الوثنيين ، وعندما قسم الإنجليز السودان قسمين يفصلهما خط عرض ١٢ ، صار جنوب السودان مغلقاً لحساب التبشير بالمسيحية ، ومنذ سنة ١٩٢٦ كان للتبشير حصة من ميزانية السودان الرسمية (٢) .

❊ ❊

● **وفى هولندا :**

١ - « جوزيف هوبين » : ولد سنة ١٩٠٤ ، تربى فى مدارس الآباء اليسوعيين وانضم إلى رهبانيتهم .

٢ - « كريستيان سنوك هوبرونجه » (١٨٥٧ - ١٩٣٦) : أستاذ العربية فى بجامعة ليدن سنة (١٩٠٧ - ١٩٢٧) وهو خبير حكومة هولندا فى الشئون الإسلامية الحديثة (٣) .

٣ - ومن أقدم رجالها الراهب الهولندى « ح . وسل » (١٤٢٠ - ١٤٨٩) : وله بحث عن اشتقاق الإنجيل من التوراة ، وبحث عن علوم العرب .

٤ - « فنسنك » (توفى سنة ١٩٣٩) : عمل أستاذاً للغة العربية بجامعة ليدن وهو من آشهر المستشرقين الهولنديين بسبب عنايته بالمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ، ويرجع تاريخ فكرة المعجم إلى سنة ١٩١٦ ، وقد خرج المعجم فى ثمانية أجزاء ظهر الجزء الأول منها سنة ١٩٣٦ ، أما الأجزاء

---

(١) المستشرقون ص ١٦٦ الطبعة الثانية ، والطبعة الثالثة ص ٦٢٧

(٢) حقائق عن التبشير ص ٧٤ نقلاً عن التبشير والاستعمار .

(٣) المستشرقون ص ١٤٧

الأخرى فظهرت بعد وفاة « فنسنك » ، وكان ظهور الجزء الثامن والأخير فى عام ١٩٦٩ ، وقد أشرف على إخراج المعجم بعد وفاة « فنسنك » عدد من المستشرقين .

قال الدكتور أحمد عبد الحميد غراب [(١)] : « لا شك أن المعجم مرجع هام ، أما أنه مرجع نافع أو ضار ، فهذا يتحدد بالهدف من استعماله ، فالمسلم يستعمله ليرجع إلى أحاديث الرسول ﷺ للاهتداء بها والعمل بمقتضاها والدعوة إلى اتباعها ، وبهذا يكون مرجعاً نافعاً .

« أما المستشرق فيمكن أن يستعمله كأداة قريبة المنال للوصول بسرعة وبسهولة إلى الأحاديث ، واستخدامها للطعن فى القرآن والسُّنَّة والعقيدة والشريعة ، وفى الإسلام كله .

« ولا شك أن فكرة وضع المعجم من قبل « فنسنك » - كانت لتحقيق هذا الهدف ، كما يتضح من ظروف وضعه وتمويله واستخدامه ، وكما يتضح بوجه خاص من الكتاب الذى ألفه « فنسنك » إبَّان اشتغاله بإخراج المعجم ، وهو كتاب « العقيدة الإسلامية » .

* **تمويل المعجم** : اشترك فى تمويل هذا المعجم مؤسسات حكومية رسمية معروفة بنشاطاتها فى خدمة الاستعمار الغربى ، وفى حرب الإسلام والمسلمين .

ومنها - على سبيل المثال - الأكاديمية الملكية الهولندية التى شملت المشروع برعايتها ، وبتقديم المنح المالية بصورة مستمرة ، وكذلك الحكومية الهولندية نفسها ، التى قدمت للمشروع مساعدات مالية « جديرة بالاعتبار » - على حد تعبير « فنسنك » نفسه - وكذلك الأكاديميات الرسمية فى كل من بريطانيا وفرنسا وأمريكا وإيطاليا والدول الاسكندنافية ويوغسلافيا .

ولا يقول عاقل : إن هذه المؤسسات قامت بتمويل المشروع خدمة للعلم

---

(١) أستاذ بجامعة الملك ابن سعود بالرياض .

لوجه العلم ، أما انتفاع المسلمين بالمعجم فقد جاء عرضاً ، ولم يكن قط مقصوداً من المستشرقين أو مموليهم .

وهذا يذكرنى بإنشاء المستعمرين الأوروبيين لخطوط السكك الحديدية فى مستعمراتها فى إفريقيا وآسيا ، فلا شك أنها أنشئت لاستنزاف ثروات الشعوب المستعمرة ، ولنقلها إلى الدول الأوروبية بأسرع طريق ممكن ، ولكنها أفادت أهالى المستعمرات عندما قدروا على الانتفاع بها : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ ﴾ (١) .

٥ - الأب « كريستيان فان نيسْبِمنْ فون سيفيناير » : ولد سنة ١٩٣٨ ، وانضم إلى الرهبانية اليسوعية صغيراً ، وتلقى تعليمه العالى فى جامعات بيروت وعين شمس ونيجميجن .

٦ - « ورنر » (١٦٠٨ - ١٦٦٥) : كان سفيراً لهولندا فى الآستانة عام ١٦٥٥

* *

● وفى الدانمارك :

« دى فونتناى » (١٨٨٠) : عين وزيراً للدانمارك بإيسلندة سنة ١٩٢٤ ، وله كتب عن تاريخ العرب وآسيا الشرقية - وثقافة آسيا الشرقية ، أصدره سنة ١٩١٢ ، وله مقال عن تاريخ الشرق الأدنى نشره عام ١٩١٩

* * *

---

(١) الأنفال : ٣٠

الأغراض السياسية

جاءت الصلة بين فرنسا والعرب فى وقت مبكر ، ففى عهد « الوانين » ملوك فرنسا غزا العرب البلاد واستولوا على « كاراسكون ، ونيم ، وليون ، وماكون ، وغرينويل ، ومارسيليا ، ونيس ، وفريجورى » سنة ٧٣٧ م ، كما احتلوا « ناريون » ، ثم بعد فشلهم فى حصار « تولوز » فى عام ٧٢١ م تابعوا سيرهم واكتسحوا « أوتن » ، وغماليس وأعلى نهر الرون ، واللُّوار ، ثم وادى « دوفينه » و « برغونيا » و « الريفييرا » .

ويضيف « سيديو » إلى هذه الفتوح فتح العرب « آتون ، وآفينيون ، وبوردو » ، ولم يقف فى وجه العرب بعد ذلك محارب إلا فى معركتى « تور » و « بواتييه » ، ولم ينسحب العرب من فرنسا إلا بعد قرنين متواليين تركوا خلالهما كثيراً من آدابهم وفكرهم ، وتاريخ بلادهم وأحوالها ، وطبيعتها ، ولم يكن بين العرب وفرنسا كبير غربة عندما كان للمسلمين السيادة العالمية أو الوزن السياسى والاجتماعى الراجح دولياً . ولذا كانت الضرورة ماسة إلى تعلم الفرنسيين لغة أصدقائهم أو خصومهم العرب . فأوفدت حكومة فرنسا لفيفاً من بنيها إلى صقلية والأندلس لتعلُّم العربية ، ثم أنشأت مدارس « ريمس » و « مونيليه » وغيرهما ، وقد وُضع فى الاعتبار أن تكون العربية من أهم مواد الدراسة فيها ، فلما أنشئت جامعة باريس سنة ١٣٢٥ م ، كان لهذه اللُّغة قسم من أقسامها ، ولما وَلى لويس الحادى عشر الملك أمر بتدريس « أرسطو » بشرح الفيلسوف الإسلامى ابن رشد ، وكان ذلك عام ١٤٧٣ م ، بينما كانت جامعة لوفان البلچيكية تدرس قانون ابن سينا فى الطب .

وفى عام ١٥١٩ استقدم « فرانسوا الأول » الأسقف « كيستنيانى » لتدريس اللُّغتين العربية والعبرية فى « ريمس » فأعاد إلى مدرسة ريمس مجدها الأول .

وقد أرسل « فرانسوا الأول » فى عام ١٥٣٤ « ويلهام بوستل » الفرنسى الأصل إلى مصر ، ثم إلى استانبول حيث تعلم العربية والتركية والعبرية ، وألمّ بعض الشيء باللُّغة الحبشية ، ولما عاد إلى وطنه عيَّنه الملك أستاذاً للغات الشرقية فى جامعة باريس عام ١٥٣٧ ، فوضع كتاباً فى النحو العربى ، قدَّم له بأهمية تعلم العربية للعملية التنصيرية ، وختمه بترجمة الفاتحة باللاتينية (١) .

وفى عام ١٥٣٠ أنشأ معهد فرنسا بباريس وجعل من أقسامه قسماً للُّغة العربية جدده « هنرى السادس » سنة ١٥٨٧

كما أنشأ البابا « غريغوريوس الثالث عشر » المتوفى سنة ١٥٩٥ المدرسة المارونية فى روما وأعد لها مطبعة لنشر المخطوطات العربية ، فحذت فرنسا حذوها وأنشأت مطبعة عربية طبعت فيها أول الأمر التوراة سنة ١٦٤٥ ، واهتم « لويس الثالث عشر » بنشر المخطوطات التى لدى الباب العالى ، ورأى « كولبير » وزير « لويس الرابع عشر » أن الحالة باتت بحاجة إلى أناس يجيدون العربية بأصولها قراءة وكتابة . فألف بعثة عرفت باسم شباب اللغات ، بقرارات رسمية وقعها الملك فى سنوات (١٦٩٩ ، ١٧١٨ ، ١٧٢١) فتعلم الشباب الفرنسى فى مدارس باريس العربية على نفقة الملك ، ثم أرسلوا إلى القسطنطينية لإتمام دروسهم فيها ، فإذا أتموها أُلحقوا بالسلك السياسى أو انتُدِبوا أساتذة للُّغات الشرقية بباريس .

وفى عام ١٦٠٩ أنشىء كرسى خاص للدراسات الشرقية - وبصفة خاصة العربية - فى جامعة « هامبورج » فى ألمانيا ، وقد اتخذ « يعقوب كريستمان » - وهو تلميذ « ويلهام بوستل » فى العربية ، من دراسة العربية وسيلة لنشر المسيحية فى الشرق العربى ، ولكن « يوسف سكاليجر » (١٥٤٠ - ١٦٩٠)

---

(١) رابح لطفى جمعة · القرآن والمستشرقون ص ٦ - طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

وضع منهجاً جديداً لتحقيق أهدافه ، فبدأت الدراسة الجادة لتاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية ، أو ما نطلق عليه الآن « الاستشراق »

وفى عام ١٦٩٠ أُحرقت المطبعة ولكنها أُعيدت ، ونقلها « نابليون » إلى فرنسا وهى التى اصطحبها معه إلى مصر فى حملته ، وقد ظلت مطبعة « مدسيس » أدق مطبعة طبع فيها المستشرقون الإيطاليون تصانيفهم مثل « امارى » و« جويدى » و« بارلى » .

ثم أنشأ « دى بريف » مطبعته الحجرية فى روما لطبع مئات المخطوطات العربية التى عثر عليها عندما كان سفيراً لفرنسا بالقسطَنطينية ، وتنشر ما يريد نشره من مخطوطات غَنِيت بها إيطاليا التى اشتهرت فيها - بالمخطوطات النادرة - مكتبات « أمبروزيانا » و« الفاتيكان » و« بالاتينا » ، وعلى سبيل المثال نجد فى مكتبة أمبروزيانا (١٤٠٠) مجلد مخطوط وعدة مصاحف أثرية .. كما نشر الأسقف « نابيو جوستينانى » الزبور بأربع لغات منها العربية عام ١٥١٦ وقد طبعه فى مطبعة البندقية .. وقد أنفق هذا الأسقف ثروته فى جمع المخطوطات العربية .

ثم نهضت فرنسا راعية الكاثوليكية فنافست إيطاليا (الأم الأولى للمسيحية) فى الطباعة العربية ، وأنشأت مطبعة عربية لها عام ١٦١٣ ، أى بعد أن عرفت إيطاليا الطباعة العربية بأربعة عشر عاماً . ثم أسس الفاتيكان المدرسة المارونية ، ونقل طُلابها وأساتذتها خير التصانيف العربية ، فازدهر الاستشراق فى إيطاليا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، واستقام أمره وزاد ازدهاراً فى القرن التاسع عشر ، وواضح من كل هذا أن الاستشراق عمل « كنسى » فى ذروة الأعمال التى تنفق عليها الكنيسة . كما أنه فى نفس الوقت فى ذروة الأعمال التى تهتم بها الدول ذات الأغراض والمطامع السياسية

---

(١) القرآن والمستشرقون للأستاذ رابح لطفى جمعة ص ٦ - طبع القاهرة (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية » .

والاقتصادية ، وقد قدمنا قائمة ببعض أعلام المستشرقين الذين تربوا فى مدارس الكنيسة وأديرتها ، وكانت لهم أعمالهم ومناصبهم الدينية والتبشيرية المستقلة [١] .

وللغرض ذاته أمر « إسكندر الأول » بإنشاء مدرسة اللُّغات الشرقية الحية فى أوائل القرن التاسع عشر ، وكان لهذا كله أثر فى نجاح السياسيين الفرنسيين بالبلاد العربية ، كما كان له أثره فى إخصاب الأدب والفكر الفرنسى .

وقد اعترف بتأثره بالثقافة العربية من الأدباء كل من « ڤولتير » و « ڤيكتور هيجو » و « برناروچيه » و « شاتوبريان » الذى تأثر برحلة ابن الصائغ فى كتابه « لامارتين إلى لبنان » سنة ١٨٣٢

كما اعترف « منتسكيو » - من علماء الاجتماع - بتأثره فى فلسفته بابن خلدون ، ومن بعد « منتسكيو » جاء مَن نهج منهجه مثل « ميشليه » و« وجيرو » و« تيارس » و « تياريه » .

ويذكر « ريتشارد ب . ميتشيل » فى دراسته التى نال بها الدكتوراة عن « الإخوان المسلمين » والتيار السَلَفى عند رشيد رضا أن هذا الاهتمام بالتاريخ العربى والإسلامى هو جزء من السياسة الأمريكية العليا ، وقد بدأت الحكومة الڤيدرالية تهتم بذلك منذ الخمسينيات ، وظهر بأمريكا برنامج « التعليم من أجل الدفاع القومى » أى تعلُّم لغات وأحوال الدول الأسيو إفريقية للانتفاع بها فى خدمة السياسة الأمريكية ، وربما كان الاستشراق ستاراً للتجسس [٢] .

وللغرض ذاته فإن الصهاينة يدعمون الإرساليات التبشيرية فى إفريقيا وبلاد المسلمين ، ليس حباً فى المسيحية ، ولكن كرهاً للإسلام [٣] ، ويقيمون فى الجامعة العبرية دراسات شرقية وإسلامية ، لتكوين رجال وجيل قادر على

---

(١) انظر ص ١٠٧ من هذا الكتاب .

(٢) من بحث اللواء شيت خطاب بالمؤتمر الثامن لعلماء المسلمين المنعقد بالأزهر عام ١٣٩٧ هـ .

(٣) الإخوان المسلمين : لميتشيل ص ٧ من تقديم صلاح عيسى - الطبعة العاشرة - القاهرة سنة ١٩٧٧

خدمة المقاصد السياسية العليا للصهيونية ، فى مجالات الغزو الفكرى والاقتصادى والسياسى .

ويقول الأسقف « دى ميسفيل » وكيل إدارة البعثات التبشيرية فى الشرق بروما :

« إن الهدف الذى يتعين على المبشر تحقيقه .. هو تحطيم قوة التماسك الجبارة التى يتميز بها الإسلام - أو على الأقل - إضعاف هذه القوة ، وأن على المبشر أن يدرس ويتفهم « قرآن محمد » ليعرف كيف يذكر الناس فى الشرق بأنه كانت هناك مدنية سابقة على الهجرة ، وأنها كانت مدنية مسيحية ، وأن يستخدم الأسلحة السلمية التى تأسر النفوس ، وفى مقدمتها الصدقات والمعونات ، وإقامة المعاهد والمدارس والمؤسسات الخيرية ، وهى كلها مؤسسات دينية » .

وفى وضوح يقرر الكاردينال « بوديار » أسقف باريس وغيره امتزاج الحركة التبشيرية والحروب الصليبية بالقصد السياسى الدينى فيقول « بوديار » : « وحسبنا أن تكون الأعلام التى ترفرف على الشرق تحمل الصليب فى طياتها .. وكفى » .

ويقول اليسوعيون : « ألم نكن نحن ورثة الصليبيين ، أوَ لم نرجع تحت راية الصليب لنستأنف التسرب التبشيرى والتمدين المسيحى ، ولنعيد - فى ظل العلم الفرنسي وباسم الكنيسة - مملكة المسيح » ؟ (١) .

ويقول المستشرق الفرنسى « باتريك غيوم » فى مجلة « المستقبل » التى تصدر فى باريس :

« من المعروف أن الاستشراق ظهر فى القرن السابع عشر ، ومن المعروف كذلك أن مجال دراسة المستشرقين وقتئذ كانت أوسع جداً مما هى عليه الآن ،

---

(١) « التبشير والاستعمار فى البلاد العربية » للدكتورين مصطفى الخالدى ، وعمر فروخ ص ١١٥ - ١١٦ ، الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٣ ، وقد ولد عمر فروخ فى بيروت عام ١٩٠٦ وتوفى فى ١٩ يناير ١٩٨٨ عن أكثر من ستين كتاباً .

أقصد أنها أوسع بمعنى جغرافى فقط ، فكلهم أو أكثرهم كانوا يعرفون اللُّغات الفارسية والعبرية والهندية والتركية . . وبنفس الوقت كان مجال اهتمامهم أضيق مما هو الآن ، لأنهم كانوا يهتمون بالأدب والتاريخ كما كانوا يفهمونه آنذاك . . وهناك ظاهرة ثانية تتعلق بالإطار السياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى نشأ الاستشراق فيه ، فهو قد نشأ فى نفس الوقت مع الإمبريالية والاستعمار ، وله إذن اتجاه سياسى ، وله وجهة نظر مسبقة عن الثقافات والحضارات الشرقية .

ولو لاحظنا تاريخ الأدب المقارن - الذى بدأ أوائل القرن التاسع عشر فى ألمانيا - لوجدنا أن له علاقة بتوسع الغرب السياسى والاغتصابى الذى وصل فى السبعينات من القرن التاسع عشر نفسه إلى معدَّل ٢٧٨ ألف ميل مربع فى العالَم ، ولقد حاول « إدوارد سعيد » أستاذ الأدب الإنجليزى والأدب المقارن بجامعة كولومبيا الأمريكية إبراز هذه العلاقات بين الظواهر من خلال تحليل النص الأدبى » [١]

* * *

(١) « الفيصل : العدد ٣٣ - ربيع الأول ١٤٠٠ هـ - ص ١٤

الاستشراق والسياسة

وقد صدر كتاب فى ثمانين صفحة للكاتب المغربى « سالم يغوت » بعنوان « حفريات الاستشراق » أو « اركيولوچيا المعرفة » ، وقد استهدف الباحث إثبات أن الاستشراق ليس عملية سياسية استعمارية ، وإنما هو تعبير عن مجال معرفى ، أو « ابستيمى » معين أفرزه الفكر الغربى فى مرحلة معينة ، ساد فيها الاعتقاد بضرورة هيمنة تاريخ واحد ، مثلما أضيفت فيها السمة الغربية على « التطور » أياً كان ، ويندرج ضمن ذلك المجال « التصور الماركسى » نفسه ، القائل بأن « الرأسمالية نظام إنتاجى لا بد أن يتوسع ليثور ، ويقوض أنماط الإنتاج السابقة على الرأسمالية فى أطراف العالم الرأسمالى ، إنها المركزية الأوروبية إذن ، ذات الأصول التطورية النزعة » (ص ١٦) .

● **فى أسبانيا :**

المستشرق الأسبانى « سانشيس البرنيث » أحد قادة الجمهوريين إبَّان الحرب الأهلية الإسبانية ، يزعم أن تأخر إسبانيا عن ركب الحضارة الأوروبية ناشىء عن دخول المسلمين وإقامتهم بها (ص ٤٢) .

❊ ❊

● **الماركسية وتناقضها السياسى :**

وقال سالم يغوت : الدليل على أن الاستشراق ظاهرة علمية ناشئة عن تمركز أوروبا حول نفسها فى فترة معينة ، هو أن « ماركس » و« إنجلز » ذاتهما أيدا غزو أمريكا للمكسيك سنة ١٨٤٩ ، وأيدا - قبل ذلك - احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ ، وفى الفترة نفسها عاب « ماركس » على روسيا الأوروبية تدخلها فى شئون بولونيا الأوروبية عام ١٨٦٣ (ص ٥٦ - ٥٧) .

❊ ❊

• ما الواقع ؟

الكاتب يتجه فيما يستشهد به إلى ما يخالف الواقع ، فليس صحيحاً تلك الدعوة الغربية القائلة « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » ، فكما أن ضوء النهار يبدأ مولده ومسيرته من المشرق ، فكذلك نور الحضارة ينبثق من المشرق متجهاً نحو المغرب ، ويظل فى الدوران كل من النهار والحضارة حتى يعود كل منهما إلى مشرقه .. ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (1) ، والجنس البشرى نفسه إنما كانت جذوره فى المغرب وتفرعت فروعه إلى أقصى المشارق والمغارب ، حتى قيل : « ما من كائن بَشرى إلا وأصله عربى ، أو أصله عربى يمنى » .

وهل عندما أراد الجنرال « فرانكو » (المتوفى سنة ١٩٧٥) القضاء على فساد الجمهورية فى أسبانيا اعتمد على غير المغرب العربى فى حركته التحررية مثلما اعتمد أجداده على طارق بن زياد وموسى بن نصير قبل نحو ألف عام ، وكما تعتمد أمريكا وانجلترا - الآن - بل وكل بلاد أوروبا فى بنائها الذاتى والصناعى والعلمى على الذات الشرقية بلحمها ودمها ، وعقلها واقتصادها .

كما أنه ليس الغرب الأوروبى فى مجمله واحداً ، بل إنه عناصر فيها شىء من التمايز العنصرى : السكسكون ، والجرمان ، والتركمان ، والإغريق . . . وبين ذلك خلق كثير .

❊ ❊

• دمج الشعوب :

ظهرت بين المستشرقين دعوة إلى دمج شعوب المغرب العربى فى الحضارة الأوروبية ، ويُنسب ذلك إلى « كارلمروفر » وهكذا ردد المطبوعون بثقافة الغرب ، - مثال الخديو إسماعيل : مصر قطعة من أوروبا ، وقال طه حسين : « يجب أن نأخذ كل ما فى الغرب مما نستحسن أو نستقبح ولا ننتقى » لفلسفة يراها وراء رأيه .

❊ ❊ ❊

---

(1) آل عمران : ١٤٠

بعض العمليات السياسية الاستشراقية

● **فى القضية الفلسطينية :**

من خلال اللُّغة ، ومن خلال الفن والفلسفة والأدب والفكر والصحافة ، تتحرك كل قوافل الاستشراق لخدمة السياسة الاستعمارية الغربية ، التى تتبنى وجود كيان إسرائيلى أو جسم غريب فى هيكل البناء العربى . فما وقعت نكسة يونيه ١٩٦٧ ، حتى انطلقت حناجر المستشرقين المعنيين بالشرق العربى وحناجر تلامذتهم ، الذى يعيشون عالة على ما تخطه أقلام هؤلاء المستشرقين الأجانب ، يروجون للتعايش السلمى بين الذئب الإسرائيلى والحَمَل العربى ، أو إلى إيجاد ناد للصداقة العربية الإسرائيلية ، أو تعاون بين الذهب العربى والخبرة اليهودية ، أو إلى تحييد مصر عن كل شىء إلا المصلحة المصرية ، أو التفرقة بين الإسرائيلى والصهيونى ، أو بين عصابة « مناحم بيجين » ، وباقى العصابات الصهيونية التى اشتركت فى طرد العرب من فلسطين والاستيلاء على أموالهم وديارهم . .

وكل دعوى وراءها فلسفة تبررها . . ولها بالفكر الأجنبى الاستشراقى صلات .

* *

● « **نيفل باربر** » :

كان رئيس القسم العربى فى الإذاعة البريطانية ، وهو من أوائل مَن تنبئوا بما سيلحق بالعرب من الظلم فى حال تقسيم فلسطين ، وله فى ذلك كتاب « نيس دومينس » وقد عمل فى القاهرة مديراً لمكتب الإذاعة البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٥٠

* *

● **تخطيط مشروع قناة السويس :**

قبل الحملة الفرنسية قدم إلى مصر مجموعة من الرهبان درسوا المشروع بكل أبعاده ، وحين جاءت حملة « نابليون بونابرت » إلى مصر عادت إلى دراسة المشروع ، وقررت خطورته من حيث إن ماء البحر الأبيض سيغرق مصر ، ثم أعيد النظر فى مشروع الرهبان واعتمد .

* *

● **الإلهاء بالمدائح النبوية :**

استغل الاستعماريون ما كتبه المادحون من المستشرقين - لمحمد ﷺ ولدينه - أعظم استغلال ، إذ جعلوا منه ملهاةً يشغلون بها المفكرين فى السياسة الإسلامية ، وخدَّروهم بالحديث عن هذه الأمجاد أو البطولات كيلا يفكروا فى الوسائل العملية لإنقاذ المجتمع الإسلامى من براثن المستعمر .. تماماً كما فى العصور الوسطى عندما نشرت قصص ألف ليلة وليلة ، والزير سالم ، وعنترة بن شداد ، وريا وسكينة ... وغيرها مما يمتص طاقات المسلمين ويلهيهم بلذة ونشوة وقتيتين ، لا يفيق منهما المرء إلا ليبحث عن المخدر مرة أخرى .

* *

● **أدب الفخر بالإسلام :**

وقد نشأ أدب الفخر والتمجيد للإسلام ونبيِّه ورجاله فى القرن التاسع عشر ، وانتفع به الاستعمار فى إلفات المسلمين عن حاضرهم المرير ، وعن الخطوات العملية كالتربية والتجميع والتنظيم لحركة إسلامية عملية تتناول تغيير المفاهيم السائدة والمخدرة ، حركة تصرفنا عن النحديق الأبله لحضارات الغرب ومفاهيمه من شيوعية ، أو رأسمالية ، أو ديمقراطية ، أو غير ذلك من الشعارات والإيديولوچيات ، وعن التغنى المغرور أو البائس بذكر ما كان للآباء والأجداد .. إلى ما يجب علينا الآن ، وعلى عجل من تجميع للشعوب على فكرة عملية ، واتجاه بها فى طريق إنجازىّ .

وقد يثير المستعمر الصراع بين عشاق الماضى المعتزين به من المسلمين ، وبين الكافرين به المؤمنين بالغرب وبما فيه . . وفى دوّامة الصرع الذى يؤجج نارها المستعمر بين آونة وأخرى تتبدد طاقات هذه الآمة ، فتبقى شعوبها هزيلة كأنها خُشب مسنَّدة ، بل تُمسى آلاتٍ فى يد المستعمر يستغلها كما شاء .

* *

● الجــدل :

وربما يثير المستعمر بعض القضايا ويُسخِّر الصحف والإذاعة وتلامذته الذين أولاهم نعمته لنقاشها ، كقضية الشعر الجاهلى : أمنْحُولٌ [1] هو أم موثوق بمصادره ؟ وهل انتشر الإسلام بالسيف أم بالبرهان والاقتناع ؟ والإسراء بالروح أم بالجسد ؟ وهل انشق صدر النبى حقيقة ؟ . . .

ومن هذا القبيل ما أثير فى الندوات التى عقدتها الجامعة اليسوعية فى الكويت على لسان الأب « الأر » أو الدكتور « أسعد على » حول المساواة بين القرآن والإنجيل الحالى فى القيمة العلمية لمحتواهما ، ثم المساواة بين الملل ، ثم تفضيل الماسونية أو اللادينية على كل الملل ، إذ ينقل أسعد فى كتابه « فن المنتجب العانى » عن الشاعر الفرنسى « چان مارى » قوله : إن اللادين لا يعنى « ضد الدين » فهو فى الواقع درجة من الدين أعلى ، تنهدم فيها العقائد ، ويبقى من الدين خير ما فيه . . يجب أن نتخلص من كل تعصب دينى . .

ثم يقول أسعد على : « هذا اللادين - يعنى مرحلة هدم العقائد - هو الدين الحقيقى الذى أراده الله سبحانه وتعالى فى كتبه المنزَّلة » .

وعجباً لتلامذة المستشرقين أن يتصوروا ديناً بلا عقيدة ؟ إن البرَّ وهو اسم جامع لجميع معانى الخير يتمثل فى مثلث صاعد ، قاعدته العقيدة الصادقة وضلعاه العمل الصالح والخُلُق الفاضل .

---

(١) منحول : نظمه شاعر ونسبه إلى شاعر آخر كذباً .

بل ويهمز « أسعد على » - وهو الشيعى العلوى - فلاسفة المسلمين مثل ابن تيمية ، الذى هاجم الشيعة فى عصره حين لم ينهضوا لملاقاة الأعداء ، وذلك الاندفاع التعصبى من شر ما يُطعنَ به أى بحث علمى ، ولذلك نجد المستشرق الذى يحترم نفسه لا يتورط فى هذا كـ « نقولا زيادة » الذى أنصف ابن تيمية فى كتابه « دمشق فى عصر المماليك » إذ يقول :

« على أن الرجل الذى ارتفع إلى مستوى القضايا ، وحاول معالجتها بمعرفة وصراحة ومواجهة ألمعية هو ابن تيمية ، ولم تكن كتاباته هامة فحسب ، بل إن حياته كانت مثالاً يُحتذى ، فلم يكن يأبه بالصعاب متى اقتنع بأنه على حق ، ولقد ذاعت شهرة دروسه ، لا بين السُّنَّة فحسب ، ولكن بين الشيعة الذين حضروا دروسه .

« ولقد أثار على التصوف والتقليد حرباً عواناً جعلته يُعتبر مصلحاً ، أما بالنسبة لحرب المغول المسلمين ، فلقد كان موقفه واضحاً ، وهو يوجب محاربتهم لتصرفهم الوحشى مع المسلمين فى مدن العراق وشمال سوريا ، إذ وضعهم فى مصاف المجرمين ، ومن ثَمَّ فقد حق عليهم القتال .

« وكان أكثر مَن نصرهم من الشيعة ، ولم يكن ابن تيمية معجباً بهم ، لذلك رافق حملة أرسلت للهجوم على معاقلهم فى جبال سوريا ولبنان » .

ثم يقول : « وابن تيمية مثل حسن لتبين أثر العالم المتين الخُلُق فى شئون الدولة والمجتمع ، وهو فقيه العصر غير منازع » .

كما يروج « أسعد » فى كتاباته أحاديث موضوعة يزعم أنها صحيحة ومتفق عليها وهى مكذوبة ، كقوله : « أنا مدينة العلم وعلىٌّ بابها » ، وكقوله : « رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » وهو حديث قال فيه الحافظ العراقى : إنه قول مأثور لإبراهيم بن عبلة ، وهو ليس حديثاً .

* *

● الفراغ العقلى :

ويعمد المستعمرون إلى إيجاد فراغ عقلى فى البلاد الإسلامية والشرقية ليملأوه بما شاءوا حتى إن الأمريكان لينشرون الشيوعية التى يحاربونها - أحياناً - فى صورة من الصور - لتملأ قلوب المسلمين بشىء غير الإسلام ، كما يسهل على رواد الاستعمار والصهيونية بعد ذلك اقتلاع الشيوعية ذاتها التى أمست بديلاً للمفهوم الإسلامى ثم يُدخلون المسيحية مكانها ، أو على الأقل يزرعون الولاء لأمريكا .. فذلك حسبها .. وإنه لنجاح كبير أن تصل بهذا الأسلوب إلى أن تجعل من الناس عبيداً وتكون لهم إلهة ؟ ... أن تجعل منهم خدماً وآلات وتكون لهم المدير المستغل ..

* *

● لجان المتابعة :

ومن أجل شغل المسلمين عن واجبهم العملى شُكِّلت لجانٌ لقراءة كل ما يُنشر لدى الشرقيين - وبخاصة كتابات الإسلاميين - ودراسته ، لتتبُّع اتجاهات الكُتَّاب وكشف المناخ الذى وُلِدت فيه هذه الأفكار ، وتعرُّف المنطلق الذى تتوجه إليه ، ثم رسم الخطة لحربها بأساليب « الصَّرف والإلهاء » فى أكثر الأحيان ، أو بالسجون والإعدام حين لا تُجْدِى [(١)] وسيلة من وسائل الصرف والإلهاء والإغراء .. ولعلنا لم ننس كيف تخلَّص الاستعمار من شاب متفوِّق أنهى بأمريكا دراساته العليا واستعصى على عوامل الإغراء ، وظهر منه التصميم على أن يكون لبلاده ولعقيدته قبل كل شىء .

* *

● بين الفخر والواجب :

إن أدب الفخر بالماضى يقع تحت لافتة : « ماذا فعل الآباء ؟ وأدب الحسرة يقع تحت عِنوان : ماذا كان عليهم أن يفعلوا ؟ وكل ذلك حياةٌ فى عالَم القبور .

---

(١) يجدى : يفيد .

أما الأدب الاجتماعى الناهض فيقع تحت لافتة : ماذا علينا أن نفعله فى عصر « الميكنة » وغزْوِ الفضاء ؟

إن القرآن وضع جذور النهضة العلمية حين نزل وفى أول سطر من دستوره « اقرأ » ، وحين دربنا على ترك التقاليد البالية ونقدها بالتأمل العلمى ، وحرَّم التقليد ولعن المقلِّدين : ﴿ أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ [1] « وفرض علينا أن نتأمل كل ما فى الوجود وأن ننتفع به : ﴿ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ . . ﴾ [2] ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ [3] .

وبينما انفتح إنجيل يوحنا - مثلاً - على عملية التجسيد ، انفتح القرآن على الجانب العقلى « اقرأ » ، والعلم يحتاج القدوة ، ولذا فرض الإسلام الأسوة الطيبة ورائدها رسول الله ﷺ .

* *

● المسح الاجتماعى :

يقدم المستشرقون للساسة فى بلادهم تقارير فى صورة مؤلفات . . أحياناً عن أخلاق وعادات البلاد الإسلامية ليُدرس أمرها عند غزوها ، فمثلاً : « إدوارد لين » (١٨٠١ - ١٨٧٦) ، وهو مستشرق إنجليزى قدم إلى مصر عام ١٨٢٥ للتضلع من العربية كتابة وحديثاً ، ثم عاد إليها فأقام بها من عام (١٨٢٣ - إلى عام ١٨٣٥) ، وأكب على درس الحياة فى القاهرة دراسة مباشرة ، وعاش عيشة المصريين فكان يلقبه أصدقاؤه بمنصور أفندى ، فما عاد إلى بلاده حتى نشر كتابه « أخلاق وعادات المصريين المعاصرة » عام ١٨٣٦ ، ونفدت طبعته الأولى بعد أسبوعين ، فأعيد طبعه مرات فى إنجلترا وألمانيا وأمريكا [4] وقد انتفعت به هذه البلاد فى التعرف على عاصمة الشرق الأولى قبل القيام بغزوها .

* *

---

(١) البقرة : ١٧٠
(٢) يونس : ١٠١
(٣) الجاثية : ١٣
(٤) المستشرقون ص ٨٨

● **تأجيج الحقد فى الغربيين :**

عمد المستشرقون إلى تنمية احتقار الإسلام وزرع الكراهية له ولشعوبه فى نفوس الغربيين بأمرين :

١ - الشرح الخاطئ لتعاليم الإسلام ، والتعليل الكاذب لتاريخ الفتوح الإسلامية فى مؤتمرات أو أندية أو كتب أو صحف أو تمثيليات .

٢ - كتبَ الرحَّالةُ عن الواقع الإسلامى فى المجتمعات الإسلامية أسوأ ما رأوا ، وأضافوا الكثير إلى ما رأوا أو سمعوا من خرافات يكون من شأنها أن تعطى صورة عن الإسلام تشمئز منها النفس فتنصرف عن مجرد التفكير فى دراسته أو الاستماع عنه ، أو الرغبة فى التعرف عليه ، وتُظهر المسلمين فى صورةٍ أضعفُ ما فيها أنهم كالأغنام يجب اغتنامها فهى أعجز عن أن تقف موقف مقاومة .

* *

● **معامل ارتباط :**

ومن الملاحَظ أن الدول الاستعمارية يزدهر فيها الاستشراق بينما يقلُّ فى غيرها ، كما يُلاحَظ أن الاستشراق بصورة عامة ينبعث من الكنيسة ويسير مع وزارة الخارجية جنباً إلى جنب مثل « بلاشير » و« ماسينيون » خبيرى وزارة الخارجية الفرنسية فى الشئون الإسلامية ، ومن الأسف أن تأثر بهم بعض الباحثين مثل أحمد أمين ، ومحمود أبو رية ، وعلى حسن عبد القادر . وقد اهتمت جامعة قازان فى روسيا بدراسة الإسلام والقرآن ليفهم الطُّلاب على ضوء ذلك سياسة العالم الإسلامى وطبيعة أهله [١] .

وقد قال « لورانس براون » وهو مستشرق ومبشر : « إذا اتحدَ المسلمون فى إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالَم وخطراً ،

---

(١) المستشرقون ص ١٢٧ والتبشير والاستعمار ص ٣٧

وأمكن أن يصبحوا نعمة لها أيضاً . أما إذا ظلوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة وتأثير » (١) .

وقال أيضاً : « الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام ، وفى قدرته على التوسع ، وفى حيويته . إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوروبى » (٢)

وهكذا قال المستشرق الألمانى « بيكر » : « إن هناك عداء من النصرانية للإسلام بسبب أن الإسلام عندما انتشر فى العصور الوسطى أقام سداً منيعاً فى وجه الاستعمار وانتشار النصرانية ، ثم امتد إلى البلاد التى كانت خاضعة لصولجانها » (٣) .

ولقد كانت الدول الأجنبية تبسط حمايتها على مبشريها فى بلاد الشرق ، لأنها تَعُدُّهم حَمَلَةً لتجارتها وآرائها ولثقافتها فى تلك البلاد ، بل لقد كان ثَمة ما هو أعظم من هذا عندها ، لقد كان المبشرون يعملون بطرق مختلفة كالتعليم مثلاً على تهيئة شخصيات شرقية لا تقاوم التسلط الأجنبى كـ « سانجور » فى السنغال ، وكأحمد لطفى السيد الذى يسميه المصريون « أبا الجيل » - وبعبارة أصرح - خلق عملاء للاستعمار من المفكرين والقادة السياسيين ، يعملون فى رفق ودهاء وطبقاً لخطة مدروسة يُدَّرب هؤلاء عليها ، على إنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية ، وعلى الاستخفاف بها باسم التجديد والتقدمية .

إن التبشير والاستشراق كلاهما دعامة الاستعمار فى مصر والشرق الإسلامى ، كلاهما دعوة إلى توهين القيم الإسلامية والغض من اللغة العربية الفصحى ، وتقطيع أواصر القُرْبَى بين الشعوب الإسلامية الحاضرة ، وازدرائها فى المحافل الدولية العالمية ، والتبشير والاستشراق فى ذلك سواء ، والفرق بينهما هو أن الاستشراق أخذ صورة البحث ، وادَّعى لبحثه الطابع

---

(١) الإسلام والإرسالیات ص ٤٤ - ٤٨

(٢) المستشرقون والمبشرون فى العالم العربى والإسلامى ص ٣٨

(٣) المرجع السابق ص ٣٨ نقلاً عن التبشير والاستعمار ص ١١٧

العلمى الأكاديمى ، بينما بقيت دعوة التبشير فى حدود مظاهر العقلية العامة ، وهى العقلية الشعبية ، استخدم الاستشراق الكتاب والمقال فى المجالات العلمية وكرسى التدريس فى الجامعة ، والمناقشة فى المؤتمرات العلمية العامة ، أما التبشير فقد سلك طريق التعليم المدرسى فى دور الحضانة ورياض الأطفال والمراحل الابتدائية والثانوية للبنين والبنات على السواء . كما سلك سبيل العمل الخيرى الظاهر فى المشافى ودور الضيافة والملاجئ لكبار السن ، ودور اليتامى واليتيمات .

كما سيطر هؤلاء - بتلاميذهم - على أجهزة الإعلام ودور السينما ، فأشاعوا بها الفاحشة فى الذين آمنوا ، ليدمِّروهم خُلُقياً ، وزرعوا قيماً اجتماعية غير القيم الإسلامية ، من شأنها أن توجد أجيالاً وشعوباً منسلخة من مقوِّماتها الإسلامية والقومية ، تذوب أو تقترب أو تتجه وجهة غير الإسلامية ، شرقية أو غربية ، متخاصمة أو متنافرة مع القيم والمعايير الإسلامية .

وحسبك أن تعلم أن روّاد المسرح والسينما من الماسون واليهود والصليبيين ذوى الخبرة بالشرق والشرقيين .

وفى كتاب « العالَم الإسلامى اليوم » قال « صمويل زويمر » : « يجب أن يكون تبشير المسلمين بوساطة رسول من أنفسهم ، ومن بين صفوفهم ، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها ، ويجب نشر الكتاب المقدَّس بلغات المسلمين ، وإقناع المسلمين بأن النصارى ليسوا أعداء لهم .

وينبغى للمبشِّرين (المنصِّرين) ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة جهدهم فى التنفير بين المسلمين ضعيفة ، إذ من المحقق أن المسلمين قديماً فى قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوروبيين وتحرير النساء » .

ثم قال - فى مؤتمر المبشرين الذى انعقد فى القدس - : « مهمتكم ليست هى إدخال المسلمين فى المسيحية ، وإنما هى أن تُخرجوا المسلم من الإسلام ، ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله ، وبالتالى : فلا تكون له صلة تربطه

بالأخلاق التى تعتمد عليها الأُمم فى حياتها ، وبذلك تكونون أنتم - بعملكم هذا - طليعة الفتح الاستعمارى فى الممالك الإسلامية .

« لقد سيطرنا منذ ثلث القرن التاسع عشر الميلادى على جميع برامج التعليم فى الممالك الإسلامية ، وأعددتم فى ديار الإسلام شباباً لا يعرف الصلة بالله ، فجاء نشءٌ لا يهتمُّ للعظائم ويحبُّ الراحة والكسل ، وهمُّه فى الشهوات .

ولم يفت التبشير والاستشراق استغلال دور النشر والطباعة والصحافة ، وإنما اتخذ كل وسيلة للوصول إلى غايته ، أعرف فى مصر داراً كبرى للنشر تستغل فى التصحيح الطُّلاب النابهين فى اللُّغة العربية ، وبهذه الدار مكاتب للمؤلفين ويتردد عليها المستشرقون باسم المعرفة والعلم ، ويتلقفون الملكات اللامعة فيوجهونها فى الكتابة التى تخدم أغراضهم ، ويتحمل المستشرقون عبء النشر والتوزيع ، وتوفير المراجع والدعاية ، فيصبح الشاب بين عشية وضحاها عَلَما فَذاً من كبار الكتاب والمفكرين ، إنها دول كبرى تحتضن امرءاً فقيراً طموحاً ذا ذكاء ، وليست مجرد مستشرق متسكع ، إنها الصليبية أو الصهيونية ، وإن شئت قلت : الاسنعمار المغلَّف والجهالة المتعصبة ضد الإسلام تبنى كُتَّاباً لها من بين علماء المسلمين !!

وكثيراً ما يقوم المستشرقون أنفسهم بالاشتغال بآداب العربية والعلوم الإسلامية ليعقدوا الموازنات بينها وبين الآداب الأجنبية ، وهم يفضلون أن يُلقوا بدراساتهم هذه إلى بعض شبابنا أو طالبى الرزق من كهولنا أو عُشَّاق الظهور بالآراء الشاذة . . والغاية التى يهدف إليها المستشرقون من هذه الموازنات هو أن يثبتوا لبنى الإسلام فضل الغرب المسيحى ، أو حتى الملْحد على العالم الإسلامى . وذلك ابتغاء خلق روح التخاذل والشعور بالنقص فى نفوس الشرقيين بعامة والمسلمين بخاصة ، ثم حملْهم - من هذا الباب - على الرضا بالخضوع للمدنية المادية الغربية .

إن حرب الإسلام أصبحت دون مدفع يُرهب إلا بمقدار - والأسلوب

الهادى المحمىُّ بتهديد المدفع المزمجر هو تشويهُ الإسلام ومحاولةُ إضعاف قيمته ، ثم تصويرُ المسلمين فى وضعهم الحالى بصورة مُزْرية بعيدة عن المستوى الحضارى فى عصرنا الحاضر [1] .

والمشتغلون بالتبشير والاستشراق قالوا فى صراحة : إنهم استغلوا الصحافة المصرية على الأخص للتعبير عن الآراء المسيحية - أكثر مما استطاعوا فى أى بلد إسلامى آخر - ولقد ظهرت مقالات كثيرة فى عدد من الصحف المصرية ، إما مأجورة فى أكثر الأحيان ، أو بلا أجر فى أحوال نادرة [2] .

وقد وجد فى سجلات شركة قنال السويس أنها كانت تخصص للتبشير فى الشرق الأوسط من ميزانيتها ثلاثة ملايين جنيه إسترلينى سنوياً [3] .

كما أكرم العرب المستشرقين فأدخلوهم أعضاء فى المجامع العلمية واللُّغوية فاستغلوا الفرصة لبذر سموم خفيفة ومن النوع المركز .

وعندما أنشأوا المدارس الإرسالية والجامعات الأمريكية قَسَروا [4] الطُّلاب على الشعائر الدينية المسيحية ، ولما احتج طُلاب الجامعة الأمريكية المسلمون ببيروت على إدخالهم الكنيسة قسراً قيل لهم : هذه الكلية بُنِيت بأموال مسيحية لدعم تعاليم المسيح ، وعلى كل طالب التحق بها أن يعرف ماذا يُراد به أو يُطلب منه سلفاً .

ولقد أقنع المبشِّرون والمستشرقون زعماء الاستعمار بأن المسيحية ستكون قاعدة للاستعمار الغربى فى الشرق ، وبذلك سهَّل الاستعمار لهم مهمتهم وبسط عليهم حمايته ، وزوَّدهم بالمال والسلطان ، وهذا هو السبب فى أن

---

(١) التبشير والاستعمار ص ٢٠٧

(٢) حقائق عن التبشير لعماد شرف ص ٣٢ - ٣٣ ، طبعة المختار الإسلامى .

(٣) المرجع السابق ص ٧٣ (٤) أكْرهوا .

الاستشراق قام - فى أول أمره - على أكتاف المبشِّرين والرهبان ثم اتصل بالاستعمار .

وأصبح التبشير عملية استعمارية واقتصادية بل وعسكرية ، بدليل أن الدول النصرانية جميعها فى الحرب العالمية الأولى كانت تعامل المبشِّرين التابعين للدولة المعادية لها فى المستعمرات معاملة المحاربين .

كما أن المبشِّرين نهضوا فور إعلان الحرب يجمعون المتطوعين لجيوش دولهم ، ويقومون بكل الأعمال اللازمة لنُصْرة بلادهم ؛ من جاسوسية . . إلى دعاية . . إلى غير ذلك .

ولهذا استأصلت إنجلترا وفرنسا المبشِّرين الألمان من البلاد التى كانتا تسيطران عليها [١] .

* * *

(١) حقائق عن التبشير ص ٥ ، ٦

مستشرقون عسكريون وسياسيون

وإليك قائمة ببعض الساسة المستشرقين وبعضهم من العسكريين أو المشتغلين بخدمة الجيوش الصليبية . فمن أشهر المستشرقين الساسة :

● فى فرنسا :

١ - « بوسكل » (١٥١٠ - ١٥٨١) : وهو نورماندى ألحقه « فرنسوا الأول » بسفارته فى تركيا ، فاشترى مخطوطات نفيسة ، ولما غضب عليه « فرنسوا » هرب إلى « القدس » وسوريا وغيرهما من بلاد العرب حتى شفعت له « كاترين دى مديسيس » فعاد إلى فرنسا أستاذاً للرياضيات فى جامعة باريس سنة ١٥٥١ ، وفى السنة التالية استدعاه « فرديناند الأول » ملك النمسا فعينه أستاذاً للُّغتين العربية واليونانية بجامعة « فيانا » فأوجد فيها الطباعة العربية ، ولكنه لم يطب له المقام بالنمسا فعاد إلى فرنسا حيث اتهم بالعصيان الدينى ، فسجن فى أحد الأديرة حتى مات فيه ، وهذه الصورة تعطينا أبعاداً عظيمة لشخصية رجل سياسى خطير .

٢ - « هانوتو » : هو المستشرق الفرنسى الذى أصدر « محمد عبده » رداً لمفترياته على الإسلام فجاء إلى مصر معتذراً . . وقد كان فى نفس الوقت مستشاراً لوزارة المستعمرات الفرنسية .

٣ - « هربلو » (١٦٢٥ - ١٦٩٥) : درس العربية فى باريس ثم ارتحل إلى إيطاليا واتصل بمدرستها ومطبعتها الشرقيتين ، وبالغراندوق « ناسكان فرديناند الثالث » الذى أكبره وأهداه مجموعة مخطوطات عربية ذات قيمة ، ولعلوّ كعبه استقدمه لويس الرابع عشر وعينه أميناً لسره ، وأستاذاً للعربية فى معهد فرنسا .

٤ - « أ . دينيه » : فرنسى متعصب ضد الإسلام .

٥ - « دربلو » : فرنسى عاش فى أواخر القرن السابع عشر الميلادى ، من مؤلفاته « المكتبة الشرقية » فى عدة مجلدات بالفرنسية ، وهو مرتب حسب حروف الهجاء ، ويبحث فى علوم الشرقيين ، وتاريخهم ، وخرافاتهم ، وآدابهم ، ونظمهم ، وسائر أحوالهم الاجتماعية ، وقد طبع للمرة الثانية فى عام ١٧٨٣

٦ - « جالان » (١٦٤٦ - ١٧١٥) : كان مرافقاً للمركيز « دى نوائتيل » سفير فرنسا فى تركيا سنة ١٦٧٠

٧ - « فرنسوى بتى دى لاكروى » (١٦٣٥ - ١٧١٣) : درس فى القسطنطينية ثم عين ترجماناً للملك .

٨ - « كيغر » (١٧٦٧ - ١٨٣٢) : ولد فى استراسبورغ ، وبدأ حياته بدراسة اللاهوت ، وفى سنة ١٧٩٤ وظف فى وزارة الخارجية ، وبعد سنتين أصبح أمين سر الوزير .

٩ - « ديكوروا » (١٧٧٥ - ١٨٣٥) : كان ترجمان الملك لدى السفارة الفرنسية فى القسطنطينية ، وله كتاب « علاقات فرنسا بالباب العالى » يدل على تغلغله فى السياسة ، وله « التشريع الإسلامى فى المذاهب السُنِّية والشيعية والحنفية » .

١٠ - « دى ساسى » (١٧٥٨ - ١٨٣٨) : انتخبته مقاطعة السين فى فرنسا عضواً فى الهيئة التشريعة ولقب بلقب « بارون » بأمر إمبراطورى سنة ١٨١٣ جزاء خدماته ، وألَّف فى ديانة الدروز جزئين ، وسقط ميتاً فى ٢١ فبراير سنة ١٨٣٨ قبل نشر الجزء الثالث ، ومن مؤلفاته « التشريع العربى الذى سبق مونتسيكيو فى كتابه روح الشرائع » .

١١ - « ج . مولله » (١٧٩٦ - ١٨٦٩) : صاحب كتاب الطبعيات لدى العرب ، عين ترجماناً لوزارة الخارجية ولقب بمترجم الملك الأول :

١٢ - « بلن » (١٨١٧ - ١٨٧٧) : تتلمذ لمرسيل الذى كان من

العسكريين ، وفى سنة ١٨٣٨ وظف فى المدرسة الملكية ثم نقل إلى إحدى السفارات المنشأة حديثاً ، ومنها نقل إلى مثل وظيفته فى « سالونيك » ثم إلى القاهرة ، ثم إلى القسطنطينية فرقِّى إلى مرتبة القنصل .

١٣ - « شارل كلرمون جانو » (١٨٤٦ - ١٩٢٣) : عين ترجماناً ثم قنصلاً لفرنسا فى القدس والآستانة ويافا [١] .

١٤ - « باسه » (١٨٥٥ - ١٩٢٤) : عين قنصلاً لفرنسا بالجزائر فآثر التدريس ورأس مؤتمر المستشرقين بالجزائر عام ١٩١٠

١٥ - « هيار » (١٨٥٤ - ١٩٢٧) : عين ترجماناً فى قنصلية فرنسا بدمشق سنة ١٨٧٥ ، ومنها نقل إلى سفارة الآستانة بمثل وظيفته سنة ١٨٧٨ ، ثم رقى قنصلاً بالسفارة ، وفى عام ١٨٩٨ استدعى إلى باريس وعين أمين سر ، ومترجماً ، فطار صيته فى وزارة الخارجية وانتدبته ليمثلها فى مؤتمرات المستشرقين ، وقد حاول إيجاد وجه شبه بين القرآن وشعر أمية بن أبى الصلت [٢] فهو قريب من « سڤارى » الذى زعم أن محمداً شاعر .

١٦ - « جان أرتوركى » (١٨٧٤ - ١٩٢٨) : عين - عقب اتمام دراسته - مترجماً فى القنصلية الفرنسية بدمشق ، فطرابلس الغرب ، فزنجبار ، ثم فى سفارة فرنسا فى الآستانة ، والقاهرة ، ثم عين قنصلاً فى زنجبار ، وطرابلس الغرب ، وأزمير .

١٧ - « سوڤير » (١٨٩٦) : عينته حكومة فرنسا قنصلاً لها فى سوريا ، فأقام فيها مدّة ساعدته على التضلُّع من اللُّغة العربية [٣] .

١٨ - « فرنان بروديل » (١٩٠٢ - ١٩٨٥) : هو أحد المؤرخين الفرنسيين ، وقد شكلت حضارات البحر الأبيض المتوسط مجال اهتمامه الحيوى إذ كانت

---

(١) المستشرقون ص ٦٢ - الطبعة الثانية . (٢) المستشرقون ص ٦٥ - الطبعة الثانية .

(٣) المستشرقون ص ٦٦ - الطبعة الثانية

أطروحته فى رسالته للدكتوراة بعنوان « البحر الأبيض المتوسط والعالم المتوسط على عهد فيليب الثانى » نشرت فى ١٩٤٩ ، وعمل مدرساً للتاريخ فى الجزائر من سنة ١٩٢٢ - إلى سنة ١٩٣٥

وقد نشرت مجلة بيت الحكمة المغربية فى عدد إبريل ١٩٨٧ عنه دراسة مستفيضة تدور حول محاور ثلاثة :

١ - حوار حول التاريخ الجديد .

٢ - دراسة مطوّلة عن التاريخ والعلوم الاجتماعية .

٣ - فجر المتوسط وتاريخ المتوسط فى دراستين .

وقد أعطى لمدرسة « الحوليات الفرنسية » نفساً جديداً سواء على مستوى التنظير ، أو على مستوى الكتابة التاريخية .

« كارادوفو » الفرنسى : مستشرق سياسى يقول : يجب دمج شعوب المغرب فى الحضارة الأوروبية ، فهو ممن كان تفكيرهم وراء فرنسة تونس والجزائر والمغرب .

« روجيه جارودى » : من أعلام المفكرين الفرنسيين المعاصرين الأحرار ، وقد أشهر إسلامه بعد أن كان ماركسياً ، وقد أصدر عدة كتب منها « البدل » ، « حوار الحضارات » ، « بشائر الإسلام » ، و« عود الإسلام » .

وقد قال : « إن مأساة الغرب اليوم ، سواء فى البلاد الرأسمالية أو الاشتراكية هى اعتماده على النمو المتواصل بدون هدف إنسانى أو أخلاقى ، ولقد وجدت فى الإسلام نظاماً اجتماعياً واقتصادياً وأخلاقياً يصلح لإخراج البشرية من ورطتها » .

دكتورة « ايفادى فينرى » : نائبة رئيس جمعية الإسلام والغرب ، حصلت على دكتوراة الدولة الفرنسية فى الفلسفة الإسلامية ، ولدت سنة ١٩٠٥ ولها نيف وأربعون كتاباً حول الإسلام والصوفية ، ووفقها الله إلى الحج والعمرة ،

ودرست بمعهد اللُّغات بالأزهر ، وبكت يوماً حين أرادت ترجمة كلمة من القرآن فوجدت الاستحالة لأن الكلمة لها دلالة لفظية وإيحاءات أعظم من أن يحيطها لفظ .

١٩ - « مرسيل » (١٧٧٦ - ١٨٥٤) : ولقد كان من قبله جده « جيوم مرسيل » قنصلاً لفرنسا فى مصر وأحد كبار المؤرخين ، وقد اختير « مرسيل » أستاذاً لولى عهد فرنسا ابن « لويس » سنة ١٨٢٩ ، فلما كانت حملة « نابليون » عين مترجماً بها تحت رعاية أستاذه « لانجل » السابق ذكره ، ثم عين مديراً للمطبعة التى لحقت بالجيش الفرنسى إلى مصر ، وقد كلفه « نابليون » بطبع جميع المقررات السياسية باللُّغات الشرقية الثلاث ، ثم عين مديراً لمطبعة الجمهورية ، ولا تكاد تجده إلا فى مكتبة .

٢٠ - « لويس ماسنيون » : وقد ولد عام ١٨٨٣ ، وتخرج من جامعة باريس - وحين نشبت الحرب العالمية الأولى اشترك فيها وكان أحد ضباطها ، ثم عين مترجماً ، وحين وضعت الحرب أوزارها ألحق بالمفوضية الفرنسية فى سوريا من نوفمبر سنة ١٩١٨ إلى فبراير سنة ١٩١٩ ثم مستشاراً لوزارة المستعمرات الفرنسية فى شئون شمال إفريقيا ، وأخيراً أميناً للمجمع العلمى المصرى سنة ١٩٢٩ ، وله مجلة للدراسات الإسلامية التى تتتبع أخبار الفرق الإسلامية والأزهر وكل النشرات الدورية والكتب .

٢١ - « ليفى بروفنسال » : فرنسى ولكنه ولد فى الجزائر سنة ١٨٩٤ ، وتلقى تعليمه بها فتخرج من كلية الآداب وعين ضابطاً فى الشئون الإسلامية بمراكش ، وفى عام ١٩١٩ كلفه المارشال « ليوتى » بمهمة فى معهد الدراسات العليا المراكشية فى الرباط ، وعين أستاذاً فيه سنة ١٩٢٠ ، وكان مديراً للمطبعة الفرنسية لدائرة المعارف الإسلامية حتى عام ١٩٣٩ ، ثم انتدبته حكومته فى الجمهورية الفرنسية فى الفترة من (١٩٤٣ - ١٩٤٤) ، فى مهام خطيرة طار فيها بين لندن والقاهرة والقدس ودمشق .

وقد كوفىء على بلائه فى الحرب وعلى جهوده فى الاستشراق بأوسمة رفيعة منها وسام جوقة الشرف [1] .

٢٢ - « ديلابورت » (١٧٧٧ - ١٨٧٦) : ولد فى باريس وتخرج من مدرسة اللُّغات الشرقية ، وقد صحب الحملة الفرنسية التى قادها « نابليون » ، ثم كان موظفاً بالقنصلية الفرنسية بطرابلس الشام ، ومات وهو عضو مجمع العلوم والفنون فى مصر .

٢٣ - « البارون دى ديما » (١٧٩٦ - ١٨٦٢) : ولد فى « نانسى » ودرس فى « باريس » فألّم بالعربية والتحق بالجيش فكان تحت إمرته (...ر٢٠) جندى ، ومن مؤلفاته السياسية « حق فرنسا فى مسألة الشرق » ، وفى الدين ترجم إلى الفرنسية « أناشيد داود » شعراً .

٢٤ - « جيسْ » : قنصل فرنسا في بيروت ، نشر فى مجلد بحثاً عن ديانة الدروز وتاريخهم .

٢٥ - « البارون دى سلان » (١٨٧٩) : وهو من أصل إرلندى وتجنس بالجنسية الفرنسية وعمل مترجماً فى وزارة الحربية ، وهذا العمل المدنى الصورة يصحبه ما يلزم مرافقى الجيش من تدريبات عسكرية .

❋ ❋

● وفى إيطاليا من العسكريين :

« قيصر لمبروزو » (١٨٣٥ - ١٩٠٩) : وهو يهودى التحق سنة ١٨٥٩ ليعمل طبيباً فى الجيش الإيطالى

❋ ❋

---

(١) المستشرقون ص ٧١

● **وفى إنجلترا من العسكريين :**

١ - « فرانسيس جلادوين » المتوفى سنة ١٨١٣ - عمل فى جيش البنغال وعين مفوضاً مقيماً فى بتنا عام ١٨٠٨ [١]

٢ - « وليم فاسوليز » (١٨٢٥ - ١٨٨٩) : أرسل جندياً إلى الهند ثم صار من كبار الضباط عام ١٨٨٥ ثم صار ترجماناً لحكومة الهند ، ومحرراً بالتيمس الهندية .

٣ - « كوندر » (١٨٤٨ - ١٩١٠) : التحق بسلاح المهندسين الملكى البريطانى عام ١٨٧٠ - ومن آثاره العلمية : « طبوغرافية غرب فلسطين » فى سبع مجلدات [٢] .

٤ - « ريتشارد برتين » (١٨٤١ - ١٨٩٠) : تلقى تعليمه فى جامعة أكسفورد العربية ، ثم غادرها ليلتحق بالجيش البريطانى بالهند ، وفى عام ١٨٥٣ زار مصر والسويس ثم ذهب إلى الحج ، ثم عاد من الحجاز فيمم وجهه شطر مجاهل إفريقيا فكشف عن بحيرتى تنجانيقا وفيكتوريا ، ثم رحل إلى دمشق بصحبة « إدوارد بالمر » ثم عاد إلى مصر ، وقام بمسح چيولوچى لأراضى لم تمسح من قبل .

٥ - « لورانس » (١٨٨٨ - ١٩٣٥) : منح رتبة مقدم فى الجيش وانضم إلى الثورة العربية وعمل فى سلاح الطيران الملكى [٣] .

٦ - « د . فيلوت » (١٨٦٠ - ١٩٣٠) : عقيد فى الجيش البريطانى ، له نصوص من كتاب « الجمهرة فى البيزرة » - لابن تشاجم ، نشره سنة (١٩٠٧) [٤] .

٧ - البروفسور « أندرسون » : رئيس قسم قوانين الأحوال الشخصية المعمول بها فى العالم الإسلامى ، ذلك القسم الذى أنشأته جامعة لندن بمعهد

---

(١) المستشرقون ص ٤٧٤ - الطبعة الثالثة .
(٢) المستشرقون ص ٤٩٣ - الطبعة الثانية .
(٣) المستشرقون ص ٥١١ - الطبعة الثالثة .
(٤) المستشروقون ص ٥٠٣ - الطبعة الثالثة .

الدراسات الشرقية التابع لها ، وقد تخرج من كلية اللاهوت فى جامعة كمبردج ، وكان من أركان حرب الجيش البريطانى فى مصر خلال الحرب العالمية الثانية ، وهو لم يدرس من العربية إلا العامية التى كسبها بفضل المخالطة للمصريين ، ثم كان يأخذ درساً فى الأسبوع مدته ساعة لمدة عام . أى أنه قضى فى تعلم الفصحى ٥٠ ساعة فقط إلى جانب الاستماع لعدة محاضرات من الدكتور طه حسين وأحمد أمين والشيخ أحمد إبراهيم ، وهذه هى كل مؤهلاته التى أقعدته مقعد الأستاذية لأبناء المسلمين الوافدين إلى إنجلترا .

* *

فالاستشراق بهذه الصورة – التى يعمل فى إطارها سياسيون ومجندون تحت ألوية الحروب المشبوبة على بلاد الشرق والإسلام – لا يمكن أن يقال عنه إلا أنه سلاح من أسلحة الحرب الصليبية والاستعمارية .

* * *

الاستشراق فى إنجلترا

ومثل فرنسا نجد الاستشراق فى كل مكان من أوروبا ، ففى القرن الثانى عشر الميلادى زاد إقبال علماء أوروبا على الجامعات العربية لدراسة العلوم العربية ونقلها إلى لغات الفرنجة لنفس الأغراض التى ذكرناها فى صدر هذا الباب ، ولسنا بصدد التأريخ لرجال الاستشراق ، وكان حسبنا ما ذكرناه من الأمثلة عن المستشرقين الفرنسيين المشتغلين بأعمال سياسية ، ولكننا - لتكون الأدلة المادية على صدق الدعوى بلْجاء [(١)] - نذكر أمثلة أخرى عن الساسة المستشرقين فى دول أخرى ، وفى إنجلترا من هؤلاء :

١ - « جون سلدن » (١٥٨٤ - ١٦٥٤) : وقد لعب دوراً كبيراً فى الحياة الإنجليزية عامة ، وهو من السياسيين والمستشرقين [(٢)] .

٢ - « وليم موير » (١٨١٦ - ١٩٠٥) : وهو اسكتلندى امتاز بخدماته الجليلة للإمبراطورية البريطانية فى بعض المناصب التى تولاها فى الهند .

٣ - « ويلفرد سكاوين بلنت » (١٨٤٠ - ١٩٢٢) : من كبار السياسيين ، وقد استقر بمصر منذ عام ١٨٨١

٤ - « هنرى جيب » : عضو المجمع اللُّغوى فى مصر ، وكان يعمل مستشاراً فى وزارة الخارجية البريطانية .

٥ - « د . ميخائيل جلستان » : وهو مستشرق بريطانى معاصر ، أستاذ العلوم الاجتماعية بجامعة أكسفورد . التقى بالطريقة الحامدية الشاذلية وعاش معها ثلاثة أشهر ، وكتب عنها رسالته للدكتوراة ، وهو الآن يحاضر عن مبادئ هذه الطريقة وآدابها بجامعة أكسفورد إذ أنه يعدها نموذجاً للطرق الصوفية فى مصر [(٣)] .

---

(١) أى شديد الوضوح . (٢) المستشرقون ص ٤٦٥ - الطبعة الثالثة .

(٣) جريدة الأهرام فى ١٩٧٨/٤/٢٦

٦ - « البروفيسور بيير كاكيا » : هو إنجليزى معاصر ويعمل أستاذاً بجامعة كولومبيا بنيويورك . وقد عاش فى مصر ما يقرب من ربع قرن تأثر خلاله بالأدب العربى ، ورأى مجد أحمد شوقى وحافظ إبراهيم ، وقد حضر مهرجان « أمير الشعراء شوقى وشاعر النيل حافظ إبراهيم » بالقاهرة فى أكتوبر ١٩٨٢ م (ذى الحجة ١٤٠٢) هـ .

٧ - « د . مارتن هاينز » البريطانى : أصدر سنة ١٩٨٨ بالاشتراك مع الدكتور حمدى السكوة قاموس العامية المصرية ولوحظ فيه - إلى جانب اللُّغة - أن يكون مصدراً ثرياً لكافة أشكال الحياة الثقافية فى مصر وذلك لاختلاف وتنوع الألفاظ المستعملة بين الطبقات الاجتماعية .

٨ - « تشارلز جلاس » : صحفى أمريكى يجيد العربية والإنجليزية والفرنسية هرب من مخطفيه فى بيروت فى أحداث أواخر الثمانينات ، وذهب إلى سوريا ، وهو من أصل لبنانى فجدته من الأم لبنانية ، وكان من المعتقلين معه « تيرى ويت » .

٩ - « البروفيسور فرانز شيرمان » : أستاذ التاريخ والعلوم الاجتماعية بجامعة كاليفورنيا فى « بيركلى » ، وهو كبير محررى وكالة أنباء الباسفيك ، وأحد مؤسسيها . زار اليابان وتحدَّث عنها فقال : المبانى متشابهة وبخاصة فى طوكيو وفى يوكوهاما الصناعية ، والمواطنون يبتعدون عن الحِرَف التى لا تدر دخلاً ، ولقد طلب يوماً من إسكافى أن يلمع له حذائه ، فاعتذر لأن عمله أن يصلح أحذية . كما يحترم الناس نظام المرور ، وتهتم الصحف بالتكنولوچيا والأخبار الحزبية وأخبار الناس ليكونوا معهم .

١٠ - « بيتر مانسفيلد » الإنجليزى : له كتاب « العرب » ابتدأ فيه جولته من التاريخ القديم قبل الإسلام ، وطاف مع العرب فى كل مواقعهم وكبريات معاركهم فى فارس والأندلس ، وغابات إفريقيا ، وتناول سقوط بغداد فى أيدى التتار ومقتل الخليفة العباسى ومعه ثمانمائة ألف من السكان الآمنين تراكم

أشلاؤهم فى شوارع بغداد عاصمة الرشيد ، ويرى الغرب وهو يبدأ هجمته الأولى الشرسة ضد العرب ، فتسقط طليطلة فى أيدى كاثوليك أسبانيا (عام ١٠٨٥م) ، والقدس فى أيدى الصليبين (٢٥ يوليو ١٠٩٩م) وغرناطة لؤلؤة التاج (٣ يناير ١٤٩٢م) . . ثم تبدأ صحوة الإسلام بالحركة الوهابية فى جزيرة العرب ، فالبعث الإسلامى الإخوانى الذى امتد من مصر وكان دم الشهيد « حسن البنا » هو الشرر الذى امتد إلى العالمين وأخرجه فى مسلسل فيديو « كوهين يوك » و« چون دانلوب » .

١١ - « مرجليوث » (١٨٥٨ - ١٩٤٠) : هو « ديفيد صمويل مرجليوث » ولد فى إنجلترا عام ١٨٥٨ ، وعاش ٨٢ سنة إذ توفى سنة ١٩٤٠ ، وكان أول نشاطه العلمى عام ١٨٨٧ حيث ترجم « متى بن يونس » لكتاب من الشعر لأرسطو ، ثم كتب بحثاً عن أوراق البردى العربية فى عام ١٨٩٣ . يوجد فى مكتبة « بودلى » بأكسفورد .

وفى سنة ١٣٩٤ هـ ترجم جزءاً من تفسير البيضاوى إلى الإنجليزية ، وفى عام ١٩٢٠ ترجم جزءاً من كتاب تجارب الأمم لمسكويه ، ثم نشر رسائل أبى العلاء المعرى عام ١٨٩٨ ، ثم نشر معجم الأدباء لياقوت الحموى فى الفترة من ١٩٠٧ إلى ١٩٢٧ ، كما نشر نشوان المحاضرة للتنوخى فى عام ١٩٢١

ويبدو تعصبه فى كتابته عن الإسلام وخروجه فى ذلك عن المنهج والتحقيق العلمى ، ويتضح ذلك فى كتابه « محمد ونشأة الإسلام » الذى نشره عام ١٩٠٥ ، وكتابه « الإسلام » الذى سماه « المحمدانية » ونشره عام ١٩١١ ، كما يبدو فى كتابه الذى نشره فى عام ١٩٢٤ عن العلاقات بين العرب واليهود حتى ظهور الإسلام .

ولكن لعل أبرز ما أشهره بين العرب مقاله « أصول الشعر العربى » يعنى الشعر العربى الجاهلى ، وقد قرأ عن ابن سلام الجحمى وآخرين أن بعض رواة الشعر انتحلوا على الجاهليين بعض أبيات أو قصائد يعرفها حُفَّاظ الشعر ورواته العارفون متى وفيم قيل ؟ ولكن « مرجليوث » أخذ هذا التحقيق

والتنبيه ، وزعم أن الشعر الجاهلى كله منحول ، وسقط فى هذه الخطئة طه حسين فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » الذى أصدره عام ١٩٢٦ بعد نحو عام من ظهور مقالة « مرجليوث » المعروف بتهجمه على الإسلام فى أوائل القرن العشرين ، وتبعه فى ذلك مدافعاً عنهما عبد الرحمن بدوى ، وظهرت ردود على هذا التوجه من علماء المسلمين والمستشرقين أيضاً ، فقد كشف المستشرق « برومينولش » أخطاء « مرجليوث » فى بحث بعنوان « فى مسألة صحة الشعر الجاهلى » ، وهكذا قام المستشرق « أربرى » فى كتابه « المعلقات السبع » بتلخيص أدلة « مرجليوث » ونقضها عليه . وكان ممن ردوا على مقال طه حسين : محمود محمد شاكر ، والدكتور محمد مصطفى هدارة .

١٢ - الدكتور « روبرنز » : إنجليزى له كتاب « القوانين الاجتماعية فى القرآن » .

١٣ - « برنارد لويس » : إنجليزى : عمل أستاذاً بجامعة لندن ، وله « العرب فى التاريخ » .

١٤ - « إيلى خدورى » .

١٥ - « بى . چيه . فاتيكوتيس » .

والثلاثة الأخيرون يكسبون عيشهم كأساتذة جامعيين ، يتخذون الإسلام والحضارة العربية موضوع اختصاص لهم ، بينما يجرى استخدام الصهيونية لهم - فى الوقت ذاته - لإفهام العالَم الناطق بالإنجليزية أن الإسلام من العوامل المساعدة على إفراز اللاسامية ، والإرهاب ، والطغيان .

وهذا الإرهاب مقصود به دفاع الفلسطينيين عن ديارهم ، والليبيين عن حقوق بلادهم ، والعراقى فى تطوير بلاده التقنى ، بينما ما يذاع عن الإرهاب الموجه من أمريكا ضد العرب فى أراضيهم لا يُذكر عنه شىء ، كما لا يذكر ما يجرى داخل أمريكا من الإرهاب العنصرى .

وثَمَّ كتاب « الإرهاب .. كيف يمكن للغرب أن ينتصر » ألقيت معظم بحوثه فى معهد « جوناثان » بواشنطن لدراسة الإرهاب ، ألفه « بنيامين نتنياهو » سفير

إسرائيل سنة (١٩٩٠) بالولايات المتحدة الأمريكية ، وشقيق « جوناثان نتنياهو » الذى باسمه المعهد ، والذى قتل من بين فرقة الكوماندوز الإسرائيلية التى أغارت على « عنتيبة » فى يوليو (تموز) ١٩٧٦ .

وفى هذا الكتاب بحوث لأولئك المستشرقين الثلاثة : « برنارد لويس » ، و« إيلى خدورى » ، و« بى . چيه . فاتيكوتيس » .

١٦ - « بالمر » : حقق ديوان البهاء زهير المكى القوصى ، كما أصدر ترجمة كاملة له فى جزء مستقل ، وصدر الجزءان فى كمبردج عام ١٨٧٦ (١) .

١٧ - « برلاند لويس » : مستشرق إنجليزى ، يعمل فى الأوساط السياسية فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وبخاصة بعد حرب ١٩٦٧ الإسرائيلية المصرية ، ورغم أنه متقاعد ، فإنه يعمل الآن (عام ١٩٨٩) أستاذاً بجامعة « برينستون » ويتضح فى أعماله التشكيك والتشويه لأخبار العالم العربى ، وهو يركز على أن العالم العربى والإسلامى فى صحوته الحاضرة يهدد دول الغرب وحضارتها .

ومحور دراساته الاستشراقية هو القضايا المعاصرة مثل الصراع العربى الإسرائيلى ، فهو يعطى لهذه القضايا أبعاداً استشراقية ، ولكن حسَّه الأدبى والنقدى ليس متطوراً وإنما يشوب الابتذال قراءته للنصوص .

وهو يدَّعى أن كتاب « الاستشراق » لإدوارد سعيد توصية للسلطة الأمريكية بإصلاح سياستها فى الشرق الأوسط ، رغم كونه معارضاً للسُّلْطة (٢) .

١٨ - « كريستوفر سكيف » : عمل أستاذاً فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وجاسوساً محترفاً فى وزارة المستعمرات البريطانية ومنصِّراً ثقافياً ، وكان عدواً مبيناً للعروبة والإسلام (٣) .

---

(١) مجلة الفيصل فى (ربيع الأول ١٤٠٠ هـ) ص ١١٣

(٢) الدكتور إدوارد سعيد فى محاضرة له بالجامعة الأمريكية بالقاهرة فى مارس ١٩٨٩

(٣) أحمد عبد الغفور عطار : الزحف على لغة القرآن ص ١٠٩

١٩ - « نيڤيل باربر » : عمل بالقاهرة عدة سنوات مديراً لمكتب الإذاعة البريطانية إبَّان الحرب العالمية الثانية ، ثم فى عام ١٩٥٠

٢٠ - « أربرى » : وهو « بروفسور » فى مدرسة الدراسات الشرقية الإفريقية بلندن ، وقد أشرف على رسالة توفيق الحكيم ، عن أدب المهجر .

٢١ - « هاملتن جب » كان أستاذاً فى جامعة أكسفورد ، وقد نشر سنة ١٩٢٨ سلسلة مقالات بعنوان « دراسات فى الأدب العربى الحديث » بمجلة مدرسة اللُّغات الشرقية .

٢٢ - « غيوم » : له كتاب « تراث الإسلام » ، وهو أستاذ بجامعة كمبردج .

٢٣ - « سارجنت » : بجامعة كمبردج - اهتمامه بجنوب جزيرة العرب واليمن وحضرموت وعدن .

* * *

بيان بعض الهيئات الأجنبية
القائمة بالتبشير المسيحى

يوجد فى العالَم أكثر من خمسة آلاف مؤسسة تبشيرية (تنصيرية) توجهها دول الغرب المسيحى لغزو العالم الإسلامى الآن .

وفى أندونيسيا وحدها أكثر من ٢٥ هيئة كبيرة تقوم بالدعوة إلى النصرانية بين المسلمين وغيرهم ، ومنها :

١ - خدمات المعونات الكاثوليكية : وتشتهر باسم « كاثوليك ريليف سرفيسز » ومركزها الرئيسى چاكرتا ، ولها ممثل إقليمى ، كان يوماً هو القس أيوجيه س . م . .

وهذه الهيئة تقدم معونات تُشرف عليها عدة لجان مثل لجنة قطاع الأغذية ، ولجنة المنتجات الزراعية ، وقطاع الشئون الصحية .

وتقوم الحكومة الأمريكية بتقديم المواد الغذائية لها ، بينما يقوم مجلس الإرساليات الطبية الكاثوليكية بتقديم الأدوية والمستحضرات الطبية ، وتتولى أسقفية أندونيسيا مهمة النقل الداخلى ، وقد بدأ نشاط خدمة المعونات الكاثوليكية عام ١٩٦٢ .

٢ - مجلس الإرساليات الطبية الكاثوليكية : ويشرف على مستشفى « البابتسست » فى « چاكرتا » بجاوة .

٣ - مجلس اتحاد الكنائس الأندونيسى : وعنوانه جاكرتا ص . ب : ٥٢

ويقوم بتقديم معونات غذائية إلى ٩٩ ألف شخص ، وبمعونات آلية ، وتكنيكية لبعض مشروعات التنمية الاقتصادية . سواء فى قطاع الزراعة ، أو قطاع الصناعة .

وتدل إحصائية مجلس الكنائس فى أندونيسيا لطائفة « البروتستانت » على

أن عدد الكنائس البروتستانتينية – حتى عام ١٩٧٢ – قد بلغ ٩٣٫٢١٢ كنيسة ، والقساوسة ٢٣٩٧ قسيساً ، والمبشرون بالنصرانية ٦٥٠٤ مبشراً [(١)] .

٤ – لجنة « ميويلت » المركزية بجزيرة تيمور : وتقوم بالتدريبات الزراعية ، ويساعدها مجلس اتحاد الكنائس الأندونيسى .

٥ – إرسالية الآباء « كرتوسير » : أو « كروسير فادنرس » ومجال نشاطها فى إيريان الغربية ، ومقرها مدينة إجاش ويتبعها قطاع للتعليم الفنِّى وقطاع للمعدات والمساعدات المادية ، وقد بدأ تنفيذ برنامج الهيئة بإنشاء المدارس فى عام ١٩٥٧

وتدير الإرسالية عدداً من المدارس فى مقاطعة « اسمات » يتعلم بها حوالى ٢٩٠٠ تلميذاً ، كما تقوم ثلاث راهبات بتعليم التدبير المنزلى فى « إجاش » لأربعين طالبة .

٦ – هيئة كنيسة « إيڤا نجليكال كوفينات الأمريكية » : وهى هيئة تدين للكنيسة الإنجيلية الأمريكية بالولاء ، ومقرّ إدارتها « مانادو » – بمقاطعة « سولاويس » الشمالية ، وتقوم بأعمال التنصير فى صورة نشاط طبِّى ، فلها ١٢ عيادة طبية ومستشفى ولادة ، كما يقوم بعض رجالها بالتدريس فى المدرسة الطبية بمدينة « مانادو » .

وتتعاون معها كنيسة « إنجيلى » ، وكنيسة الأخوة بأمريكا الشمالية ، وقد بدأ نشاط هذه الهيئة سنة ١٩٥٧

٧ – هيئة « جرايل » فى جاوة : وهى تؤدى نشاطها منذ عام ١٩٦٢ من خلال ما يسمى « التربية الاجتماعية » ، ومن خلال مخالطة طُلاب جامعة « عاجاه مارا » ، وعن طريق دعم مكتبات الطُلاب بالجامعة وغيرها .

ويشارك الطلبة الأمريكيون الذين يدرسون فى أندونيسيا فى نشاط الهيئة بإعداد المكتبات ، ومراكز الإعلام وقاعات المطالعة .

---

(١) المجتمع : العدد ٢٤٩ – ١٣ مايو ١٩٧٥

٨ - جمعية « منونيت » المركزية : ومقرها جاوة ، وعنوانها البريدى « جالان بنجاوى » ص . ب : ٤٨ ، ونشاطها فى الشئون التربوية ، بتقديم المنح الدراسية ، وإدارة مراكز للتدريب ، والتعاون بين الجامعات والمختبرات والمعامل والمجتمع ، كما يتبعها قطاع للشئون الصحية ، يأخذ صورة المعونات الزراعية الطبية ، وتتعاون معها هيئة خدمات الكنيسة العالمية .

٩ - كنيسة « الميتو ديست » : تقع فى سومطر - جالان هانج تواه - وتساعد عشرات المدارس الابتدائية ، ورياض الأطفال .

١٠ - إرسالية الصداقة للطيران « ميشونارى أفيشن فيلوشب » ومقرها : ايريان الغربية . سنتانى ، وقد أعدت خمس طائرات فى السبعينيات تتسع كل طائرة لستة ركاب وطائرة أخرى تُقِلُّ أربعة ركاب ، وطائرة أخرى تُقِلُّ ثمانية ركاب ، وذلك لنقل المنصِّرين إلى الأماكن النائية .

وتمتلك هذه المؤسسة شبكة مواصلات لاسلكية لتنسيق أعمال الإرساليات ، وللاتصالات السرِّية الضرورية ، كما تتبعها مطارات فى (سنتانى - نابير - وامينا - بوكنديدنى - باواساكور) .

١١ - دار للنشر : تسمى « كوميشيان وورلد ليتراسى آند كريشان ليتروتشر » وتنشر هذه الدار - سنوياً - خمسين كتاباً فى مختلف الموضوعات للأطفال فى كل مرحلة ، وقد تم تدريب عدد من التايلانديين والفيلبيين على القيام بالشئون الفنية الخاصة بنشر الكتب الدينية ، بمعرفة المستشرقين المهرة ، وتتعاون هذه الهيئة مع مجلس الكنائس العالمى الألمانى ، ومع مجلس الكنائس الهولندى .

بينما طلب المجلس الأعلى الأندونيسى للشئون الإسلامية ، مصاحف باللُّغة الأندونيسية من الدول العربية ، فلم يصله من الدول العربية سوى (١٤٠٠) نسخة فقط حتى عام ١٩٧٥

١٢ - اتحاد المؤسسات التعليمية التربوية بأندونيسيا : ويقوم بالمساعدات التعليمية على المستوى الجامعى ، والتعليم العالى .

١٣ - « كريستيان ميشونارى ألايتز » : ويقع نشاطها فى إيريان ، وقد أسست عدة مدارس ابتدائية .

١٤ - جيش الخلاص ، ومقره : جاوة - باندونج - جالان جاما : ويقدم إلى المنظمات العالمية المشتغلة فى حقل التنصير ما تحتاج إليه من الرجال والأموال ، وعلى رأس هذه المنظمة الكولونيل « أ . كوربورتى » - وتقوم بالتنصير عن طريق النشاط الصحى ، والرعاية الاجتماعية ، بإقامة الملاجئ ، مثل ملجأ « سورابايا » ، ومثل مستعمرة المشرَّدين فى « سيارانج » ، ومثل بيت الفتيات فى سومطرة .

١٥ - وهناك مؤسسات أخرى تقوم بعملها التنصيرى عن طريق الخدمات الطبية للمستشفيات التابعة للهيئات التنصيرية ، منها الجمعيات المشهورة باسم « مؤسسة المعونة المباشرة » وتتعاون معها هيئة معونة « لوثر » العالمية التى بدأت نشاطها عام ١٩٥٦ ، وفى شئون النقل البحرى : منظمة المعونة العالمية .

١٦ - هيئة الأدوية لأندونيسيا : وتقدِّم اللَّبن المجمَّد لتلاميذ المدارس الابتدائية ، والمعونات الطبِّية لمشافى الإرساليات التنصيرية ، ويوجد واحد من هذه المستشفيات التنصيرية بجزيرة كاليمنتان الغربية ، وهو مزوَّد بكل شىء حتى بمطار خاص ، وكذلك يوجد مستشفى على بُعْد ٥٠ كم من « سامنكا وانغ » - ثم مستشفى للبابتست مجهز بكل شىء حتى المطار الخاص .

وحاول المسلمون إقامة مستشفى مماثل على ثمانى مراحل منذ عام ١٩٦٩ ، ولم يتم سوى مرحلتين حتى عام ١٩٧٥ ، ويلاحظ أن كل هذه المؤسسات الضخمة قامت بعد اعتقال جمال عبد الناصر للإخوان المسلمين فى يناير ١٩٥٤ ثم أكتوبر ١٩٥٤ ، وقد ترسمت هذه المؤسسات خُطَى الإخوان فى التعليم والمستوصفات والرعاية الاجتماعية والدعوة بالمقالة المكتوبة والمسموعة .

* *

● فى السنغال :

عمل الاستعمار الفرنسى على سلب السنغال مقوِّمات الحياة ، ثم أخذ يُلقى الفتات للفقراء من أهل السنغال فى صورة معونات غذائية ، من الأرز والسمن والدقيق ، ويشترطِ لذلك أن تتنازل الأسرة المحتاجة إلى المعونة عن أحد أطفالها للكنيسة ممن لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، لتربيته فى مدارسها حتى الجامعة ، ثم تمنحه الجنسية الفرنسية ، ليعود إلى السنغال - وله امتيازات الفرنسى الحاكم ، ويُكتب عقداً بهذا يُنص فيه على إلزام الأسرة دفع المعونات التى تسلمتها إذا هى طالبت بطفلها قبل أن يتم تنصيره وتعليمه الجامعى .

* *

● مبادئ البانتشا سيلا « ميثاق الطوائف الدينية » :

نظراً لاستعلان حِدة العمل التبشيرى المثير للمسلمين ، فقد عُقِد فى نوفمبر ١٩٦٧ اجتماع بين ممثلى الديانات الكبرى بأندونيسيا ، التى يمثل السكان المسلمون فيها ٩٠ ٪ بينما الباقون خليط من النصارى والبوذيين والهنادكة والكونفوشيوسيين والكيباتينان - أتباع الكيرتشيان . وهم فرقة باطنية تسمى « الميستيك » ، ومذهبهم خليط من الإسلام والصوفية الهندوكية والبوذية والفارسية .

وأسفر الاجتماع عن قرارات سميت « مبادئ البانتشا سيلا » وهى تقرر أن لكل إنسان حق التدين ، ولكنه لا يعنى تنصير المسلمين ، وحسب النصارى أن يدعوا لدينهم بين الوثنيين ، ولكن النصارى لم يستجيبوا لهذا القرار ، وقالوا : إننا لا نستطيع أن نُحلَّ أنفسنا من واجب القيام بالأمر الإلهى الذى يأمرنا بأن

ننشر الإنجيل فى كافة أنحاء المعمورة ، دون استثناء منطقة أو جماعة من الجماعات ، واعتبروا التبشير حقاً من حقوق الإنسان المعاصر .

* *

● تعاون المستشرقين مع الشيوعية :

فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن واجهت هولندا حركة إسلامية وطنية تعارض التسلط الاستعمارى الصليبى ، وعجزت هولندا عن مواجهة المد الإسلامى التحررى الذى بلغ غايته عندما تأسست أول منظمة إسلامية « شركت داكنج إسلام » . . وظهرت العلاقات الطيبة بين مسلمى « اتجه » وسلطانها وبين كل من سومطرة والخلافة العثمانية .

واستقر تفكير ساسة هولندا على تجنيد المستشرق الهولندى « ستوك هوروجونجى » لدراسة خطة تعجز الحركة الإسلامية عن المسير إن لم تقتلها ، وهبط المستشرق « سنوك » على أرض سلطنة « اتجه » مركز التأثير الواسع على الحركات الإسلامية ، يدرس الأمر على الطبيعة ثلاث سنوات ، ونشر تقاريره فى كتاب سماه « اتجه » ، أشار فيه إلى نقط الضعف التى اكتشفها فى المجتمع الإسلامى والحركات الإسلامية فى أندونيسيا ، وقال : إن هذه الحركات لا يمكن ضربها من الخارج والقضاء عليها بقوة الجيش واعتقال زعمائها وإلغاء نشاطها ، إذ أن العقيدة الإسلامية متمكنة من نفوس المسلمين ، ولهذا وجب أن يكون الاتجاه إلى ضربها من الداخل عن طريق زرع بذور الخلاف فى صفوفها ، وتشكيك القائمين عليها ، وتوريد آراء وعقائد جديدة إلى المنطقة . وأهم هذه الآراء نشر التيار القومى والتيار الماركسى

فعن طريق القومية تنحل الروابط بين « اتجه » و« سومطرة » ، أو بينها وبين

---

(١) ذوى معتقدات باطنية تسمى « الميستيك » وهى خليط بين الإسلام والصوفية الهندوكية والبوذية والفارسية .

« تركيا » ، وبينها وبين كافة القوى والشعوب الإسلامية ، كما تضعف قوة اندفاع الحركة الإسلامية العالمية بشل الحركة فى أندونيسيا .

أما التيار الشيوعى فهو كفيل ببث الإلحاد ، ونشر الفساد ، وشغل الوطنيين بمحاربته وبهذا ينشغلون عن قبضة هولندا ومؤسساتها ، فلقد أصبح من المخططات لإلهاء الشعوب عن السياسة المستبدة أو الاحتلال وألاعيبه إيجاد تيار شيوعى ، أو تيار خُلُقى منحرف ، تنشغل به الرعايا عن التفكير فى غيره ، ثم التظاهر بعدم الرضا عن هذه التيارات المنحرفة وضربها ضربات تخدرها وتعجزها . . ولكنها ليست ضربات قاضية ولا مميتة .

ولتنفيذ هذا المخطط استعانت هولندا الصليبية بالمهندس المعمارى الماركسى « سنيفليت » عضو الحزب الاشتراكى الديمقراطى الهولندى للقيام بتنفيذ الجزء الذى يخصه من تقرير المستشرق « سنوك » ، وسهلت السلطات له كل السبل التى تكفل له النجاح . . وأمدته بشخصية شيوعية أخرى تؤازره ، فأبحر إلى أندونيسيا من هولندا الشيوعى المهندس « بارس » ، ثم تم الاتصال بالمركز الشيوعى « الكومنترن » عن طريق الحزب الشيوعى الهولندى .

وفى سنة ١٩١٧ « أنشئ الحزب الاشتراكى الديمقراطى الهولندى بأندونيسيا » . . وفى سنة ١٩٢٢ تحولت جماعة « شركت إسلام » إلى حزب سياسى « حزب شركت إسلام » لمضاعفة قدرة العمل على مجابهة الشيوعية .

وعندما انهارت قوات هولندا فى أندونيسيا عند الهجوم اليابانى على شرق آسيا عام ١٩٤٢ صدر مرسوم يابانى فى إبريل ١٩٤٢ بحل جميع الأحزاب بما فيها حزب « شركت إسلام » ، وشاء الله أن تنهزم اليابان فتستسلم فى ١٤ أغسطس ١٩٤٥ فتنتهز أندونيسيا الفرصة لإعلان استقلالها ، وانتخب « أحمد سوكارنو » أول رئيس للجمهورية ، فكان أول رسالة أرسلها إلى « ستالين » هى تهنئة بذكرى ثورة أكتوبر قال فيها : « إننا نؤيد الاتحاد السوفييتى لأنه يحارب من أجل العدالة ، ويستهدف دوماً هدفاً شريفاً » ، وكان آخر ما قاله

بصفته رئيساً للجمهورية فى خطابه بالحفل الختامى للمؤتمر الشيوعى : « إننى ماركسى ، وأفتخر بذلك ، إننى أومن بالفلسفة المادية للتاريخ . فالمادية التاريخية علم وقاعدة وطريقة لمعرفة الحقائق والوقائع التاريخية .

« إن الشعوب التى تعيش بصورة بدائية على الزراعة تكون بطبيعة الحال محتاجة إلى دين تؤمن به ، وإلى إله تتوجه إليه ، ولكن متى وصلت هذه الشعوب إلى مستوى عصر الآلات والميكانيكا ، فإنها لا تحتاج إلى دين أو إله تؤمن به » .

وبعد بضعة أيام وفى الأسبوع الثالث من سبتمر ١٩٦٥ غادرت البلاد إلى بكين مجموعات من الشخصيات الهامة للاشتراك فى حفلات أول أكتوبر ، وهذه المجموعات تمثل :

١ - بعثة الأكاديمية الجوية . ٢ - بعثة الدفاع الوطنى .

٣ - بعثة التجارة والاقتصاد . ٤ - بعثة الصداقة .

وفى ٢٠ سبتمبر بدأت حركة الشيوعية فى السيطرة على الجيش والمرافق .

وفى صباح الجمعة أول أكتوبر ١٩٦٥ أذاع راديو « چاكرتا » فى الساعة السادسة بياناً عن الانقلاب الشيوعى برئاسة الرفيق « عيديد » رئيس الحزب الشيوعى و« عمر دانى » قائد سلاح الطيران ، و« دول عارف » الضابط المكلف بتنفيذ العملية ، وقامت « مذبحة الجنرالات المسلمين » لولا أن الله نجى الجنرال « أبو الحارث ناسوتيون » القائد العام ، والجنرال « سوهارتو » قائد القوات البرية ، فقاما بقواتهما بعملية مضادة آزرها الشعب المسلم ، فحبط الكيد الشيوعى الذى ظل عشرين عاماً للوصول إلى تصفية الإسلام .. وشغل الوطنيين ابتداءً عن المستعمر الهولندى ، وانتهاءً عن التسلل الشيوعى الماركسى ، صينى أو روسى ..

إن الشرق والغرب معاً يريدان للإسلام أن يموت كفكرة من الممكن أن تنبعث عالمياً ، وأن يموت كرسالة من الممكن أن تقدم حلولاً جديدة لمشاكل الإنسان ، وأن يموت كحضارة تملك طاقة جبارة قادرة على استعادة نفسها من بين أعتى مراحل الهزيمة والدمار .

ومن هنا نجد الجواب على ما رأيناه ممن يحاربون التعريب فى الجزائر وأنهم شيوعيون ، التقت رغبة الاستعمار الفرنسى وعملائه برغبة الشيوعية وعملائها .

* *

● رد فعل التبشير :

والملاحَظ أن الحملات التبشيرية المكثفة ضد الإسلام قد تثمر الإسلام ، ففى أكتوبر ١٩٧٧ اعتنق الإسلام (١٠٧) من أهالى قرية « فلوسوايو » بجاوة ، وهى قرية بوذية تتعرض لنشاط تبشيرى مسيحى مكثف ، ومثل هذا حدث فى إفريقيا ، بل وفى البلاد الأوروبية التى تعانى من حملات المستشرقين المغلفة باسم العلم .

ففى المعسكر الإسلامى الذى انعقد فى مدينة « أبها » عام ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨م) فى الجنوب الغربى للعربية السعودية وقد دعت إليه الندوة العالمية للشباب الإسلامى نخبة من شباب الإسلام فى العالم ، تحدث شاب من النمسا فى الثالثة والعشرين من عمره عن سبب إسلامه فقال :

« استمعت فى الجامعة إلى محاضرة عن الإسلام ألقاها أحد المستشرقين ، وأحسست أن المحاضر متحامل على الإسلام ، وهذا ما جعلنى متحفزاً لدراسة الإسلام دراسة ذاتية ، ثم اهتديت » [1] .

* *

---

(١) الاعتصام - جمادى الثانية ١٣٩٨ هـ (مايو ١٩٧٨ م) .

● جهود الملك فيصل :

أرسل الدكتور رءوف شلبى رسالة مطولة إلى الملك فيصل بعنوان « يا سارية الجبل » يشرح فيها قصة التبشير فى جنوب شرق آسيا ، ويطلب منه القيام بإنشاء مدرستين إسلاميتين على غرار مدارس التبشير ، واستجاب الملك وأرسل له ما بنى مدرستين إسلاميتين بمدينة « بالمبانج » فى شارع « كنتن » بسومطرا - لا تزال تخرجان أفواجاً من شباب الإسلام وشاباته .

* *

● وفى روسيا :

وقد عرفت روسيا علوم الشرق الإسلامى بعد غزو « چنكيز خان » للعالم سنة ١٢٢٤ م . إذ ألقى عصا الترحال هناك ، واعتنق « بركة خان » المغولى عقيدة الإسلام فدخل معه أهل مملكته « التون إردا » فى الإسلام ، وكانت تضم ثلاثة أرباع روسيا . وبهذا فإن بذور الثقافة الإسلامية عميقة فى الأُمة الروسية بالرغم من أعنف أعمال استئصالٍ واجهتها ، جنَّدت لها الصليبية ثم اليهودية كل طاقاتها .

وحين ظهر الاستشراق - وهو الأسلوب الجديد للغزو الفكرى - وأحاطت أنظمته بالبلاد المجاورة لروسيا - وبخاصة فرنسا - آثرت روسيا أن تجرب هذا الأسلوب الجديد ، فأرسل المسيحى المتعصب « بطرس الأول » إلى الشرق خمسة شبان ليتعلموا العربية ، ثم جاءت الملكة « كاترين » فأمرت بتعليم العَربية عام ١٧٦٩م ، واتصلت روسيا بالمدرسة الهولندية الاستشراقية ، وأفادت منها .

وكان للمستشرقين « بير » (١٦٩٤ - ١٧٣٨) ، و« كر » أحد مترجمى وزارة الخارجية الروسية دراسات واسعة فى علوم الشرق والإسلام .

وفى أوائل القرن التاسع عشر أنشئت منابر للغة العربية فى أشهر جامعات روسيا « قازان - موسكو - بطرسبرج » ، كما أنشئت منابر أخرى فى المدرسة التهذيبية العليا ومعهد « خركوف » ، ثم انتقل قسم اللُّغة العربية من « جامعة

---

(١) الإسلام وأرخبيل الملايو - المقدمة ص (ف) - الطبعة الأولى .

قازان » إلى « معهد الرهبان الأرثوذكس بمدينة « قازان » ، ليمنح الطُلاب القدرة على الموازنة بين القرآن والإنجيل فى التعبئة التبشيرية .

وفى عام ١٨٥٤ أنشأت عائلة « دى لازارف » الكلية الأرمنية - وهى أسرة لجأت إلى روسيا حينما اضطُهدت فى بلادها ، وقد انتقل إلى هذه الكلية قسم اللغة العربية من « جامعة موسكو » ، واعتُمد فى « جامعة بتروغراد » كرسى للدراسات الشرقية ، وظلت كل هذه الدراسات حتى ثورة أكتوبر ١٩١٧

وكان من الطبعى أن تتأثر حركة الاستشراق وغاياته فى روسيا بحركة وغايات الاستشراق فى أوروبا ، كما تأثرت روسيا بالفكر التحررى .

وكان من الطبعى كذلك أن ينشأ ردّ فعل لآثار الاستشراق والفكر الغربى التحررى بين المسلمين فى روسيا الآسيوية .

قال المستشرق « بيار روس » : ولا يسع المرء أن يتناسى أنه حتى قبل اندلاع الثورة الروسية فى « سان بيترسبورغ » وفى « موسكو » كانت آسيا الوسطى بالفعل متأثرة على نحو عميق بأهداف الشيوعية ، ولكن من منطلق إسلامى عميق الجذور ، فظهرت بين المسلمين حركة تدعو إلى التحرر ، وتناهض الاستعمار .

وكان أبرز ممثلى هذه الحركة السلطان « غالييف » التترى ، وأصله من « قازان » ، وكان يتطلع إلى مدّ الثورة إلى الشرق العربى والتركى بأسره ضد الإمبرياليات الرأسمالية ، وذلك باسم الإسلام والثقافة القرآنية .

وقد بدأ بمحالفة « ستالين » ولكن غدر به الشيوعيون الماركسيون وانتهى به الأمر إلى إبعاده ثم إعدامه فى ظروف غامضة .

وكان المسلمون يحملون حركة التقدم العلمى والتقنى مما دعا « لينين » إلى أن يعمل لهم ألف حساب ، فهم إلى جانب التقدم العلمى كانوا وقود حركة التحرر من كل مظاهر التخلف والطغيان القيصرى فى الجيش الأحمر ، ومن

أشهر فرقهم تلك التى قادها الجنرال « فرونزه » لتحرير الثورة من براثن الثورة البيضاء .

ومما ينبغى التنبه له - كما يقول المستشرق « بيار » - أنه على عكس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية التى أطلقت الحروب الصليبية من عقالها فى القرن التاسع الميلادى ، وهى الحرب التى ما زالت مستمرة من بعض النواحى - كانت القيصرية والأرثوذكسية بعيدتين عن هذه الحروب الصليبية . فقد كان كثيرون من الأمراء الروس ينتمون إلى أُصول إسلامية وعربية ، وقد جاء فى مذكرات الأمير « يوسفوف » : إن سجلات أُسرتى تعزو تأسيسها إلى رجل يقال فيه إنه من نسل علىّ بن أبى طالب ، وقد مارس خلفه ذروة السُلْطة فى مصر وفى سوريا ، ومثوى بعض هذه الذُرِّية فى مكة ، بينما لا نجد شيئاً من ذلك القبيل فى الأسر الحاكمة لأوروبا الغربية .

كما أن « سمرقند » تحظى بضم قبر أحد الأئمة الشيعة الذى يدعى هناك « دار الملك الباقى » ، كما أن العلاقات بين روسيا والعالَم الإسلامى كانت منذ ما يربو على ألف عام - ولا تزال - مستمرة ، وحركة الغدو والرواح لا تنقطع بين « سمرقند ، وبخارى ، وطشقند ، وفرغانة (قرجانة) ، واشخاباد ، وخيفا » . . إلخ ، وبين إيران ، وأفغانستان ، والعراق ، وتركيا ، وسوريا ، وفلسطين ، ومصر [1] .

ولما قامت الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧ جمعت من المخطوطات العربية والشرقية نحو خمسين ألفاً ، وشجعت المستشرقين على المضى فى أبحاثهم ، وذلك بُغية التعرف على طبائع الشرقيين لرسم سياسة أفضل معهم .

* *

(١) مجلة الحوادث : ٢٩/ ١٠/ ١٩٧٩

● فى غزو أفغانستان :

وحين غزت قوات السوفييت الأفغان لمناصرة نظام الحكم الشيوعى قام العلماء والمؤرخون السوفييت الذين يجرون أبحاثاً فى أفغانستان بنقل المادة الأثرية وغيرها من التراث الثقافى الأفغانى سراً إلى الاتحاد السوفييتى .

كما أن الباحثين والمؤرخين السوفييت المقيمين فى كابول - بدعوى كتابة تاريخ أفغانستان من زاوية جديدة - يقومون بحرمان البلاد من تراثها التاريخى والثقافى بما فى ذلك بعض المخطوطات النادرة ، وهم يرسلون هذه المادة الأثرية الإسلامية إلى الاتحاد السوفييتى .

ومن الجدير بالذكر أن نقل هذه الآثار إلى روسيا لا يواجه أية مشكلة ، حيث أصدرت حكومة « كارمل » بمناسبة الذكرى السنوية للصداقة « الأفغانية - السوفييتية » أوامر بعدم تفتيش حقائب السوفييت القادمين والمغادرين لأفغانستان ، فى الوقت الذى يُعفى فيه هؤلاء السوفييت من قيود التأشيرات والجوازات .

* *

● وفى أمريكا :

١ - من المستشرقين المبشرين « ولتر دارم » (١٨٧١ - ١٩٢١) وقد أصبح قساً فى سنة ١٩٠٤ ، وألقى أولى محاضراته عام ١٩١٤ فى « شاعرية إسرائيل » وألحقها بموضوع « مسيح القرن العشرين وكتب موسى الخمسة » .

٢ - « شارلز آدمز » ولد عام ١٨٨٣ ، وعين فى عام ١٩١٦ عميداً للمدرسة اللاهوتية بالعباسية بالقاهرة ، ورسالته للدكتوراة هى التى نَشر محتَوياتها المسمومة الشيخ على عبد الرازق فى كتابه « الإسلام وأصول الحكم » وقد ترجمت الرسالة بعنوان « التجديد فى الإسلام » (القاهرة ١٩٢٦) .

وحسبك أن تعلم عن علاقة أمريكا والسياسة الأمريكية بالتبشير أن مؤتمر « أدنبرج » التبشيرى كان عدد المندوبين الأمريكيين فيه (٥٠٥ مندوباً)

وذلك من مجموع أعضاء المؤتمر البالغ عددهم (١٢٠٠) ألف ومائتا عضو كان من بينهم مستر « روزفلت » رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأسبق ، وإن أرسل اعتذاراً عن عدم استطاعته الحضور ، وحضره مستر « براين » الخطيب الأمريكى المشهور الذى رشح نفسه لرئاسة الجمهورية .

* *

● **ومن المعاصرين :**

١ - الدكتور « بايارد دودج » : مدير الجامعة الأمريكية ببيروت سابقاً والأستاذ بجامعة « برنستون » .

٢ - « هاورد ريد » : أمريكى نشأ فى بيئة تبشيرية فى تركيا ، وتخصص فى التاريخ الإسلامى والشئون التركية ، وعمل أستاذا ببعض الجامعات الأمريكية ، ثم ممثلاً لمؤسسة « فورد » فى بيروت .. له بعض المقالات .

٣ - الدكتور « ميلر بروز » : رئيس قسم لغات الشرق الأدنى وآدابه ، وأستاذ الفقه الدينى الإنجيلى فى جامعة « ييل » ، وكان أستاذاً بجامعة « براون » ، وأستاذاً زائراً بالجامعة الأمريكية ببيروت ، ومديراً للمدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية بالقدس .

٤ - الدكتور « هارولد ب . سميث » : أستاذ ونائب رئيس قسم الديانات بكلية « ووستر » بولاية « أوهايو » ، وكان رئيساً لقسم الفلسفة والأخلاق بالجامعة الأمريكية بالقاهرة .

٥ - الدكتور « چوستاف فون جروبنادم » : أستاذ اللُّغة العربية بجامعة « شيكاغو » .

٦ - الدكتور « روفائيل باتاى » : مستشار سابق فى شئون الشرق الأوسط بقسم الشئون الاجتماعية بهيئة الأمم المتحدة ، ومحاضر زائر بقسم اللُّغات والآداب الشرقية بجامعة « برنستون » وأستاذ الأنثروبولوچيا بكلية « درويس » بولاية « فيلادلفيا » .

٧ - الدكتور « شارلز ماثيوز » : عضو قسم البحوث بشركة البترول العربية الأمريكة بالظهران ، ومتخصص فى الشئون العربية ، وكان ملحقاً للعلاقات الثقافية بوزارة الخارجية الأمريكية فى القاهرة ، وأستاذاً للعلوم الإنسانية بجامعة « رولاندز » بولاية « كاليفورنيا » .

٨ - الدكتور « جون ر . كرسويل » : أستاذ الفلسفة بجامعة « وست فرجينا » ، ملحق للعلاقات الثقافية فى بيروت .

٩ - الدكتور « هارولد ب . ألن » : مدير قسم التربية بمؤسسة الشرق الأدنى ، وكان مدير إدارة التعليم بمنطقة القوقاز فى مؤسسة إعانات الشرق الأدنى ، وبالمركز الرئيسى لتلك المؤسسة فى اليونان ، كما كان عضو بعثة « مترو » للتربية إلى إيران ، ومستشاراً فنياً ببعثة تموين الشرق الأوسط ورئيساً لبعثة اليونسكو فى الدول العربية .

١٠ - الدكتور « كارلتون س . كون » : أستاذ الأنثربولوچيا بجامعة « هارفارد » ، وأمين قسم علم الأجناس فى متحف « بنسلفانيا » .

١١ - الدكتور « جون أ . ويلسون » : أستاذ التاريخ المصرى القديم بجامعة « شيكاغو » ، ورئيس الجمعية الأمريكية الشرقية . وقد حاز جائزة « فولبريت » للبحوث العلمية بمصر .

١٢ - الدكتور « فيليب حتى » : وأصله لبنانى هاجر عام ١٩٢٠ إلى أمريكا وصار أستاذ التاريخ العربى بجامعة « برنستون » .

١٣ - الدكتور « لويس ف . توماس » : أستاذ اللُّغة التركية والتاريخ التركى بجامعة « برنستون » .

١٤ - الدكتور « ريتشارد نلسون فراى » : أستاذ دراسات الشرق الأوسط بجامعة « هارفارد » .

وهؤلاء ومعهم « الفرد كارلستون » ، و« كويلر يونج » و« كينيث كراج »

الآتى ذكرهم كانوا أعضاء أمريكانيين فى « مؤتمر الثقافة الإسلامية فى علاقتها بالعالم المعاصر » ، ومثلهم فى العدد من رجالات الفكر الإسلامى فى العالم الإسلامى . وقد دعت إلى المؤتمر جامعة « برنستون » ومكتبة الكونجرس الأمريكى ، وكانت الفائدة التى يستهدفها الأمريكان وضع أيديهم على الاتجاهات العامة للفكر الإسلامى فى العالم ، ثم توجيه هؤلاء الأعلام - فى ذكاء - إلى ما يريده الداعون إلى المؤتمر من تجميد التحرك الإسلامى الداعى إلى الشريعة الإسلامية نظاماً للحكم إقليمياً ودولياً (١) ومما اقترحه « روفائيل بتاى » : لجنة بحث موجهة تشكل من علماء الشرق الأوسط ومن العلماء الأمريكيين لبحث مشكلات التغيير الحضارى فى بلاد الشرق الأوسط وفهم القُوى التى تشكل الشرق الأوسط (٢) .

١٥ - الدكتور « ريتشارد ب . ميتشل » : هاجر والده الفلاح من لبنان إلى أمريكا فى عام ١٨٩٨ ، وتجنّس بالجنسية الأمريكية هو وأولاده الإثنا عشر ، وكان « ريتشارد » أصغرهم ، وقد التحق « ريتشارد » بالبحرية الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية ، وبعد تسريحه اهتم بدراسة التاريخ الإسلامى ، وتاريخ الشرق الأدنى .

وزار مصر - لأول مرة - فى عام ١٩٥١ حيث بقى فيها عاماً درس فيه اللغة العربية ، واهتم بدراسة الحركة العمالية ، لأنه كان قيادياً ، ثم زار مصر مرة ثانية ، وقادته دراسة « التيار السَلَفى عند رشيد رضا » إلى دراسة الإخوان المسلمين ، وكانت دراسته عن الإخوان للحصول على درجة الدكتوراة ، وقد تناولت جماعتهم من حيث تنظيماتها ، وأيديولوچيتها .

---

(١) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ، وهو مجموعة البحوث التى قدمت لمؤتمر « برنستون » . جمعها محمد خلف الله ص ١٨ - ٢٦ ، ص ٧٧

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٢

وقد عمل بالسلك الديبلوماسى الأمريكى ، قائماً بالأعمال فى السفارة الأمريكية باليمن الشمالى خلال السنوات التى سبقت ثورة ١٩٦٢ ، وكذلك شغل نفس المنصب فى الكويت ، ثم عمل أستاذاً للتاريخ المصرى والعربى الحديث بجامعة « ميتشيجان » .

١٦ - الأب « مكارثى » (١٩١٣) : ولد فى « سبرنج فيلد » بالولايات المتحدة سنة ١٩١٣ ، وتخرج من كلية « الصليب المقدس » فى الفلسفة من جامعة أكسفورد ، وانضم إلى الرهبنة اليسوعية سنة ١٩٣٣

١٧ - « ادوارد أبر » : أستاذ فى الجامعة الكاثوليكية فى « واشنطن » .

١٨ - « أدرين كالفرلى » : وهو أمريكى متعصب رأس تحرير مجلة « العالم الإسلامى » الأمريكية لفترة من الزمن ، ومن محررى دائرة المعارف الإسلامية ، ومن الذين باشروا التديس فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة عدة مرات ، وهو معروف باتجاهات تبشيرية سافرة .

١٩ - الأب « دوريجون » : ولد عام ١٩٢٤ فى « ديترويت » بالولايات المتحدة الأمريكة .

٢٠ - « أ . أ . الدر » : قسيس يُسهم فى تحرير « مجلة العالم الإسلامى » التى تصدر بالإنجليزية فى أمريكا .

٢١ - « الفرد كارلتون » : أمريكى كان مديراً لكلية حلب ، ثم عين نائباً لرئيس جمعية البعثات الأمريكية التبشيرية فى الخارج .

٢٢ - « أ . بشوب » : قسيس يُسهم فى تحرير « مجلة العالم الإسلامى » الأمريكية المعروفة بعدائها للإسلام .

٢٣ - « ل . ل . براون » : قس أمريكى يُسهم أيضاً فى تحرير « مجلة العالم الإسلامى » الأمريكية .

٢٤ - « ك . بيكنز » : قس أمريكى يُسهم أيضاً فى تحرير « مجلة العالم الإسلامى » الأمريكية .

٢٥ - « د . م . دونالدسون » : قس أمريكى يُسهم أيضاً فى تحرير « مجلة العالم الإسلامى » الأمريكية ، ومؤلف « دين الشيعة » سنة ١٩٣٧

٢٦ - « هاورد ريد » : أمريكى نشأ فى بيئة تبشيرية فى تركيا ، وتخصص فى التاريخ الإسلامى والشئون التركية ، وكان أستاذاً ببعض الجامعات الأمريكية ثم ممثلاً لشركة « فورد » فى بيروت ، له بعض المقالات ولا تُعرف له كتب .

٢٧ - الدكتور « كويفر يانج » أمريكى مارس التبشير فى إيران ، كان أستاذاً فى قسم الدراسات الشرقية ، ثم رئيساً له بجامعة « برنستون » فى أمريكا ، والآن مدير هذا القسم ، ومستشار وزارة الخارجية فى شئون الشرق الأوسط وبخاصة شئون إيران ، له مقالات متفرقة .

٢٨ - « جبرييل باير » : الأستاذ بالجامعة العبرية بالقدس المحتلة ، وله من الدراسات الشرقية « تاريخ ملكية الأرض الزراعية فى مصر » (١) .

٢٩ - « جون ماينارد » : أمريكى متعصب ، محرر فى « مجلة الدراسات الشرقية » الأمريكية وخاصة باب الكتب الجديدة التى لها صلة بالإسلام وبالشرق على العموم .

٣٠ - « س . م . زويمر » : مستشرق مبشر ، اشتهر بعدائه الشديد للإسلام ، مؤسس « مجلة العالم الإسلامى » الأمريكية التبشيرية ، ومؤلف كتاب « الإسلام .. تحدٍ لعقيدة » و« الإسلام » وهو مجموعة مقالات قدمت للمؤتمر التبشيرى الثانى عام ١٩١١ بـ « أكنو » فى الهند ، وتقديراً لجهوده التبشيرية أنشأ الأمريكيون وقفاً باسمه على دراسة اللاهوت وإعداد المبشرين .

---

(١) ريتشارد ميتشيل : الإخوان المسلمون - ترجمة صلاح عيسى فى تقديمه ، ص ٧

٣١ - « كينيث كراج » : حصل على الدكتوراة من جامعة « أكسفورد » بإنجلترا عام ١٩٤٧، والدكتور « كينيث كراج » أمريكى شديد التعصب ضد الإسلام ، قام بالتدريس فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، ثم عمل رئيساً لتحرير « مجلة العالم الإسلامى » الأمريكية التبشيرية ، ورئيساً لقسم اللاهوت المسيحى فى « هارتفورد » ومتعهداً لإمداد الجهات التبشيرية بالمبشرين ، ومن كتبه : « دعوة المئذنة » الذى أصدره عام ١٩٥٦ ، وعمل مديراً لبيت القديس « چوستين » ببيروت ، وعميداً لكلية « ونجورث » بإنجلترا ، وعمل بالتدريس فى جامعة « عيدان » بنيجيريا - كما عمل بالكنيسة الإنجيلية بالقاهرة عام ١٩٣٠.

٣٢ - سعيد قدورى : وهو عراقى الأصل ، ولكنه يرأس قسم دراسات الشرق الأوسط بجامعة « چون هوبنكز » فى واشنطن ، ويعمل مديراً لمعهد الشرق الأوسط للأبحاث والتربية بواشنطن ، وهو شديد التعصب والحقد على الإسلام ، ومن كتبه التى تنمُّ عن شخصيته هذه كتاب « الحرب والسلام فى الإسلام » .

٣٣ - الدكتور « كريمرز » : هولندى ، كثير الطعن فى الإسلام وصاحب ميول تبشيرية سافرة وهو من محررى دائرة المعارف الإسلامية ، ومثله من محرريها : « أ . هـ . روجبوس » ، و« ل . أ . رل » و « هـ . ينبر » « وريث » المشهور بتخبطه فى عرض الإسلام

٣٤ - « نالينو » : إيطالى معروف بكتاباته ضد الإسلام ، كان عضواً بالمجمع العلمى العربى بدمشق [١] .

* *

(١) المبشرون والمستشرقون فى الإسلام ، للدكتور محمد البهى ص ١٦ - ٢٧

● هل انقطعت الصلة بين الاستعمار والاستشراق والتبشير ؟

زعم بعض المستشرقين والمتأثرين بكتاباتهم من العرب أن مرحلة الحقد كانت ناشئة عن شعور بالحقد على المسلمين ناشئ عن الشعور بالنقص ، فلما أمسك الغرب بزمام القوة بردت نار الحقد ، وأصبحت دراسات أكاديمية . . وهذا غير صحيح لعدة اعتبارات وبراهين :

١ - استمرار بقاء كثير من المؤسسات التبشيرية الاستعمارية بين ظهرانينا كمدارس الإرساليات والجامعات الأمريكية بالقاهرة وبيروت واستانبول .

٢ - أن المستشرقين فى كل البلاد الاستعمارية تقريباً يتبعون وزارة الخارجية ، ولا يزالون كذلك مثل « ميتشيل » الذى أصدر فى السبعينيات كتابه « الإخوان المسلمون » ، مما يدل على أن مهمتهم سياسية وليست علمية ، فـ « أنتونى إيدن » رئيس وزراء إنجلترا السابق الذى شغل من قبل منصب وزير الخارجية ، وأسهم فيما بعد فى العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ لم يكن يتخذ قراراً سياسياً يتصل بالشرق الأوسط إلا بعد الرجوع إلى المستشرقين من أساتذة جامعة « أكسفورد » ، وكلية العلوم الشرقية من أمثال « مرجليوث » ، كما أن المستشرقين اليهود لا يزالون يعملون لتحقيق أهداف الصهيونية العالمية ، فقد أشاد « يورى إيفانوف » اليهودى الماركسى فى كتاباته بقول « بيجن » أمام ممثلى الجيش الإسرائيلى فى ٢٨ أكتوبر ١٩٥٨ : « أنتم أيها الإسرائيليون يجب ألا تكونوا رءوفين عندما تقتلون عدوكم ، عليكم أن لا تشفقوا عليه ما دمنا لم نقض بعد على الحضارة العربية (الإسلامية) التى سنبنى على أنقاضها حضارتنا »

وليس ببعيد تلك المؤتمرات اليهودية الأمريكية التى عُقدت فى الإسكندرية وبعض العواصم الغربية ، واشترك فيها بعض الشيوعيين المصريين بهدف أو تحت مظلة الدراسات النفسية المطلوبة من أجل وجود حالة طبيعية بين العرب وإسرائيل فى أواخر السبعينيات ثم أوائل الثمانينات .

٣ - وقد أشار الدكتور على حسنى الخربوطلى إلى أن الاستشراق والاستعمار قد يلتقيان أحياناً فى طريق واحدة إذا دعت الحاجة ، أو حتّمت

الضرورات السياسية ذلك ، وأن المستشرقين ركزوا مؤخراً على الدول الإفريقية الآسيوية غير العربية ، ووجدوا فيها مجالاً جديداً يصولون فيه ويجولون بسبب ظروفها المحلية واستمرار ارتباط بعضها بالدول الاستعمارية بروابط سياسية ، وذلك بعد أن بارت كتاباتهم فى البلاد العربية بسبب يقظة أبنائها لدسائسهم ، وسطحية ما يكتبونه ، وعدم موضوعيته .

٤ - لا تزال هناك المجلات الاستشراقية والمؤلفات والبحوث ودوائر المعارف التى يحررها المستشرقون تقذف بالأكاذيب والمغالطات والشبهات على الإسلام وأهله ، ويستعينون بتلاميذهم فى بث هذه المفتريات ، بل ويحيون العصبيات العنصرية لتمزيق الشرق الإسلامى بين فرعونية فى مصر ، وبربرية فى شمال إفريقيا ، وكردية فى كل من العراق وإيران . . إلخ .

٥ - ولا يزال بعض المستشرقين المعاصرين يعترفون بما نقول ، فمثلاً يقول « برنارد لويس » : « لا تزال آثار التعصب الدينى الغربى ظاهرة فى مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ، ومستترة وراء الحواشى المرصوصة فى كتابات البعض الآخر منهم » .

ويقول « نورمان دانيل » : « على رغم المحاولات التى بذلها بعض الباحثين فى العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكُتَّاب المسيحيين عن الإسلام ، فإنهم لن يتمكنوا أن يتجردوا منها تجرداً تاماً كما يتوهمون » [١] .

* * *

(١) محمد عزت الطهطاوى : التبشير والاستشراق ص ٤٥ - ٤٦ ، والدكتور محمد عليان : أضواء على الاستشراق ص ١٦ - ١٨

الفصل الثانى

تاريخ الاستشراق

- في الأندلس .
- في فرنسا .
- في صقلية .
- في إيطاليا .
- في إنجلترا .
- في روسيا .
- في النمسا .
- في الدانمارك .
- في المجر .
- في هولندا .
- في أمريكا .

تاريخ الاستشراق

● فى الأندلس :

اتصلت أوروبا بالثقافة الشرقية عن طريق الفتوح الإسلامية فى القرن السابع الميلادى وما بعده ، ثم عن طريق الصراع الذى يسمى بالحروب الصليبية [1] حيناً ، ويسميه الصليبيون واليهود والوثنيون والمصبوغون بثقافتهم بالاستعمار أو المطامع الاستعمارية حيناً آخر ، وذلك بُغيةَ التخفيف من حدة المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى أو اليهودى أو الوثنى ، بصرف القلوب الإسلامية عن حماستها تجاه الغزاة الصليبيين وحلفائهم إذا ما قرعت آذان المسلمين كلمة « الحروب الصليبية » ؛ فإن الصراع على الدنيا لا يساوى فى نظر عوام المسلمين فلساً ، والعفو من شِيَم الكرام ، وشعارهم : ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ﴾ [2] ، ولهذا فإنه عندما يقال « استعمار » أو مجرد نهب واستغلال اقتصادى فإن عامة المسلمين لا يتحركون للمقاومة ، ومن ثَمَّ كان استبدال لفظ الاستعمار فى كتب التاريخ وفى البيانات السياسية بلفظ « الحروب الصليبية » ، وكان التعليل للتحركات والغزوات الصليبية بأنه انطلاق وراء دوافع اقتصادية أو سياسية إنما هو لعبة بارعة فى تضليل المسلمين عن الحقيقة ، وهى إرادة السيادة الصليبية ، وقد بذل الصليبيون مجهوداً كبيراً فى تغيير كلمة الحملات الصليبية أو اليهودية إلى كلمة الاستعمار أو المطامع الإمبريالية أو العنصرية الصهيونية ، وبهذا أصبحت الكتب والصحف ووسائل الإعلام ، بل وكافة الشعوب الإسلامية ، لا تعرف شيئاً عن الحرب الضارية ضد الشعوب الإسلامية ، فلا تتابع أخبارها بحماسة دينية إطلاقاً .

---

(١) بدأت الحروب الصليبية سنة ١١٩٧م وانتهت الحرب الثامنة سنة ١٢٩٥م .

(٢) الضحى : ٤

وقد كان فشل الصليبيين فى حروبهم دافعاً إلى المزيد من الاهتمام بالدراسات الشرقية ، وكان القرآن هو أول ما صوّبوا إليه سهامهم ، وثَنُّوا برسول الله محمد ﷺ ثم الخلفاء الراشدين والصحابة وتاريخ الإسلام كله .

وقد أوجد هذا النوع من الاستشراق العدوانى - فى الكيد للإسلام - كما قال « رودى بارت » سنة ١١٤٣م - حين تـمّت أول ترجمة للقرآن إلى اللاتينية ، وأعقبها ظهور كتابات المستشرقين عن السيرة وعن بعض الشخصيات الإسلامية البارزة ، وذلك بُغية التأثير على المسلمين ليتركوا دينهم - فى حركة ظاهرها العلم وباطنها المكر [(١)] .

وفى الآندلس ، كانت ثقافة الإسلام مزدهرة ينهل منها الأندلسيون أو « الفندال » والأوروبيون بعامة ، فقد بلغ عدد معاهد التعليم فى عهد خلافة الحكَم بن عبد الرحمن (٩٦١ - ٩٧٦م) ما لا نظير له فى بلد أوروبى ، فقد كان فى قرطبة وحدها ٢٧ مدرسة منها مدرسة للطب ، عدا عدد من الكتاتيب ، وهكذا قُلْ فى المدن الأخرى .

هذا إلى جانب مكتبة « الحكَم بن عبد الرحمن » التى ضمّت زهاء خمسمائة ألف مجلد ، وقد شجعت الدولة الوِراقة والترجمة والتأليف بما لم يُسمع مثله فى غير التاريخ الإسلامى ، فقد اشترى بنو أُمية فى الأندلس النسخة الأولى من كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى بألف دينار من الذهب .

وفى مقال لـ « دوزى » : « إنه لم يكن فى كل الأندلس أُمِّى ، يوم لم يكن فى كل أوروبا مَن يُلِم بالقراءة والكتابة إلا الطبقة العليا من القساوسة » [(٢)] .

---

(١) د . محمد عبد الفتاح عليان : أضواء على الاستشراق ص ٩ - ١٠ ، ومحمد عبد الغنى حسن : الإسلام بين الإنصاف والجحود ص ١١٦ - ١١٧ - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠

(٢) المستشرقون ص ١٢ - الطبعة الثانية .

بل إن كثيراً من العرب تعلَّموا اللُّغة الاتينية مع اللُّغة العربية لينشروا بها ثقافتهم [1] .

ومن مدرسة طليطلة تخرَّج المستشرق « ميشيل سكوت » (١١٧٥ - ١٢٣٥م) وهو رئيس مكتبة فردريك الثانى ، وقد دعا « ألفونس » - ملك قشتالة - المستشرق « ميشيل سكوت » ليقوم بالبحث فى علوم المسلمين وحضارتهم ، فجمع « سكوت » طائفة من الرهبان فى أحد الأديرة ، وشرعوا فى ترجمة بعض الكتب من اللُّغة العربية إلى لغة الفرنجة ، ثم قدمها « سكوت » إلى ملك صقلِّية ، الذى أمر بأن تُنسخ منها نسخ ، ثم بعث بها هدية إلى جامعة باريس .

وفى عهد خلافة « الحاكم » تلقى « جربر » أو « جربرت » تعليمه فى مدارس أشبيلية وقرطبة ، وقد اعتلى الكرسى البابوى (سنة ٩٩٩ م) باسم « البابا سلفستر الثانى » .

كما تلقى تعليمه فى مدارس الأندلس « الراهب بطرس المحترم » (١٠٩٢ - ١١٥٩) و « جيرارد دى كريمون » (١١١٤ - ١١٨٧م).

كما تلقى العلم فى مدرسة أشبيلية (١٢٥٤م) عدد كبير من كبار علماء الغرب .

ولم يشأ الأسبان أن يقطعوا أنفسهم عن الثقافة الإسلامية بعد طرد العرب من أرضهم ، فأنشأوا فى « طليطلة » مكتباً للترجمة (١١٣٠ - ١١٥٠م) ، وأنشئت مدرسة « صلمنكة » ، فى أوائل القرن الثالث عشر ، ثم أخذ كل صاحب رهْبنة وولاية ينشىء مثل تلك المدارس منها مدارس الدومينيكيين ، ومدرسة أراغون ، ومدرسة ميرامار ، وبقيت اللغة العربية لغة الثقافة

---

(١) المستشرقون ص ١٢

والمعاملات والعقود حتى عام (١٥٨٠م) وظلت بعض قرى « بلنسية » تتكلم العربية حتى القرن التاسع عشر .

وقد تعلم أمراء الصليبيين وبعض قُوَّادهم اللُّغة العربية فى الشام أيام غزواتهم الطويلة .

وفى عهد « شارل الثالث » استقدم رهباناً موارنة من لبنان لتعليم العربية للأسبان ، ومنذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادى تُدرس العربية رسمياً فى كبرى جامعات إسبانيا ، تدرس فى جامعة « مدريد » وكذا « غرناطة » و« برشلونة » و« صلمنكة » و« بلنسية » و« أشبيلية » ، وما زالت آثار العرب الأدبية والفنية شاهدَ عدل على آثار ثقافة العرب فى الأندلس ، فإن فن المقامات . . لا تزال تحتذيه المقامة الإسبانية التى تتجه إلى النقد والتقويم الخُلُقى .

ويذهب بعض مؤرخى الأدب إلى أن الشعر الغنائى الذى عُرِف فى فرنسا باسم منشديه « التروبادورا » . . نمت جذوره فى تربة إسبانية ، وقد عرفت ألمانيا شعراً يقابله ويسمى « مينسانجه » (١١٣٠ - ١١٥٠م) .

ويستدل لذلك « بأن آلات الطرب التى كانت ترافق الشعر الغنائى عربية بكاملها مثل القيثارة والمزمار والأرغن والعود » .

« وجُلّ أسماء الأمكنة والبقاع والمصطلحات وأصناف الماعون ومرافق الحياة هى عربية صرفة » .

وحين تزوج « فرديناند » الملكة « إيزابيل » (عام ١٤٩٢م) فجمعا بين ملكيهما ، واستوليا على « قرطبة » وكانت البقية الباقية للعرب ، وقَّعاً معاهدة ذات خمس وخمسين مادة تؤمن العرب على دينهم ، وترى لهم حقوقهم ، ولكن غدر الصليبية محا - بجبروته - نصوص المعاهدة عملياً .

ولقد دعا الكاردينال « أكسمنز دى سينرو » وكان ذا مكانة دينية كبيرة فى قشتالة (إسبانيا الحالية) إلى إكراه بقايا المسلمين الذين كانوا يُعرفون باسم « الموريسكو » على التنصُّر ، ولكى يقطع صلتهم بالإسلام وعلومه أشار بحرق كتب المسلمين ، فأحرق بالفعل ثمانين ألف كتاب إسلامى بعد الجلاء عن إسبانيا ، ثم أنشئت محاكم التفتيش لحرق كل من لا يرتد عن الإسلام ،

بل وكل نصرانى لا يعتنق المذهب الكاثوليكى ، وهكذا أصدر الإمبراطور « فيليب الثانى » فى أراجون (البرتغال حالياً) فى سنة (١٥٥٦م) قانوناً يُحرِّم على بقايا المسلمين فيها كل شىء يربطهم بالإسلام ، حتى لغتهم وأساليب معيشتهم ، وبلغ من غلوائه أن اعتبر الجماعات التى أنشأها المسلمون هناك بقايا نجسة فأصدر قراراً بهدمها [١] .

لقد أجلى العرب عن الأندلس عام (١٥٨١م) - ثم سنة (١٦٠٩م) ، حيث رحل بعضهم إلى شمال إفريقيا ، يحملون مفاتيح منازلهم التى يتوارثونها - الأبناء عن الآباء - على أمل العودة إلى بيوتهم ، ولو بعد حين ، كما رحل بعض المسلمين من الأندلس إلى إيطاليا وآخرون إلى جنوب فرنسا .

ومن المؤرخين مَن يرى أن أطماع أوروبا فى العالم الإسلامى فى القرن الثامن عشر كان هو بداية الاستشراق حين ضعفت قبضة الدولة العثمانية التى كانت تضرب سياجاً من العزلة ، منع الأوروبيين من الاتصال بالشرق فترة ، ثم ما لبثت أن تدخلت فى شئون الشرق كله .

ولكن وقائع التاريخ تبين - كما ذكرنا - أن ذلك كان فى القرن العاشر الميلادى .

* *

● فى فرنسا :

لم يستطع العرب التوطن فى فرنسا بعد فتحها بسبب شتائها المتواصل ، ولهذا آثروا جنوب فرنسا وجنوب كل الدول ، لأن مناخ الجنوب قد يشبه مناخ العرب من وجوه ، ولذا فإنهم بعد موقعة « بواتييه » لم يفكروا فى استعادة الشمال .

ولم تخل فرنسا من آثار العرب ، فقد علَّموا الفرنسيين عادة استعمال الأرقام والكسور ، وفن الزراعة ، وصناعة السماد والورق .

---

(١) الدكتور عبد الجليل شلبى ، صور استشراقية ، الكتاب الأول ص ٢٨ - ٢٩

ومن آثارهم مدرسة الطب فى « مونبيليه » ففى عام (١٢٢٠م) أنشأها المتخلفون بها من العرب القائمين وبعض عرب الأندلس ، وقد رممت وألحقت بها كليات الحقوق والهندسة وعلم الاقتصاد ، ومن تلامذتها « أرمنجان » الذى التحق بها عام (١٢٨٤ م) .

وقد فشت فى فرنسا فلسفة ابن رشد وابن سينا والرازى وعلوم ابن زهر ، وانتشرت منها إلى جامعات « بورغونيا » ، و« لومباردى » ، و« سويسرا » ، و« لوفان » ، فظلت تُدرس حتى عام (١٦٥٠م) ، ولا تزال لهذا فرنسا قِبْلة دارسى الفلسفة الإسلامية من طُلاب المشرق والمغرب [(١)] .

وفى « مونبيليه » عثر « دافيك » على ترجمة لاتينية للقرآن قام بها الأخ « دومنيك جرمان الصقلى »

ولقد كانت الصلات بين فرنسا والعرب مبكرة كما ذكرنا ، واستمرت حتى كان لجمهورية فرنسا مدرسة عربية بالجزائر فى أوائل القرن التاسع عشر .

وهناك مَن يعتبر الحملة الفرنسية على مصر وعلى غيرها من بلاد الشرق فى سنة (١٧٩٨م) هى البداية الحقيقية للاستشراق ، لأن هذه الحملة اقتحمت مصر وعلى سفينة الشرق إليها عدد كبير من المستشرقين الذين قاموا بعمل دراسات مختلفة نُشِرت فى كتاب « وصف مصر » .

ولعل هؤلاء يقصدون بقولهم : إن القرن الثامن عشر الميلادى - أو الحملة الفرنسية - هى بدء الاستشراق العدوانى ، وإلا فإن الاستشراق السلمى ، أو الهادئ ، بدأ قبل ذلك بوقت طويل بمئات السنين - كما هو واضح فيما ذكرناه من قبل ، وفيما سنذكره من صلات واهتمامات غربية بعلوم الشرق الإسلامى والعربى .

* *

---

(١) المستشرقون ص ٣ - ٤

● **فى صقلية :**

غزا العرب « سيسليا » مبكِّرين ، واستولوا على عاصمتها « بلرمة » ، واحتلّوا إيطاليا وأكثر مرافئها خطراً مثل : « قوصرة ، وقريطش ، وميورقة ، ومنرقة ، ويابسة ، وقبرص » ، والتحموا مع « البندقية » بحرب متواصلة ، وظل العرب فى صقلية حتى عام (١٠٧٢م) فحكموها قرنين ونصف قرن كانت خلالها أرضاً عربية .

وكان أول كارثة هزَّت كيان العرب فى صقلية هزيمة النورمانديين لهم فى معركة « سلرنة » عام (١٠١٥م) عندما حاصر العرب « سلرنة » لفتحها فاستعان أهلها بالنورمانديين .

ولئن تغلب النورمانديون على العرب عسكرياً فإنهم ما استطاعوا التغلب على ثقافتهم ، فقد ظلت « بلرمة » – عاصمة صقلية – مصدراً للثقافة الإسلامية بعد هذا قروناً طويلة ، وتسلل من المسلمين مَن أنشأوا مدرسة « سلرنة » عام (١١٥٠م) ، وفيها درس كبار علماء الغرب [١] .

وحين ولى الحكم بعد العرب الملك « روجه » كانت صقلية تتكلم خمس لغات لشعوب خمسة ، ولكل من أهلها شرائع ومذاهب ، فآثر الملك العرب على غيرهم ، فقد كان مثقفاً بثقافتهم ، وضمهم إلى بلاطه ، وفى عهد خليفته « غليوم » كان رئيس الطهاة عربياً .

وقد اتخذ « روجه » شارة « محمد كالمسيح » شعاراً للدولة عند سك نقوده ، وجعل فى إحدى صفحتى النقود : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وكان شعار الدولة فى عهد « غليوم الثانى » : « الحمد لله حق حمده » .

وهكذا – كما قال دوزى – كان ملوك صقلية وأمراؤها عرباً فى ثقافتهم وحياتهم وفى طرق حكمهم ولباسهم وقصورهم ومعايشهم وأحفالهم [٢] .

---

(١) المستشرقون ص ٥

(٢) المستشرقون ص ١٦ ، ١٧

وقد ساعد على نشر العربية فى صقلية أن التجارة يوم ذاك كانت تدفع إلى دراستها ، فإن المعاهدات التجارية بين العرب وغيرهم كانت تُكتب بالعربية .

وكما كان لألف ليلة وليلة أثرها الكبير فى فن القصة الفرنسية ، كان لكتاب « كليلة ودمنة » أثر فى الفن القصصى لدى الإيطاليين والصقليين ، بل إن العرب أثْروا اللُّغتين - الصقلية والإيطالية - بما أودعوه فيهما من ألفاظ عربية لا يزال الكثير منها فى كليهما .

* *

● فى إيطاليا :

يمتد تاريخ معرفة إيطاليا للعرب إلى ما قبل الإسلام ، فقد كان « فروة ابن عمرو الجدامى » قائد فرقة من الروم فى غزوة مؤتة ، وقد فتح العرب روما عام (٨٤٦ م) .

وبعد أن وقعت فى أيديهم « بلرمة » عام (٨٣٠ م) و« ترانتو » عام (٨٤٠ م) وبعد سقوط روما سنة (٨٤٦ م) انتشر المسلمون فى جنوب إيطاليا « نابولى - سالرنه - مونتاكسينو - دير رهبان البندكتيين » سنة (٨٨٤ م) ، وفى « سلرنة » عرف الطب العربى فى القرن العاشر الميلادى ، وعندما افتتحها النورمانديون عام (١١٧٦م) لم يسعهم إلا أن يشجعوا الثقافة العربية فى كل فنونها .

فلما كان حُكْم « فريدريك الثانى » لإيطاليا عام (١٢٣٢م) اهتم بالعلوم الإسلامية - فلسفية وطبيعية وكونية - اهتماماً كبيراً .

وحسبنا دليلاً على عظم منزلة المسلمين عنده ، وعند الأوروبيين عامة - أن فيلسوف الأندلس « ابن سبعين » كان كتابه « ما لا بد للعارف منه » يحظى بالقبول لدى كل أوروبا ، وأنه عندما فرَّ إلى إفريقيا فى عهد الخليفة المهدى الفاطمى أرسل إليه « فريدريك الثانى » يسأله عن قضايا فلسفية ، فأجابه بكتاب يقع فى (٤٩٧ صفحة) وعنوانه « المسائل الصقلية » وفى « أكسفورد » منه نسخة خطية .

وكان فى بلاطه وبلاط جُلِّ ملوك أوروبا يتمتع بالإكبار والتَّجلَّه [(١)] العلامة « الإدريسى » ، وكان هذا مدعاة إلى اتهامه بالزندقة من بعض المسلمين واتهام « فريدريك » بالانحراف الدينى من بعض المسيحيين .

* *

● فى إنجلترا :

بدأت انجلترا تُغزَى بالثقافة العربية منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، فقد وفد إليها من « طليطلة » فى إسبانيا « إبراهيم بن عزرا » فزار لندن عام (١١٥٨م) ، ودرس فيها حقبة من الزمن ، وهو وإن كان يهودياً فإنه قد لقن ثقافته من جامعات الأندلس الإسلامية .

كما وفد إلى انجلترا القاضى « توماس براون » الذى تخرَّج فى جامعات صقلية الإسلامية ، وعمل قاضياً فى صقلية فى فجر حياته .

كما وفد إلى الجامعات الإسلامية من إنجلترا كثيرون مثل « إدلارد أوف باث » الذى نقل كتاب « إقليدس » ، وقد تبعه « دانيال أوف مورلى » ، ثم حذا حذوهما فى القرن الثالث عشر « ميخائيل سكت » الذى ترجم إلى لغته كثيراً من الكتب العربية فى الفلسفة والفلك والكيمياء ، فكان لترجماته أثرها فى تكوين جيل جديد من الفلاسفة أو الأدباء مثل « روچيه بيكون » والشاعرين « تشوسر » ، و« لدكيت » ، وكان هذا أول دفقة ساقت أمامها الإنجليز إلى تفيوء ظلال الثقافة الإسلامية ، وكان أول كتاب طُبِع فى إنجلترا هو كتاب « كلمات الفلاسفة وحكمهم » ، وقد روعى فى تبويبه ومنهجه كتاب « مختار الحكم ومحاسن الكلم » لمبشر بن فاتك المصرى سنة (١٠٥٣م) .

وما جاء القرن السابع عشر حتى أنشىء فى جامعتى « أكسفورد » و« كمبردج » منبران لأستاذية اللُّغة العربية ، وكان أستاذ الكرسى بأكسفورد هو القس

---

(١) التجلَّه : الإجلال والتعظيم والاحترام .

« إدوارد بوكوك » ومن الأساتذة « مرجليوث » (١٨٥٨ - ١٩٤٠) عضو المجمع العلمى بدمشق و « هنرى چيب » داعية الوحدة العربية ، لحجب نداء الوحدة الإسلامية .

وفى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى أنشىء منصبان جديدان للُّغة العربية فى جامعتى « أكسفورد » و« كمبردج » ومن أشهر أساتذة القسمين « هانط » ، و« هايد » ، و«جانبيه » ، و« والس » و « فورد » ، و« بريدو » (١٦٤٨ - ١٧٢٤م) والأخير مؤلف « تاريخ حياة النبى » .

وفى أواخر القرن الثامن عشر جهزت جامعة « أكسفورد » مطبعة عربية نشرت كثيراً من المخطوطات النفيسة ، فاحتل الأدب العربى مكاناً مرموقاً لدى معظم الأدباء الذين استوحوا « ألف ليلة وليلة » وغيرها من قصص الشرق التى جعلت للأدب الإنجليزى سمة شرقية ، وفى نهايته أيضاً كانت الحملة الفرنسية على مصر فدخل الشرق الأدنى فى حيز السياسة الأوروبية .

وفى مطلع القرن التاسع عشر أنشىء بجامعة لندن منصب للأستاذية لعلوم العربية ، وأسس معهد اللُّغات الشرقية بلندن ، ورأس قسم اللُّغة العربية فيه لأول مرة المستشرق الإنجليزى « توماس أرنولد » (١٨٦٤ - ١٩٣٠) وقد زار مصر أوائل عام ١٩٣١ ، وهو صاحب كتاب « دعوة الإسلام » الذى ترجم إلى العربية والتركية والأوردية ، كما شكلت الجمعية الآسيوية الملكية فكان لها دورها فى تنظيم حركة الاستشراق تنظيماً علمياً مستقلاً يستهدف الأغراض التبشيرية والسياسية .

ولعل من أبرز المستشرقين السياسيين المعاصرين « أنطونى إيدن » وزير الخارجية البريطانية الأسبق و « إمرى » الذى كان نائباً فى الهند .

* *

● في روسيا :

لم يكن الروس ذوى كيان دولى إلا بعد الإسلام . فقد كانوا يعيشون متأخرين كالوحوش الكاسرة حتى اضطروا إلى أن يطلبوا من النورمانديين أن يحكموهم ويأخذوا شطر غلات بلادهم ، وهؤلاء النورمانديون هم أجداد الإستاندناويين (اسكندنافيين) ، وقد سموا فيما بعد « روس » ، وقد ذاب « السلاف » الأصليون فى النورمانديين وتعلموا منهم فنون الغزو فاستولوا على مدينة « كييف » التى بناها الخزريون ، وأصبحوا ذوى علاقات بالشعوب المتقدمة كالبيزانطيين والبلاد الإسلامية حيث يبيعون العبيد والفراء لأهل هذه البلاد المتقدمة ، واستمر الحال على هذا المنوال إلى الغزو المغولى لأرضهم عام ١٢٢٤م ، وفى أثناء الاتصال بالبيزنطيين اعتنق السلاف المذهب الأرثوذكسى بفضل مساعى الأميرة « أولڤا » من أسراء « كييف » ، كما نظم الڤاتيكان والكنيسة الأرثوذكسية حملات تبشيرية لإدخال المغول فى المسيحية ، ففشلت واعتنق « بركة خان » - حاكم البلاد - دين الإسلام بعد تعرفه على معتقداته من البلغار المسلمين المتمركزين على نهر « إيديل » ، فدخلت بهذا دولة « التون اردا » فى عداد الدول الإسلامية برئاسة « بركة خان » .

ولما تفككت دولة « التون اردا » بسبب الخلافات الداخلية عام ١٤٣٧م رفعت الإمارات الروسية بتدبير « بطرس » - رئيس أساقفة الروس فى موسكو - راية التمرد على الحكم الإسلامى ، فانقسمت الدولة الإسلامية فى روسيا إلى أربعة أجزاء .

١ - « قازان » : شمال منطقة إيدين (الفولڃا) .

٢ - « اشترخان » : جنوب نهر الفولجا .

٣ - « القريم » : على شواطئ البحر الأسود .

٤ - منطقة الروس فى « نوس فورد ، وكييف ، وموسكو » .

والثلاث الأولى دول إسلامية ، والأخيرة مقاطعة كبيرة الآن أرثوذوكسية .

واتفقت كلمة الأوروبيين على إبادة هذه البلاد الإسلامية ، ونظم البابا عدة حملات عسكرية باءت بالفشل مما جعله يستقدم مهندسين من « ڤيينا » و« اسكتلاند » لصنع مدافع ثقيلة تدك القلاع المحيطة بمدن « قازان » ، فتم لروسيا بهذا العون الكنسى ما أرادت من قصف القلاع الذى أعقبه ذبح المسلمين ، لا فرق بين صغير وكبير وذكر وأنثى ، وتوزيع أراضى الفلاحين المسلمين على قادة الجيش الروسى ، ولا يُسمح لفلاح بامتلاك أرضه إلا إن أعلن تخليه عن الإسلام واعتناقه النصرانية ، هكذا فعل الروس بقازان ، وبعد عامين تكررت المأساة فى « اشترخان » ليتم بناء إمبراطورية روسيا على أشلاء المسلمين ، وشجع ما فعلته روسيا غيرها على شن حملات الاستعمار فى آسيا وإفريقيا ، وإنه على الرغم من تصفية الاستعمار فى كل من آسيا وإفريقيا فى القرن العشرين ، فإن البلاد الإسلامية التى كان الروس قد استولوا عليها لا تزال فى قبضة الروس .

وعندما هبَّت الحرب العالمية الأولى على العالَم أغرقت ألمانيا « لينين » بالمال والسلاح ليُحدث انقلاباً فى روسيا التى وقفت شامخة تقاومها بفضل وقوف المسلمين ضد الألمان ، وكان « لينين » يعيش فى سويسرا .

* *

● فى النمسا :

كانت علاقة النمسا بتركيا قوية ، وقد أرسل « فرديناند الأول » : « فون بيسبك » سفيراً له لدى الباب العالى أسوة ببقية الدول ، فأقام فى الآستانة سبع سنين جمع فى أثنائها من المخطوطات الشرقية الشيء الكثير النادر ، فلما

رجع إلى وطنه كان يصطحب مكتبة زاخرة فأحسن البلاط استقباله ، ثم تحول الاستشراق السياسى إلى الاستشراق العلمى ، إذ اضطُرّ السفراء إلى التفاهم مع الدول الإسلامية التى يمثّلون دولهم فى بابها ، وكانوا قد استعانوا - بادىء ذى بدء - بالتراجمة من المسيحيين الأتراك ، فأنشأت النمسا فى عهد الملكة « مارى تيريز » مدرسة شرقية لتثقيف القناصل والتجار والأدباء ، واستدعت الحكومة فيما بعد الأب « أنطون عريضة » لتدريس العربية فى جامعة ڤيينا .

ومن أشهر مستشرقى النمسا المهتمين بالمخطوطات العربية المستشرق « برغستال » (١٧٧٤ - ١٨٥٦) فقد جمع كثيراً من المخطوطات التى استولى عليها الفرنسيون ، وقاتل فى سبيلها حتى استرد مائتى نسخة وفقد مائة [١] .

* *

● فى الدانمارك :

يرجع تاريخ الاستشراق فيها إلى ما يسمى عهد التوراة (١٥٥٧م) ، أى عهد بعث نصوصها ونفى الزيف عنها ، وذلك تشبُّهاً بالدول الكبرى التى نهضت لهذا ، تقودها ألمانيا ، إلا أن الحركة الاستشراقية كانت بطيئة فى الدانمارك أول الأمر حتى أرسل الملك فى عام (١٦٥٩م) المستشرق « باتروس » إلى الشرق لدرس لغاته ، وانتساخ مخطوطاته ثم حذا حذوه كثيرون .

فقد أرسل رئيس الوزراء الدانمركى « بريسترف » بعثة علمية بها بعض علماء السويد إلى جنوب بلاد العرب لدراسة كل شىء عنها ، وقامت البعثة عام (١٧٦١م) برحلتها ، وفى أثناء الرحلة مات الكثيرون وعلى رأسهم

---

(١) المستشرقون ص ١٦٥ - ١٦٦

رئيسها « ڤون هاڤن » عام (١٧٦٣م) فخلفه « نيبهر » (١٧٣٣ - ١٨١٥م) الذى قابل الإمام ، ومكث ثمانية أشهر باليمن رحل بعدها إلى بمباى بالهند عام (١٧٦٣م) ، ثم عاد لجولة بالبلاد العربية والإسلامية الملاصقة ، فزار العراق ، والشام ، وفارس ، وتركيا ، وعاد إلى بلاده أواخر عام (١٧٦٧م) وسجل رحلته هذه فى ثلاث مجلدات [١] .

❊ ❊

● **فى المجـر :**

المجر أمة أصلها شرقى - آسيوى ، فإن أجدادهم زحفوا نحو أوروبا فهاجمهم البشناق ، ففر بعضهم متراجعاً إلى الشرق ، ووقع بعضهم أسرى سيقوا إلى « هنغاريا » الحالية ، فاعتنقوا النصرانية ، وتكوَّنت منهم المملكة المجرية ، وكان المجريون يحلمون دائماً بالبحث عن بنى عمومتهم ، فقاموا ببعض الرحلات فى القرن الثامن عشر الميلادى ، واهتموا بالدراسات الشرقية بعد احتلال العثمانيين بلاد المجر فى القرن السادس عشر وحُكْمهم لها قرناً ونصف قرن .

وأول الذين يمكن أن يُدْعوا مستشرقين هم طبقة الكُتَّاب الذين استخدمهم الباشوات الأتراك فتعلموا اللُّغتين التركية والعربية .

وهكذا قام « روسنبى » بنقل كتاب « كليلة ودمنة » من العربية إلى المجرية ، وتبعه طلبة الدين بعد تحرير المجر ، فقصدوا أشهر جامعات هولندا وألمانيا لدراسة اللغات الشرقية وبخاصة اللُّغتين العبرية والعربية ، ومن هؤلاء الطُّلاب « چون أورى » عام (١٧٢٤م) ، الذى أقام فى « ليدن » بهولندا من سنة (١٧٥٦ إلى سنة ١٧٧٠م) وطبع البردة ، وهى أول الكتب العربية التى نشرها ، وفى

---

(١).المرجع السابق - الفصل ١٢ ص ١٧٦

عام (١٧٧٠م) التحق بجامعة « أكسفورد » ، وعمل لمكتبتها البودلية تقويماً لكل مخطوطاتها .

وعندما أَسَّست الإمبراطورة « ماريا تريزا » فى « ڤيينا » مدرسةً لإعداد السَفراء والقناصل لبلاد الشرق تعلم فيها الكونت « شارلس رفيكسكى » (١٧٣٦ - ١٧٩٣م) وصار سفيراً فى وارسو ثم فى لندن ، حيث توثقت عرى الصداقة بينه وبين السفير « وليم چونس » المستشرق الإنجليزى .

* *

● فى هولندا :

قال الأستاذ العقيقى : « عرف الهولنديون العربية قبل معرفة الألمان لها لأسباب خلاصتها :

١ - الخلاف الدينى الذى وقع بخروج « لوثر » على الكثلكة خروجاً عمَّ الغرب ، وقضى عليه بالعودة إلى التوراة وتأسيس جمهورية الولايات الهولندية المتحدة ، وهذا قد فتح الأذهان والعيون على أساليب الشعوب المتقدمة فى دراسة أحوال الآخرين وبخاصة العلوم الشرقية ، وهذا بدوره يعطينا ضوءاً على سر الحركة التبشيرية فى إندونيسيا التى كانت تحت الحكم الهولندى .

٢ - اتصال الهولنديين بعرب مراكش والجزائر وطرابلس الغرب ومسلمى الهند الشرقية اتصالاً سياسياً وتجارياً .

وأهم آثار هولندا فى الاستشراق :

١ - منشورات مطبعة ليدن الهولندية التى أنشأها « توماس أربانيوس » (١٥٨٤ - ١٦٢٤م) بماله الخاص ، وهى تضم مخطوطات نفيسة قضى علماء هولندا قروناً فى جمعها ، ويُعَدُّ « أربانيوس » بمطبعته مؤسس النهضة الاستشراقية فى هولندا ، فهو كـ « دى ساسى » فى فرنسا .

٢ - تكوين جماعة المستشرقين عام ١٩٢٠ فى ليدن ، وهى تصدر مجلة علمية اسمها « الأعمال الشرقية » .

* * *

● فى أمريكا :

اهتمت أمريكا بالعربية من أجل فهم الكتاب المقدَّس ، ولم تنل العربية حضاً موفوراً بها إلا فى العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر حين أحسَّ الدارسون الأمريكان بأهميتها فى درس خصائص اللُّغات السامية ، ولما كان لها من سيادة فى القرون الوسطى بين لغات العالم .

وكان أول اتصال مباشر لهم بالعرب هو ما كان فى عصر الخديوى إسماعيل حين غزوا « أريتريا » ، ثم حين أسس « دانيال بليس » الجامعة الأمريكية فى بيروت ، و« شارلز وطسن » الجامعة الأمريكية فى القاهرة .

ومن العوامل التى شجعت على البحوث العربية وجود جالية عربية لبنانية وسورية كبيرة غنية مهيبة الجانب لها احترامها فى أمريكا ، ولذلك أسست الجمعية الآسيوية سنة (١٨٤٢م) تأسِّياً بانجلترا من قبل ، وأنشأت الجمعية لها مجلة آسيوية فى « بوسطن » ، وكان للدكتور « فيليب حتى » اللِّبنانى الأصل أثر كبير فى تنظيم مكتبة جامعة « برنستون » التى تضم (٢٥٠٠) مخطوطة عربية .

* * *

● المستشرق الأمريكى « روجر آلاند » :

درس اللُّغة العربية فى جامعة « أكسفورد » ببريطانيا ، وأشرف على دراسته لها الدكتور محمد مصطفى بدوى ، فابتدأ بدراسة النصوص الأدبية حتى تذوقها ، ثم تخصص فى دراسة الروايات العربية ، وكانت أطروحته للدكتوراة عن « حديث عيسى بن هشام » لمحمد المويلحى .

ثم انتقل إلى أمريكا سنة ١٩٦٨ ، وهناك درس الأدب العربى المعاصر ،

وذهب إلى مصر سنة ١٩٧١ ، والتقى بنجيب محفوظ فقرأ له « ميرامار » و« زقاق المدق » و « خان الخليلى » ، و« القاهرة الجديدة » .

وأصبح أستاذاً للأدب العربى بجامعة « بنسلفانيا » الأمريكية ، وكانت إحدى دراساته عن نجيب محفوظ أساساً ارتكزت عليه لجنة « نوبل » لمنح الجوائز الأدبية إلى جانب دراسات المستعربة السوفييتية « فاليريا كربتشينكو » .

❊ مؤلفاته :

له « القصص عند يوسف إدريس » وألف ليلة وليلة ، والمسرح العربى ، والرواية العربية ، والأدب العربى المعاصر .

كما ترجم إلى الإنجليزية من أعمال نجيب محفوظ « المرايا » ، و« الحرافيش » ، و« حكايات حارتنا » ، و« أولاد حارتنا » ، كما ترجم لجبرا إبراهيم جبرا « السفينة » ، و« البحث عن وليد مسعود » .

❊ مشاركاته الأدبية :

شهد مهرجان المربد الشعرى التاسع الذى عقد فى بغداد (نوفمبر ١٩٨٨) وشارك فى أعمال معرض القاهرة الدولى الحادى والعشرين للكتاب ، وكان معه حوار أدلى فيه ببعض آرائه فى الأدب فقال :

« الأدب العربى الحديث وريث لتراث غنى كل الغنى فهو أقدم من الآداب الأوروبية ، فالغزل شعراً ونثراً كان مما سبق به العرب الأمم .

« فلئن كان للأدب المسرحى فى الغرب ميزة ، فللشعر المعاصر تفوق ، وهكذا لا زالت القصة العربية لها امتياز .

« لا ينطق الغرب اسم نجيب محفوظ نطقاً جيداً ، ومع هذا فقد ترجمت له كثير من الروايات بعد ظفره بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٨ ، كما أصبح أدبه مطلوباً فى أقسام الآداب بجامعات الغرب .

« والكاتب معجب بالثلاثية « بين القصرين ، السكرية ، قصر الشوق » .

❊ ❊

● تطور الاستشراق :

أصبحت الحركة الاستشراقية فى السبعينات حتى الآن فى صورة أضخم ومكثفة ومركزة بحيث أمست مدارس الاستشراق فى الغرب ، يعمل بها شرقيون وعرب بصورة كبيرة ، حقاً كان أستاذنا الدكتور « محمد مهدى علام » أستاذاً للعربية ، ومدرساً للإنجليزية بإنجلترا . . ولكنه وأمثاله قِلَّة رُسِمَ لها دور تعليمى .

أما الآن فأصبحت الحركة الاستشراقية ذات آفاق رحبة ، وإليك أمثلة :

* فى بلچيكا .. بجامعاتها :

فى جامعة « لوفان » البلچيكية مركز الدراسات والأبحاث العربية الحديثة ، يعنى بالتطورات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى العالم العربى ، يشرف عليه الدكتور بشارة خضر ، وهو فلسطينى ، الذى ظهر له بالأسبانية بعنوان « العالم العربى على عتبة عام ٢٠٠٠ » ، وقد تابع مع كثير من العرب والأوروبيين « الحوار العربى - الأوروبى » ، وعمل عضواً فى اللِّجان المنبثقة عنه .

وفى عام ١٩٨٢ نظم فى جامعة « لوفان » مؤتمراً عن التعاون العربى الأوروبى شارك فيه أكثر من سبعين خبيراً عربياً وأوروبياً ، وكانت أعمال المؤتمر فى ثلاث مجلدات تعتبر مرجعاً أساسياً لكل مَن يهتم بمشكلات العلاقة بين العرب وأوروبا .

*

* فى الإذاعة البريطانية :

يتولى الآن (ديسمبر ١٩٨٩) سامى حداد رئاسة البرامج الإخبارية فى القسم العربى لهيئة الإذاعة البريطانية .

*

* الجاليات الشرقية بالغرب :

أصبحت الجاليات الشرقية عُمَداً أساسية فى دول الغرب ، ففى إنجلترا مثلاً حيث يوجد لليهود نحو ٤٠ ٪ من مقاعد مجلس النواب ، يوجد من المسلمين عدد كاليهود ، ولكنهم غير منتظمين ولا مجتمعين على أهداف موحدة يقودها نظام واحد ، فأصبحوا كساقطى الهوية الإسلامية ، ولكنهم كفرادى لهم تأثيرهم فى الإنتاج المادى والفكرى . . وهكذا قل فى أستراليا والأمريكتين ، مما يُوجِد أحياناً بعض التقارب ويخفف ظلمة الضباب الذى كان يضعه القساوسة والمستشرقون منهم ، على عيون غير المسلمين .

*

* مكتبة جامعة يوتا :

اهتمت هذه الجامعة الأمريكية بتسجيل أسماء كل الكتب التى صدرت بالإنجليزية فى الولايات المتحدة ، والتى تمت ترجمتها إلى اللُّغة العربية على امتداد ٣٧ عاماً (من سنة ١٩٥٠ حتى ١٩٨٧) .

وأسندت هذا العمل إلى الدكتور « رجائى معقار » ، فأعد قائمة تتضمن (٢٢٠٠) كتاب ، تم تنسيقها حسب أسماء المؤلفين وعناوين الكتب .

والمهم أن هذا الغزو الفكرى للقاعدة العربية من الأمة الإسلامية ، ليس له هيئة فى أى دولة إسلامية لمراجعته والتنبيه على ما قد يكون فيه من أخطاء .

* * *

الاستشراق وجه جديد للحروب الصليبية
(١٠٩٥-١٢٩١م)

تولى البابا « إربان الثانى » منصب البابوية (١٠٨٨ - ١٠٩٩م) ، وحشد همم الملوك والنبلاء والمغامرين إلى خضد شوكة الإسلام ، وبناء قلعة مسيحية فى فلسطين والشام ، ووعد مَن يذهبون إلى هناك جنات النعيم ، ومنح أول صك غفران لجنود الحملة الصليبية عام (١٠٩٥م) ، وظلت المقاومة الإسلامية تنشب كل يوم ، وكلما تخيل الصليبيون الاستقرار ، إلى أن كانت الحملة الصليبية الثامنة فيما بين عامى (١٢٧٠ - ١٢٩١م) .

وآمنت أوروبا بأن استخدام البندقية والسونكى لا يُجدى فى اقتلاع الإسلام ، ولا يزيد المسلمين إلا عناداً وإصراراً ، فقرروا أن يأتوا إلى قلوب المسلمين متسللين برفق ، فيذبحوا الإسلام داخل المسلم بالشهوات وبالفكر الملحد ، وأن يأتوا إلى الهيئة الاجتماعية فيدمروها بتدمير قواعدها الثابتة « اللُّغة - ونظام الحكم - وآداب الإسلام وسلوكياته فى الأسرة ، والشارع والمدرسة ، والجيش ، والمصنع » ، وكان من هذه الحملات ما اتخذ صورة البحث العلمى تحت لافتة « الاستشراق » .

وإن كان الحقد الصليبى والصهيونى والشيوعى والبوذى قد انبثق مرة أخرى ، وعاد إلى حمل السلاح بعد أن جدَّد أنواعه الأشد خطراً ، والأشنع دماراً ، وفى الوقت نفسه بعد أن روَّض القادة السياسيين فى العالَم الإسلامى على تمجيده وطاعته وحمايته ، وروَّض التعاليم الإسلامية ، والشعائر الدينية ، وصاغها بصيغ مستأنسة ، فسمى الجهاد فى سبيل الله باسم « الكفاح الوطنى » مثلاً ، وسمى عزل الإسلام عن الحياة العامة والسياسة باسم « العلمانية » ،

وسمى وزارة الجهاد : « وزارة الدفاع » ، وسمى الانحلال الخُلُقى والتخلص من قيود العفة والشرف والطهارة باسم « الحرية الشخصية » ، وسمى البذاءة فى الأدب والإسفاف فى الصورة البيانية ، وما كان يسمى أدب الفراش ، أو أدب الجنس باسم « الرومانتيكية » ، وشجب الأسلوب المحافظ فسماه « الرجعية » حيناً أو « الكلاسيكية » حيناً آخر .

ولذلك وجدنا « اللّنبى » حين دخل القدس سنة ١٩١٨ يصرح بما يدل على أن الحروب الاستعمارية ، وجيوش الاحتلال ، إنما تحمل روح البابا « إريان الثانى » الصليبى الروح العدوانية ، فيقول : « الآن انتهت الحروب الصليبية » .

ووجدنا أن بلاد المسلمين فى الفيلبين وأريتريا وفلسطين ولبنان وأفغانستان والصومال وألبانيا والبوسنة تُدَك دكاً .. ويُفعل فى النساء والأطفال أقبح وأشنع ما سجّله التاريخ تحت أية تسميات ، ولكنها الواقع الصليبى فى أبشع وأفظع صورة وحشية .

وفى فجر الثورة الشيوعية عمل على إبادة مسلمى تركستان ، وبخارى ، وطشقند ، والقرم ، ... و ... إلخ .

وقد لخص « وليم جيفور بلجراف » أهداف الصليبية فى حروبها ومحور سياستها فى كلمته الطافحة بالإجرام :

« عندما يختفى القرآن ومكة من بلاد العرب يسهل علينا أن ندفع المسلم فى سبيل الحضارة » يعنى الحضارة الغربية المسيحية طبعاً .

وهذا هو ما أكده « مولوتوف » الشيوعى فى عبارته التى تمتلئ غيظاً فى خطبة له : « لن تثبت الشيوعية فى جمهوريات الاتحاد السوفييتى ، ولن تنتشر فى الشرق إلا إذا أبعدنا أهله عن تلك الحجارة التى يعبدونها فى الحجاز (يعنى الكعبة ، والحجر الأسود ، ورمى الجمرات) وإلا إذا محونا القرآن من الوجود ، وإلا إذا قضينا على الإسلام » .

والحقيقة أن هذه الثلاث هى الشغل الشاغل لكل أعداء الإسلام .

١ - الحج والعمرة وما فيهما من مزايا للاجتماع وتزكية النفوس وتطهيرها من الشح والهوى .

٢ - والقرآن بلغته التى تجمع بين كافة المسلمين ، وقد استمرت محاولات طمسها بنشر العامية حيناً ، وكتابة القرآن والسُّنَّة بالحروف اللاتينية حيناً ، وبترجمة القرآن والسُّـنَّة حيناً ، وبالدعوة إلى نبذ العرب للعربية والتحدث بلغة الأعاجم : الفرنسية أو الإنجليزية أو البرتغالية أو الإسبانية . . حتى تموت لغة القرآن والسُّنَّة فتجف ينابيع الدين ومصادر الفقه الأصلية ، وأخيراً استبدال الخطبة فى الجُمَع والأعياد من اللِّسان العربى إلى اللُّغة التى يكون فيها المهجر ، حتى تنشأ الأجيال الجديدة ولا علاقة لها بالقرآن والسُّـنَّة ولغتهما لأنها تكون لغة مهجورة وأكثر من « لغة أثرية » فى الغرابة .

وقد كشف الاستشراق للغرب عن الفِرَق الإسلامية وصراعاتها التى يمكن أن تُجدَّد وتُبعَث لإيغار الصدور ، وصدع الوحدة الإسلامية .

ومن هنا كان التجمع الصليبى الصهيونى الإلحادى الوثنى ضد « الإخوان المسلمين » والمبادئ التى جاء بها الشهيد « حسن البنا » ولخصها فى رسالة التعاليم وشرحها فى مجموع رسائله ، لأنها تجمع وتمنع الفُرْقة ، وبمقتله وحَلّ جماعته ومصادرة كل ممتلكاتها واعتقال أبطالها أمكن تكوين جماعات تدعو إلى هذه المبادئ - فى ظاهر الأمر - وهى مُختَرَقة من الداخل فى بعض المناطق على سعة الكرة الأرضية اختراقاً من أجل هدمها من الداخل : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الـمَاكِرِينَ ﴾ [1] .

وإن القرآن الذى يتعبد الله بلغته العربية كل مسلم من المحيط المتجمد

---

(١) الأنفال : ٣٠

الشمالى إلى المحيط المتجمد الجنوبى ، ومن أقصى الصين فى الشرق إلى أقصى بلاد الغرب ، يتلونه باللِّسان العربى ، ومع محاولات تدبرها فى ألفاظه ، فتذكرهم تلاوتهم بالله ، واليوم الآخر ، وتبصرهم بكل مقاصد القرآن .

ولذا يجتهد المستشرقون - ومن خلفهم كل وسائل الإعلام - فى سلخ الناس من معرفة الحروف العربية والنطق بها .

كنت أُصلِّى بالناس فى مسجد بين « كالونى » و« اسكنكتدى » ، وأخطب الجمعة باللُّغة العربية التى أوجب الخطبة بها كل الأئمة الأربعة . ويجوار ذلك ترجمة فورية لمن يحب أن يعرف الترجمة ، وكنت أصر على أن يتعلم الأولاد فى مدرسة عطلة الأسبوع اللُّغة العربية ، وتلاوة القرآن ، ومعرفة معانى ألفاظ القرآن ، حتى إذا قرأه فى صلاته كان للقراءة تأثير أكبر مما لو كان يقرأ كالببغاء ، ولكن رئيس مجلس إدارة المسجد - وكان باكستانياً ، وآخرين علمانيين - رفضوا ذلك بشدة ، وقالوا : لسنا فى حاجة إلى خطبة عربية أو تدريس العربية لأولادنا طبقاً لمنهجك ، يكفى أن يقرأوا كالببغاء ، وتلك آثار الاستشراق والعلمانية فى اختراق العمل والمؤسسات الإسلامية ، وبضياع القرآن يضيع الإسلام .

* * *

فى الحرب التى لا كالحروب

جاء فى كتاب « لعبة الأمم » اللاأخلاقية لـ « مايلز كوبلاند » : « وكانت العقبة الثانية هى النقص الفادح الذى كنا نعانيه فى عدد الأشخاص المؤهلين لخوض غمار حرب أطلق عليها الأدميرال « ساورز » مدير المخابرات المركزية اسم « الحرب التى لا كالحروب » ولم يكن وضع المخابرات المركزية ووزارة الدفاع أصلح من هذا . فكافة رصيدهم لم يتعد بعض **علماء الآثار والمبشرين** من مختلف الجنسيات الذين كانوا يتلقون التوجيهات من قِبَل أساتذة الجامعات المتقاعدين . وكان هناك خليط من رجال الأعمال الذين يُنتدبون لبعض مهمات المخابرات الاعتيادية ، أو لبعض مهمات ديبلوماسية ما وراء الكواليس ، وكان علينا إذن أن نبدأ بحملة تجنيد واسعة وسريعة حتى نتمكن من تحمل مسئولياتنا فى تلك الأرجاء من العالم » (١) .

« وبدأنا العمل بتجنيد العناصر المتبقية من مكتب الخدمات الاستراتيچية بعد الحرب العالمية الثانية ، ثم ضممنا إليها أركان قيادة السلك الديبلوماسى إلى جانب احتياطيه من الرجال الذين **كانوا فى الخارج فى مهمات ثقافية وإعلامية** ، والتحق بنا بعض الديبلوماسيين المنتظمين رسمياً فى وزارة الخارجية ، ومعظم هذه العناصر التى هى من البعثات التبشيرية أو من أصحاب الفكر وبعض الهواة ، كانت تعتقد أن تغيير القيادات فى دول الشرق الأوسط عامَة والدول العربية خاصة لا يستلزم أكثر من مجرد إزاحة بعض الدعائم والقُوَى التى أوصلت كثيراً من الزعماء إلى سُدَّة الحكم دون أَن تتوفر لديهم أى كفاءات أو ميزات ، وسنستمر فى مساندتهم طالما امتلكنا القدرة على هذا » (٢) .
ونعنى بهذه الدعائم الإقطاعيين والرأسماليين الجشعين وبعض القُوَى الأجنبية .

---

(١) ص ٣٧ (٢) ص ٤٠

« وفى ١٢ مارس (آذار) سنة ١٩٤٧ ، وبعد ثلاثة أسابيع من العمل الدائم لموظفى وزارة الخارجية والبيت الأبيض ، أُعلن عن مبدأ « ترومان » الذى كان يومها بمثابة جواب على المذكرة البريطانية المرسلة إلى وزارة الخارجية الأمريكية فى ٢١ فبراير (شباط) سنة ١٩٤٧ (الخاصة برغبة بريطانيا فى التخلى لأمريكا عن قواعدها فى تركيا واليونان) - ولم يمض زمن طويل على إعلان مبدأ « ترومان » حتى أعلن عن مبدأ آخر وهو « مشروع مارشال » .

وبدأت الحرب الباردة ، ولكن من أين نبدأ . . « لم يبق أمامنا سوى العالم العربى الذى بدأت الأمور تتفاقم بيننا وبينه ، وزادت شقة الخلاف اتساعاً غير قليل ، وكان ثانياً أن سبب هذا وجود قيادات طائشة مضللة على رأس السُلْطة فى تلك الأقطار ، وأن استلام مقاليد الحكم من أشخاص ذوى ثقافة أوسع وإدراك أعمق سينقل هذه الأقطار العربية من صف المناوأة إلى صف الموالاة لنا ، كما أن حذر العرب البالغ من السوفييت سيجعل الحماية الأمريكية لهم موضع ترحيب ، فشركات النفط الأمريكية ستجعل منهم أغنياء قريباً ، كما أن التوصل إلى أى تسوية حول مشكلة فلسطين ستجعل منهم المستفيد الرئيسى لكل ما يتأتى منها ، إلا أن إصرار الحكام على رفض هذه النظرة الأمريكية اضطر الأمريكان إلى العمل على الإطاحة بهم فى العالَم العربى . وفى سوريا قامت الشركات الأمريكية الخاصة بالتعاون مع أفراد الجالية الأمريكية وبعض الإرساليات التبشيرية هناك بتوجيه تحذير لأولئك السياسيين الذين اعتادوا اللجوء إلى الضغط والإكراه لحمل المواطنين على الإدلاء بأصواتهم لصالحهم (صالح السياسيين) من مغبة مثل هذه الأعمال » (١) .

« وتمكن رئيس إرساليات طائفة الكنيسة الإصلاحية « ميثوديه » أن ينتزع وعداً من أكبر اتحاد للمثقفين الأكراد بأنهم وزملاءهم لن يقوموا باستغلال أصوات الأُميين الأكراد فيكتبوا لهم على أوراق الاقتراع أسماء مرشحى الاتحاد » (٢) .

---

(١) ص ٤٣ (٢) ص ٤٣ ، ٤٤

« ولم تنجح سياسة أمريكا فى الانتخابات السورية ، ونتيجة لهذا بدأت وزارة الخارجية الأمريكية بتعليم أحسن موظفيها اللُّغة العربية ، وقامت بإطلاعهم على ثقافات الشرق الأوسط وعلى كل ما يمت لهذا الموضوع بصلة . كما قامت بتمشيط الولايات المتحدة بحثاً عن أمريكيين ذوى خبرات سابقة فى هذا المضمار » .

واستدعى « تشارلز فيركسون » الخبير فى التعليم السريع للغات ، من جامعة « هارفرد » ليبدأ فصولاً دراسية فى اللُّغة العربية لبعض الدبلوماسيين الشباب ، وكانت نتيجة هذه الفصول أنه قارب عدد الدبلوماسيين الأمريكيين المتعلمين للُّغة العربية عدد أولئك من البريطانيين ، وأربعة أضعاف أولئك من الروس ، وكان « أرتشيبالد روزفلت » حفيد الرئيس « تيودور روزفلت » منسق النشاط السياسى الخاص قد أمضى عدة أشهر مع قبائل عربية وكردية وفارسية ، وكان يتكلم اللُّغة العربية والكردية والأزبكية والروسية والفرنسية والأسبنولية وبضع لغات أخرى » [(١)] .

* *

● العقبات فى طريق الإسلام :

عن طريق العمل الاستشراقى والقضايا التى جعلها مسلَّمات فى تلافيف أمخاخ قادة الفكر بالشرق الإسلامى وبالوافدين المتوطنين بالغرب - ظهرت هذه العقبات التى نمت وتضخَّمت بتراكمات التأكيد الفكرى والعمل السياسى معاً .

فكان منها تقسيم الأمة العربية إلى دول ودويلات ، فضلاً عن التقسيم القَبَلى وتأريث تواريخ الدم الذى سال بين الأجداد الذين لم يشهدهم الأحفاد . ومن ذلك إحياء القوميات كالفرعونية والقومية العربية وكحزب البعث أو القومية الطورانية أو الأشورية أو الفينيقية أو الفارسية أو البربرية أو النوبية

---

(١) ص ٤٥ ، ٤٦

أو الكردية ، فقد أدى هذا إلى خصومة بين هذه الدول ، بل بين عناصر الدولة الواحدة كما نلاحظ ذلك فى العراق بين الأكراد والعرب ، أو بين السُّنَّة والشيعة فى العراق وأفغانستان وسوريا . . إلخ .

وأحياناً تُستعلن الحرب العنصرية أو الطائفية ، وأحياناً تستتر إلى حين .

وهكذا إشعال فتنة « العلمانية » التى تصور الإسلام ديناً مناهضاً للسياسة وللعلم والاجتماع ، بينما الإسلام هو الرائد المنشط للحركة العلمية والإصلاحية .

ومن ذلك تصوير أن التقدم للدولة يكون بالحكم بالقوانين الوضعية والدساتير الغربية ، أو التى تتجه وجهتها ، ممَّا أدى إلى صراع داخلى بين السلطات الحاكمة بإمكانياتها المسلَّحة والإعلامية ، وبين الشعوب ودعاة الإسلام فيها العُزْل من السلاح ، ومن وسائل الإعلام ، وحتى صارت الدعوة إلى الحكم بالإسلام . وهكذا الحديث عن فساد نظم الحكم الوضعى غير الإسلامية ، وكل عمل يدعو إلى تقويضها لإحلال الإسلام محلها ، يُعَدُّ جريمة ، ويُعتبر الإقدام على ذلك عملاً إرهابياً رهيباً ومخيفاً ، يُتهم صاحبه بالعمل على قلب نظام الحكم .

وبعبارة أخرى . . أصبح الفصل بين الدين والسياسة ، كالفصل بين العلم والدين ، أو بين الدين والعلوم والأنشطة الاجتماعية من القضايا المسلَّمة بين زعماء البلد السياسيين ، كما هى قضايا مسلَّمة بين الغربيين ، وفرق بيننا وبين الغرب فى هذا الاتجاه ، فله مبرراته هناك أقلها ما حفظوه من قولهم : « أعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ، بينما فى الإسلام : ﴿ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ [1] . وفى الغرب كان فساد الكنيسة والقساوسة ، ووقوفهم ضد التطور الفكرى مبرراً للثورة على الكنيسة ، بينما الإسلام ليس له قساوسة ولا كهنة ، وهو رائد للتقدم العلمى فى كافة مجالات البحث العلمى ، ولأن الإسلام وضع نُظُماً للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ووضع قواعد من شأنها التوصل إلى الحقائق بمنطق علمى وعقلى سديد : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [2] .

---

(١) آل عمران : ١٥٤ (٢) الملك : ١٤

ومن هذه العقبات صرف مناهج التعليم بعيداً عن تعميق مفاهيم الإسلام ، لينشأ قادة الأمة جاهلين بها ، فيتحوَّلون إلى خصوم لها ، لأن الإنسان عدوٌ ما يجهل .

ومن هذه العقبات : إغراق المسلمين فى الشهوات بتيسيرها لهم بوسائل الإعلام ، وبالتصدير حتى ينسوا ربهم ، فيوجد شعب منحل ، زمامه بيد الشيطان ، يشكله كما يشاء ، ولا يستشعر الفارق بين الإسلام وبين غيره من المعتقدات الدينية أو الفكرية المادية .

ومن العقبات التى يصنعها المستشرقون وتلاميذهم تقويض اللُّغة العربية وإشاعة العامية حتى لا يتيسر الاتصال بالإسلام ومصادره الأصلية العربية - القرآن والسُّنَّة - لصعوبة قراءتها وفهمها ، وحتى يصعب التعبُّد بتلاوة القرآن وتدبره ، والاستدلال به على ما يحتاج الاستدلال به عليه من أحكام الشرع فى شئون السياسة والعمران .

* *

● وقفات مصر من هزَّات الاستشراق :

عندما نهض « قاسم أمين » بالدعوة لما سمى تحرير المرأة بالمعنى الغربى ، وقف المفكرون ضده يحاجونه بمختلف أنواع الحجج ، ومما قيل عن مبدئه : تحرير المرأة ، إنه « تجرير المرأة » يعنى إلى الرذائل .

وهكذا عندما نادى البعض باستبدال الكتابة بالحروف العربية إلى اللُّغة اللاتينية لم يسلم القائلون بهذا من هجوم الشعب ، وهكذا الموقف مع الذين دعوا إلى الحديث بالعامية ، ولا تزال الحرب الضروس بين الشعب وبين دعاة العلمانية ، ودعاة الفصل بين الدين والسياسة .

وعندما نشر « طه حسين » كتابه « الشعر الجاهلى » سنة ١٩٢٦ ، وكتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » سنة ١٩٣٩ ، نهض مَن تصدُّوا له من الإسلاميين ومن زملائه ، أذكر لسيد قطب أنه عمل كتاب يردُّ فيه على كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » برغم أنه لم يكن قد التحق بالإخوان المسلمين ، وأذكر أن زكى مبارك هاجم طه حسين ، رغم أنهما صديقان ومن كبار تلاميذ المستشرقين .

قال أحد أحمد حمدى إمام : إن هجوم زكى مبارك على كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » لم يكن بمناسبة صدوره وإنما له سوابق ، منذ أول محاضرة ألقاها طه حسين فى الجامعة سنة ١٩١٩ ، ثم بعد رجوع زكى مبارك من باريس ووقوفه على حقائق خطيرة عن الاستشراق والتغريب ، وإن كان على فهم قبل سفره .

وبالرغم من أن زكى مبارك وطه حسين ممن تأثروا بكتابات المستشرقين كما ذكرت فى كتابى « السيرة النبوية وأوهام المستشرقين » [١] ، فإنه اختلف مع طه حسين ، بوازع الفطرة واستقلال الشخصية عن طه حسين .

وقد أجاب سامح كريم عن هذا السؤال : لماذا اختلف ؟

فقال [٢] : « نفوذ المستشرقين وآراؤهم وتبعية المثقّفين الذين يتلقون دروسهم فى السوربون - فى ترويج آراء الغرب والإيمان بها ، ومحاولة زكى مبارك نقض هذه الآراء والتحرر منها .

ومما يؤكد ذلك أن زكى مبارك تحوّل تحولاً عظيماً بعد معركة « الشعر الجاهلى » . فخالف آراء المستشرقين وكشف عن تعمُّدهم خلق الشبهات ، ودعا إلى بعث الإمجاد العربية ، وإلى أن يكون التعليم فى الجامعة المصرية باللُّغة العربية ، حتى إن المستشرقين وصفوه بأنه رجل غير مصقول ، وعاقٌ لأنه خان أمانته للتغريب والحضارة الغربية ورسالة الفكر الفرنسى ، وما رسالة الفكر الفرنسى - كما يذهب بعض المؤرخين للأدب - إلا تسميم الفكر العربى وهدمه .

ولقد أحس مهاجمو كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » الذى نشر سنة ١٩٣٩ بمقدماته الخطيرة ، ويحتاج إلى بحث داخلى وخارجى ، ومراجعة آراء أخرى .

وقد اتهم طه حسين بأنه أخذ فكرته فى التشكك فى الشعر الجاهلى

---

(١) ص ٨٧ - ٩٢ (٢) طه حسين فى معاركه الأدبية ص ٣٢٥

عن « مارجليوث » ، كما أنه روَّج لفكر « وليم مارسيه » عن النثر الأدبى الذى عارضه زكى مبارك فى رسالته التى قدمها للحصول على الدكتوراة من فرنسا .

ولم يسكت الأزهر عندما قام أزهرى ، ووضع كتاباً يزعم فيه أن نظام الخلافة الإسلامية وقوانينها ليست واجباً شرعياً اليوم ، فسلبوه شهادة العالمية ، وأفحموه بالردود الشرعية والعقلية ، وأذكر من بينها رد الدكتور ضياء الدين الريس عليه فى شطر كتابه « النظرية الإسلامية السياسية » ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال : « مصر كنانة الله فى أرضه » .

* * *

الفصل الثالث

النظرة إلى المستشرقين وكتاباتهم

- المستشرقون والثقافة العربية .
- الاختلاف فى تقدير المستشرقين .
- المحذِّرون منهم .
- أسلوب المستشرقين فى حقدهم بين الصراحة والخفاء .
  - * فى العصور الوسطى .
  - * بعد منتصف القرن التاسع عشر .
- أساليب الحرب الفكرية الخفية .
- آثار التجريح .
- لماذا الاهتمام بتجريح الرسول ؟
- دوافع الانحراف وأسبابه .

المستشرقون والثقافة العربية

استرعى انتباهى الدكتور سليمان دنيا بهذا العنوان فى مقدمته للإشارات والتنبيهات لأبى على بن سينا وشرحه لنصير الدين الطوسى ، وهى كلمة حق أرى فيها صدق القلب واليقين ، آثرت أن أنقلها بنصِّها لما فيها من حق أولاً ، ولما للشيخ وقوله من قيمة علمية ثانياً . قال وفقه الله (١) :

« وبصدد الحديث عن الإخراج المسرف فى التأنق الذى أُغرمنا به اقتداءً بالمستشرقين أحب أن أشير إلى أن الثقة الكبيرة التى أوليناها للمستشرقين حتى اتخذنا منهم أساتذة لنا هى ثقة لم تقم على أساس سليم لاعتبارات كثيرة :

« منها : أن الاستشراق قام فى أول ما قام وفى معظم ما قام - على غير أساس علمى خالص ، بل ارتبط بأمور هى أشبه بالسياسة منها بأى شىء آخر ، ونتيجةً لذلك أعوزه عنصر أصيل من العناصر التى يتطلبها البحث العلمى ، وهو النزاهة والتخلى عن الأغراض .

« ومنها : أن الاستشراق - بغضِّ النظر عن عنصر النزاهة - قد خالطته كبرياء لا تليق بالعلم والعلماء . ذلك أن العلوم منها خاص يختص بفريق دون فريق من الناس ، ومنها عام هو شركة بين الناس جميعاً .

« **أما العام** . . فهو الذى يعتمد على مقومات مشتركة بنسب متساوية أو متقاربة بين أبناء الجيل الواحد ، أو الأجيال المتقاربة ، كالحساب والجبر والهندسة مثلاً ، أو كالفلك والطبيعة والطب ، فإن التفاوت إن حصل بين قبيل وقبيل فى هذا العلم أو ذاك ، فهو راجع فى الغالب إلى تيسُّر آلات تساعد على سرعة الكشف ودقته ، لفريقٍ أكثر من فريق ، لا إلى مواهبَ ومقوماتٍ إنسانية امتاز بها فريق على فريق .

(١) الإشارات والتنبيهات القسم الأول ص ١٢ ، ١٨ - طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠

« وحين يتيسر لفريق أن يسبق آخر فى هذا المضمار ، فلا بأس أن يأخذ المتأخر عن المتقدم ، والأمر فى ذلك قُلَّب ، فالآخذ فى وقت يصبح مأخوذاً عنه فى آخر ، والمأخوذ عنه فى فترة قد يصبح آخذاً فى فترات ، وتاريخ العلوم شاهد على ذلك .

« **أما الخاص من العلوم** . . فهو الذى ينبنى على مواهب وأصول ، ليست عامة بين الناس ، ولكنها خاصة بفريق منهم : كاللُّغة مثلاً . . فاللُّغة العربية خاصةٌ بالعرب واللُّغة الإنجليزية خاصة بالإنجليز ، فليس يمكن أن يقال : إن الإنجليز أعرف بلغة العرب من العرب أنفسهم ، ولا أن العرب أعرف بلغة الإنجليز من الإنجليز أنفسهم ، ولو صح أن يقال : إن شخصاً إنجليزياً أجادَ اللُّغة العربية حتى أصبح فيها أقدرَ من بعض العرب ، فليس يصح أن يقال : إن الأمر فى ذلك صار قضية كلية فيكون كلُّ المتعلمين للُّغة العربية من الإنجليز أقوى فى اللُّغة العربية من المتعلمين العرب ، ولا كل المتعلمين للُّغة الإنجليزية من العرب أقوى فى اللُّغة الإنجليزية من المتعلمين الإنجليز .

« وهناك علوم أخرى شأنها فى ذلك شأن اللُّغة كعلوم القرآن والحديث والفقه الإسلامى وتاريخ التشريع الإسلامى ، والتاريخ الإسلامى نفسه ، وعلوم البلاغة العربية والأدب العربى . فليس يمكن أن يكون غير العرب أقوى فى هذه العلوم من العرب ، ذلك لأن اللُّغة العربية تلعب دوراً هاماً ، بل تلعب دوراً كبيرَ الأهمية جداً فيها . فمعرفة الناسخ والمنسوخ مثلاً [1] ، أو العام والخاص وما إلى ذلك من دراسات قرآنية ، تعتمد أولاً وقبل كل شيء على تحديد الدلالة اللَّفظية ، ومفاد الجملة ، ليمكن إدراك التعارض والتمانع اللَّذين يترتب عليهما القول بأن اللاحق يتعارض مع السابق حتى يكون هذا ناسخاً لذاك أو مخصصاً له . . . إلى آخر ما يقال فى هذه المواضع .

---

(١) أصدرت لبيان بطلان دعوى الناسخ والمنسوخ كتابى : « النسخ فى الشريعة الإسلامية كما أفهمه » ، فليراجع .

« وكذلك يقال فى تاريخ التشريع الإسلامى ومنشأ الخلاف بين الأئمة المجتهدين ، ومبلغ ارتباط ذلك بالدلالات اللُّغوية وعمقها وغزارتها وتنوعها .

« وهكذا . . وهكذا فى سائر العلوم الإسلامية والعربية التى تُعتبر اللُّغة العربية بمثابة القاعدة منها والأساس لها .

« وإذا ساغ فى العامِّ من العلوم أن يأخذ هذا الفريق من الناس عن ذاك الفريق - حسب التفوق أو السبق - فليس يجوز فى الخاص منها إلا أن يأخذ الدخيل عن الأصيل ، والأجنبى عن غير الأجنبى .

« هذا هو النهج السليم للدراسة الصحيحة ، وعلى هذا النهج سار الناس فى إفادتهم واستفادتهم . فالإنجليز مثلاً يوفدون إلى فرنسا من أبنائهم مَن يريدون له ومنه أن يكون متفوقاً فى اللُّغة الفرنساوية .

« والعرب يوفدون من أبنائهم إلى بلاد الإنجليز مَن يريدون أن يكون تام المعرفة باللُّغة الإنجليزية ، وهكذا غير العرب وغير الإنجليز .

« لكن الغرب لما رأى نفسه متفوقاً عن بعض الشرقيين فى مضمار السياسة أبى عليه كبرياؤه - وهو الحاكم والسيد فى المجال السياسى - أن يجلس أمام الشرقيين يتتلمذ عليهم ويتعلم منهم ما هو خاص بهم من علم ومعرفة ، وحاولوا أن يتعلموا هذه العلوم بأنفسهم ، وفى بلادهم ، ولا بد أنهم استعانوا أول الأمر بالشرقيين ، ولكن فى نطاق فردى وغير رسمى ، ثم فكروا فى إنشاء معاهد خاصة للدراسات الشرقية فى بلادهم ، فأنشأوا كليات أسموها كليات الدراسات الشرقية ألحقوها بالجامعات فى حواضر البلاد الغربية ومدنها الكبرى ، وأشبعنا نحن غرورهم هذا ، فأوفدنا نحن العرب والمسلمين أبناءنا إلى بلاد العرب يتعلمون فيها علومنا الإسلامية والعربية فى هذه الكليات ، ويحصلون منها على الدرجات العلمية ، وصار مألوفاً أن يُبعث أبناء كلية الآداب وأبناء دار العلوم وأبناء الأزهر إلى كليات الدراسات الشرقية فى حواضر بلاد الغرب يدرسون اللُّغة العربية ، ويحصلون على درجات علمية

فى الأدب العربى على أيدى أساتذتهم المستشرقين الذين لا يُحسنون كتابة خطاب باللُّغة العربية ، ويحصلون على درجات علمية فى الفلسفة الإسلامية على أيدى أساتذتهم المستشرقين الذين لا يتيسر لهم أن يفهموا عباراتها الشبيهة بالألغاز - تلك العبارات التى يعجز المتضلعون فى اللُّغة العربية عن فهمها ، ولا يبلغ مرادَ أصحابها منها إلا فئةٌ خاصة لها دراية بأساليبها المركزة ، وعباراتها المعقدة .

« ويحصلون على درجات علمية فى علم الكلام وتاريخ التشريع ، وأيضاً الفقه الإسلامى ، على أيدى أساتذتهم الذين إن أمكنهم أن يُخرجوا كتاباً فى التوحيد أعجزهم أن يفرقوا بين التقرير والحاشية ، أو بين المتن والشارح ، فضلاً عن أن يفهموا ذلك كله ، ويُتابعوا الفكرة وهى تنتقل بين عارض موجز وشارح موضح ، وناقد أو مكمل ، وموازن أو مرجح .

« وإن أمكنهم أن يقرأوا تاريخ التشريع فليس يمكنهم أن يفطنوا إلى الـمَلاحظ الدقيقة ، ولا إلى الاعتبارات اللُّغوية التى دخلت فى حساب الأئمة المجتهدين وهم يرسمون لأنفسهم مناهج البحث وطرائق استنباط الأحكام .

« وإن أمكنهم أن يقرءوا الفقه الإسلامى فلن يختلف موقفهم منه عن موقف رجل من المشتغلين بالفلسفة أو بالتاريخ مثلاً ، أراد أن يطلع على القانون الوضعى ، فلن يبلغ فيه ، وهو غير متفرغ له ، مبلغ رجال القانون أنفسهم ، مع الفارق الكبير بين القانون الوضعى والفقه الإسلامى ، إذ القانون الوضعى مستَمدٌ من عقول البشر التى هى على تفاوتها شركةٌ بينهم ، أما الفقه الإسلامى فهو تشريعاتٌ إلهية قد تعلو حكمةُ تشريعها عن مستوى تفكير الجمِّ الغفير من الناس ، هذا فضلاً عن أنها نزلت بلسان عربى ، وللعرب وحدهم ميزة القدرة على فهمه الفهم الصحيح .

« ولقد دخلت الفلسفة الإسلامية نفس المحيط الذى نزله الفقه الإسلامى وتاريخ التشريع الإسلامى ، والتاريخ الإسلامى ، وعلم الكلام الإسلامى ،

والأدب العربى ، وصار للفلسفة الإسلامية نتيجةً لذلك - أساتذة عالميون من المستشرقين يقولون فيسمع العالم العربى كله لما يقولون ، ويؤلفون فتكون مؤلفاتهم حُجَّة بين المؤلفات ، ويُخرجون الكتب فيكون إخراجهم نمطاً عالياً ، يقاس به إخراج غيرهم .

« إن هذه الهيمنة العلمية على شئوننا العربية والإسلامية هى اغتصابٌ اغتصبه المستشرقون الغربيون ، كما اغتصب ساستهم أوطان العرب والمسلمين ، وإذا كان العرب قد طردوا المستعمرين من جميع بلادهم أو كادوا ، والمسلمون كلهم سائرون فى نفس الطريق ، فمن واجب العلماء العرب والمسلمين على السواء أن يطهِّروا ميدانهم الفكرى الخاص بهم من الاستعمار الغربى ، كما طهَّر الساسة ميدانهم الأرضى والمائى والجوى من الاستعمار المادى .

« وإذا كان رجال الفكر فى العالم العربى والإسلامى ينظرون إلى الساسة العرب والمسلمين نظرة إكبار تارةً ، ونظرة سخط أخرى ، حين ينجحون فى أمر ، أو حيث يفشلون فيه ، فإن الساسة أيضاً بدورهم ينظرون إلى رجال الفكر نفس النظرة ، ويتطلبون منهم أن ينجحوا فى مهمتهم ، وأن يتحرروا من الغزو الدخيل الجارح لكرامتهم ، فليس أشنع من أن يقال : إن الباحث الفلانى الذى حصل على أكبر درجة علمية معترف بها فى مصر فى الفقه الإسلامى ، أو فى علم الكلام الإسلامى ، أو فى تاريخ التشريع الإسلامى ، أو فى التاريخ الإسلامى ، أو فى الأدب العربى ، أو فى الفلسفة العربية قد سافروا إلى أوروبا لاستكمال الدراسة فى هذه المواد هناك ، أو للحصول على درجة علمية معترف بها من المستشرقين فى الجامعات الغربية .

« إن هذا فى نظرى شفاعة دونها كل شفيع ، ولعل عدم إحساسنا بخسَّتها وحقارتها راجع إلى أن النفوس كانت فى الماضى قد مرنت على الذلة ، وألِفت الضِّعة واستكانت للضَّيم ، أما الآن ، وقد أفقنا من التخدير الذى شلَّ شعورنا وإحساسنا بالكرامة ، وتذوقنا طعم الكرامة والمجد فلم يصبح

هنالك مبرر لبقاء الوضع المقلوب الذى يجعل من الأساتذة تلاميذ ومن التلاميذ أساتذة ، نريد أن نستعيد كرامتنا العلمية والمعنوية ونسترد مجدنا الفكرى الضائع ، نريد أن يكون لنا ما لغيرنا من حق ، فيما هو خاص بنا وملك لنا دون سوانا ، نريد .. فهل نحن فاعلون » ؟

أقول : وهل يسمع الدكتور سليمان دنيا أولئك الذين يقولون : « لا نريد أن نمنح دكتوراة أزهرية خالية من المراجع الأجنبية لأبنائنا » ؟

هل ستنحل لديهم بعد هذا الكلام المؤمن الوطنى عقدة الخواجة ؟!

* * *

الاختلاف فى تقدير المستشرقين

إن أقل ربح ربحه المستشرقون هو تمزيق المفكرين الإسلاميين حولهم ، وتحويل الصراع ضد الغزو الفكرى الأجنبى إلى صراع بين المسلمين حول المستشرقين : أحسنوا أم أساءوا . .

وفى مجلة المعرفة التى كان يصدرها عبد العزيز الإسلامبولى تجد فى المجلد الثانى [1] صورة للصراع بين الدكتور زكى مبارك والدكتور حسن الهوارى ، وكذلك محمد أمين حسونة ، ومن هذا القبيل الصراع حول أصل كلمة « التصوف » بين الشيخ مصطفى عبد الرازق ومحمد لطفى جمعة والإسلامبولى و« مرجليوث » فى مجلة المعرفة . . وكالمعرفة غيرها من المجلات والصحف .

ولا ريب أن الذين تتلمذوا للمستشرقين يكنُّون لهم الاحترام ، بل منهم مبشرون بتعاليمهم ونظرياتهم ، ويلهجون بالثناء عليهم ، وفى مقدمة هؤلاء طه حسين .

● رأى العقيقى :

أما الأستاذ نجيب العقيقى فى كتابه « المستشرقون » فإنه يُقَدِّرهم ويُثنى عليهم ، وإن كان يُحذِّر من كتابتهم فى الإسلام وتاريخه ، ويعترف بأن لهم أخطاء فى تفهُّم المذاهب ، فقد جاء فى كتاب « مختارات الحب عند العرب ، لـ « مارتينو » (ص ٥٩) : أن ابن الفارض هو أول عربى طالب بتحرير المرأة .

ونحن لا نعرف كيف فهم هذا بعد أن قام شُرَّاح كثيرون أثبتوا صوفية

---

(١) المعرفة المجلد الثانى ص ١٧٧ ، ٣٠٢ ، ٤١٥ ، ٤٨١ ، ٧٢٥ ، ٧٢٣ ، ٢٢٣ ، ١٢٢١ . وفى التصوف ص ٩٢٤ ، ٧٨٢ ، ٢٦٩ ، ٣٨٩ ، ١٣٥ من المجلد الأول سنة ١٩٣١ م (١٤٣٩ هـ) .

ابن الفارض ، كما تناوله كثير من المستشرقين فحققوا صوفيته ، وجعلوا له مبادىء وأغراضاً ، ونفوا عنه عشقه وهيامه الماديين .

ثم إن الكلمات تختلف من موضع لآخر ، فتزداد قوة أو تخف وقعاً ، فتعدل فى التراكيب ، ولـمَّا لم يحسن بعض المستشرقين الترجمة عمد إلى الاستنتاجات ، فقد ترجم « كازانوڤا » كلمة « أُمِّى » إلى كلمة « شعبى » ، وترجم « كازميرسكى » قول الله للملائكة : ﴿ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ [1] - أى أمام سيادة الإنسان . فترجمها : اعبدوا آدم ، وترجم « هواء » بمعنى « هوى » فى قول الشاعر العربى :

بأبى أنت وأمى من مليكٍ قلَّ عدله ‏ ‏ ‏ ‏ وبخيل بالهوا لو كان يُغنى عنه بُخله

ثم قال : « ومما يؤخذ على المستشرقين اعتمادهم على أُصول اللُّغة ، ومعظمُها لا قواعد له ، فيشرحون على الطريقة الكلامية دون معرفة القصد الذوقى منها ، وثمت تعابير عربية أو دخيلة يشق عليهم فهمها ، وخاصة إذا استندوا إلى مَن تقدمهم من مستشرقين ، وقد كتبوها بالحروف اللاتينية التى كثيراً ما لا تفى بحاجة اللفظ العربية » .

« ومن أخطائهم الأصولية (فى اللُّغة) جمع بعضهم « زيت الزيتون » على زيت الزيتين ، وكلمة « لوردين » بدلاً من لوردات لأنها جمع مذكر عاقل ، أو كما جمع « وستنفان » قطاراً على « قُطْران » ، وردَّ « دوزى » بقوله فى هذا : صوابها « قطارات » ، فصححها الشيخ اليازجى على « قُطُرات » ومثل تفسير « كزمير » الأحداث بالغوغاء ، وهم يصححون بعضهم لبعض - كما وقع لـ « دوزى » و« فريتنج » وغيرهما » [فى هذا الجانب أحياناً] .

ثم تحدث الكاتب عن تلامذة المستشرقين من العرب كطه حسين الذى أنكر

---

(١) البقرة : ٣٤

الأدَب الجاَهلي تقليداً للغربيين حين أنكروا أدبهم الجاهلي وشكوا فيه ، وأنكر عليهم غرورهم وترفُّعهم عن العلماء العرب وتفضيلَهم علماء الغرب عليهم [1] .

ومن تلامذة المستشرقين معتدلون كالدكتور محمد حسين هيكل ، إذ نادى بالاستفادة من مناهجهم العلمية دون أن نغفل أنهم – فيما يذكرونه عن الإسلام – خصوم له قبل كتابتهم ، ولكنه – رحمه الله – ومعظم الذين يقرأون لهم قد تأثروا بما كتبه هؤلاء المستشرقون قليلاً أو كثيراً ، حتى الذين يردون على المستشرقين بعضَ مفترياتهم .

* *

● المحذِّرون منهم :

وفي الجانب الآخر لأنصار المستشرقين علماء حذَّروا منهم كالمرحوم الدكتور مصطفى السباعى فى كتابه « السُّنَّة » ، وكالأستاذ مالك بن نبى فى رسالته « إنتاج المستشرقين وأثره » .. ومن قبلهما كثيرون من الأعلام ، فقد قال عنهم أحمد فارس الشدياق فى ذيل « الفارياق » (ص ٢) :

« إن هؤلاء الأساتيذ لم يأخذوا العلم عن شيوخه ، وإنما تطفلوا عليه تطفلاً ، فوثبوا توثباً ، ومَن تخرَّج فيه بشىء فإنما تخرَّج على القسس ، ثم أدخل رأسه فى أضغاث أحلام ، أو أدخل أضغاث أحلام فى رأسه ، وتوهم أنه يعرف شيئاً وهو يجهله ، وكل منهم إذا درس فى إحدى لغات الشرق ، أو ترجم شيئاً منها تراه يخبط فيها خبط عشواء ، فما اشتبه عليه منها رقَّعهُ من عنده بما شاء ، وما كان بَـيِّن الشبهة واليقين حدس فيه وخمَّن ، فرجَّح منه المرجوح ، وفضَّل المفضول » .

---

(١) المستشرقون ص ٢٠٧ ، ٢٠٨

وقال الأمير شكيب أرسلان فى كتابه « الرد على الأدب الجاهلى » (ص ١٠٠) :

« وعلى كل الأحوال لا يقدر أحد أن يقول : إن الشرقيين ليسوا أدرى من الغربيين فى آداب الشرقيين ولغات الشرقيين ، ولا يقدر أحد أن يدَّعى أن « مرجليوث » وغيره من المستشرقين يستطيعون أن يفهموا الكلام العربى أكثر من علماء العرب ، وإن من أحمق الحمق أن نظن أن « مرجليوث » بكونه إفرنجياً صار يميز الشعر المصنوع على لسان الجاهلية من الشعر الجاهلى الأصلى . . » .

« وأما هؤلاء المستشرقون المتنطعون - ولا يطلق هذا إلا على نزر منهم - فإذا عَثروا على حكاية شاردة أو نكتة فاردة - فى زاوية كتاب قد يكون محرَّفاً - سقطوا عليها تهافُتَ الذباب على الحلواء ، وجعلوها معياراً ومقياساً ، لا . . بل صيَّروها محكَّماً يعرضون عليها سائر الحوادث ، ويغفلون أو يتغافلون عن الأحوال الخاصة والأسباب المستثناة ، ويرجع كل هذا التهوُّر إلى قِلَّة الاطلاع فى الأصل ، هذا إذا لم يشب ذلك سوءُ قصد ، لأن الغربى لا يبرح عدواً للشرقى ورقيباً له ، والنادر لا يعتدُّ به » .

* * *

أسلوب المستشرقين فى حقدهم
بين الصراحة والخفاء

إن كتابة المستشرقين عن الإسلام ورسوله - بوجه عام - قد اتجهت اتجاهين ، اتجاه كتَّابهم فى العصور الوسطى ، واتجاههم فى العصر الحديث ، الأول سافر بالخصومة والثانى ملتو غامض .

● فى العصور الوسطى :

وذلك بدء عهد الاستشراق ، وقد جنح الكُتَّاب فى تلكم الآونة وعلى رأسهم قادتهم من الرهبان والقساوسة يُصوِّرون الإسلام ورسوله فى صورة مُشوَّهة تقبِّح الإسلام ورسوله فى نظر القراء ، فهى كتابة تستهدف إقامة السدود النفسية والوجدانية حول المسيحيين حمايةً لهم من التفكير فى الإسلام والبحث عنه فى مراجعه الأصلية الصحيحة . ويعلل المستشرق الإنجليزى « مونتجمرى وات » فى محاضرة له بجامعة الكويت سنة١٩٧١ لذلك قائلاً : « إن الأوروبيين فى عصر النهضة كان لا يزال لديهم إحساس بالنقص بالنسبة للمسلمين ، ولذلك عمد مفكروهم إلى تشويه حقائق الإسلام ، فعرضوا الإسلام ، وتاريخ المسلمين فى صورة منفرة .

وقد جاء فى موسوعة « لاروس » الفرنسية خلال العرض لآراء كُتَّاب المسيحية إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر ممن نالوا من محمد شر نَـيْل ما يأتى : « بقى محمد مع ذلك ساحراً ممعناً فى فساد الخُلُق ، لص نياق ، كردينالاً ، لم ينجح فى الوصول إلى كرسى البابوية فاخترع ديناً جديداً لينتقم من زملائه ، واستولى القصص الخيالى والخليع على سيرته ، وسيرةُ باهومية « محمد » تكاد تُقيم أدباً من هذا النوع ، وقصة محمد التى نشر « رينو » و« فرانسيسك ميشيل » سنة ١٨٣١ تصور لنا الفكرة التى كانت لدى أهل العصور الوسطى عنه ».

وفى القرن السابع عشر نظر « بيل » فى تاريخ آى القرآن نظرة تاريخية ، مع ذلك ظلت مقررات ظالمة ثابتة فى نفسه عنه ، على أنه يعترف مع ذلك بأن

النظام الخُلُقى والاجتماعى الذى أقامه محمد لا يختلف عن النظام المسيحى لولا القصاص وتعدد الزوجات (فى المسيحية المعاصرة ، وإلا فهما فى التوراة والإنجيل المنزَّلين على موسى وعيسى) .

وقال « إميل درمنجم » الفرنسى فى كتابه « حياة محمد » (ص ١٣٥ - وما بعدها) : « لما نشبت الحرب بين الإسلام والمسيحية اتسعت هوة الخلف وسوء الفهم - بطبيعة الحال - وازدادت حدةً ، ويجب أن يعترف الإنسان بأن الغربيين كانوا السابقين إلى أشد الخلاف ، فمن البيزنطيين مَن أوقروا الإسلام احتقاراً من غير أن يكلفوا أنفسهم - فيما خلا « جان داماسين » - مؤونة دراسته ، ولم يحارب الكُتَّاب والنظَّامون مسلمى الأندلس إلا بأسخف المثالب ، فقد زعموا أن محمداً لصٌّ نياق ، وزعموه متهالكاً على اللَّهو ، وزعموه ساحراً ، وزعموه رئيس عصابة من قُطَّاع الطرق ، بل زعموه قساً رومانياً مغيظاً محنقاً أن لم يُنتخب لكرسى البابوية ، وحَسِبَه بعضهم إلهاً زائفاً يُقرِّب له عبَّاده الضحايا البشرية » .

وإن « جبير دى نوجَن » نفسه - وهو رجل جدٌّ - ليفقد توازنه فيذكر أن محمداً مات فى نوبة سُكْر بيِّن ، وأن جسده وُجِدَ ملقىً على كوم من الروث ، وقد أكلت منه الخنازير ، وذلك ليفسر السبب الذى من أجله حُرِّم الخمر وحُرِّم لحم ذلك الحيوان [1] .

« وذهبت الأغنيات إلى حد أن جعلت محمداً صنماً من ذهب ، وجعلت المساجد الإسلامية برابىَّ ملأى بالتماثيل والصور ، وقد تحدَّث واضع أغنية أنطاكية حديثَ مَن رأى صنم « ماحوم » مصنوعاً من ذهب ومن فضة خالصين ، وقد جلس فوق فيل على مقعد من الفسيفساء . أما أغنية « رولان » التى تُصوِّر فرسان « شارلمان » يحطمون الأوثان الإسلامية فتزعم أن مسلمى الأندلس يعبدون ثالوثاً مكونا من « ترفاجان » ، و« ماهوم » ، و« أبولون » وتحسب « قصة محمد » أن الإسلام يبيح للمرأة تعدد الأزواج » [2] .

---

(١) هذه صورة تنم عن الجهل المطبق لأن تحريم الخمر ولحم الخنزير كان فى عهد النبى وهو الذى أخبرنا بتحريم الله لهما ، ولم يُحرِّمهما المسلمون من بعده ، وفى القرآن آيات التحريم .

(٢) أرأيت كيف يتعاون الفنانون فى تشويه سيرة الرسول ودينه فيما يضعونه من أغان ؟!

« وقد ظلت حياة الأحقاد والخرافات قوية متشبِّثة بالحياة ، فمنذ « رودلف دُلُوهَيم » إلى وقتنا الحاضر قام « نِيكولا دكيز » و« وفيفس » و« مرانشى » و« هوتّنجر » و« بيلْياندر » ، و« بريدو » وغيرهم ، فوصفوا محمداً بأنه دجال ، والإسلام بأنه مجموعة الهرطقات كلها ، وأنه من عمل الشيطان ، والمسلمين بأنهم وحوش ، والقرآن بأنه نسيجٌ من السخافات ، وقد كانوا يعتذرون عن الحديث الجِدِّ فى أمرٍ هذا مبلغُ سخافته .

« ومع ذلك فإن « بيير باسكال » من الذين توسَّعوا فى الدراسات الإسلامية فى القرن الرابع عشر ، ومن قبله « بيير » المحترم « ڤنرابل » مؤلف أول رسالة غريبة ضد الإسلام قد ترجم القرآن فى القرن الثانى عشر إلى اللاتينية ، وقد وصف « إنُّوسان الثامن » محمداً يوماً بأنه « عدو المسيح » ، أما القرون الوسطى فلم تكن تحسب محمداً إلا هرطيقاً (١) ، وكان لـ « ريمون ليون » فى القرن الرابع عشر ، ولـ « غليوم بَسْتل » فى القرن السادس عشر ، ولـ « رولان » و« چانييه » فى القرن الثامن عشر ، وللقسيس « دِبْرُجْلى » ، ولـ « رينان » فى القرن التاسع عشر آراء وأحكام مختلفة . على أن الكونت « بُولَنْفلْييه » و« شُول كوسَّان دبْرسفال » و« دوزى » ، و« سبرنجر » و« بارتلمى سانتيلير » و« دكاسترى » ، و« كارليل » وغيرهم يُظهرون على وجه الإجمال - إنصافاً للإسلام ونبيه ، ويُشيدون - فى بعض الأحيان - بهما . مع ذلك فإن « دْرُوتى » يتحدث فى سنة ١٨٧٦ عن محمد الصادق العف النظيف قائلاً عكس هذا بأسلوب سباب ، لا علم ، كما طعن عليه « فوستر » من قبل ذلك سنة ١٨٢٢ ، وما يزال للإسلام حتى اليوم محاربون متحمسون .

* *

---

(١) أى جدلى ، والهرطقة : الجدل غير المفيد فيما لا حقيقة له ولا منفعة .

● مردُّ الخصومة :

ومردُّ هذه الخصومة بين الإسلام والمسيحية راجع إلى جهل الغرب بحقيقة الإسلام وبسيرة النبى ﷺ ، كما أن حُمَاة المسيحية حين شعروا بأنها دين لا يوائم [١] طبيعة الغرب الذى عاش أُلوف السنين على تعدد الآلهة ، والذى يدعوه مركزه الجغرافى إلى حياة الكفاح لمغالبة الزمهرير [٢] والضَّنك وسوء الحال ، وأحسوا بأن الغرب سيتفلَّت من المسيحية إلى أقرب دينٍ للفطرة - وهو الإسلام - أسرعوا إلى محاربته وأسرفوا أيَّما إسرافٍ ، وأرادوا أن يُسقطوا عن نفس الشخصية المسيحية عارَ سقوط « هرقل » وحضارته تحت سنابك [٣] الخيل الإسلامية بافتراء الانحطاط وشتَّى المثالب [٤] على محمد ورسالته وأتباعه - دفاعاً لا شعورياً عن النفس ونتيجةً لمركب عُقدة الاستخذاء والغرور والجهل ، فكان ما رأيناه من العداء السافر فى الأغانى والعظة الأسبوعية والقصة والتأليف التاريخى .

وقد أدَّى هذا اللُّون من الكتابة نتائجه فى صفوف الغربيين ؛ إذْ صرفهم عن دارسة الإسلام والتفكير فيه ، وجمَّد العوام على مسيحيتهم ، ووجه الباحثين عن الرُّوح [٥] الرَّوحى والهدوء النفسى وناشدى [٦] فَىء السعادة وبَرْدها بعيداً عن لَهب الصراع المادى الدائر الرحى - إلى الديانات الهندية والصينية بعيداً عن الروحانية المسيحية التى أصبحت فى قفص الاتهام بعد كثرة الانشقاقات المذهبية والثورات الإصلاحية ، فظهرت « الڤيوزوفية » على يد مدام « بلافاتسكى » وقد اقتبستها من البوذية وسيلةً للإخاء العالمى ، وما لبثت أن أصبحت مذاهب ثلاثة عقب موتها [٧] ، واستغل المستعمر العامة نتيجة هذه المفتريات لغزو العالم الإسلامى .

---

(١) يوائم : يلائم ويوافق ويتفق مع .
(٢) شدة البرد .
(٣) السُّنبُك - بضم السين والباء : طَرَف الحافر .
(٤) المعايب
(٥) الرَّوح - بفتح الراء : الراحة والسيم .
(٦) أى طلاب وباحثون عن ....
(٧) « حياة محمد » - الطبعة الثانية - ص ١٢ ٣٠

على أن هذا الأسلوب لم يكن ذا أثر سيء - بصورة عامة - عند المسلمين الذين لا يقرأون هذه المفتريات ، بل ولا عند القلّة الذين أُتيح لهم أن يستمعوا لها أو يقرءوها ، ذلك لأن الإيمان المستقر بين جوانحهم ما كانت لتزحزحه مفتريات باطلة لا دليل عليها ، بل إن الإغراق فى الافتراءات على الإسلام ورسوله بعث فى بعض المستشرقين طموحاً إلى تبوأ مراكز ريادة حرية البحث وحرية الكلمة. . فأخذوا يكتبون عن بعض الحقائق المشرقة فى جوانب الإسلام وتاريخ الرسالة ، ولم يذروا استرضاء الجماهير المتعصبة فكان لهم من الغمزات واللّمزات شىء يقلُّ أو يكثر حسب حاجة الكاتب إلى رواج بضاعته ، وأشدُّ المستشرقين حدة وحقداً على الإسلام ورسوله وتاريخه الفرنسيون والكاثوليك الذين تحتضنهم فى العالَم جمهورية فرنسا ، ومن أشهرهم « أرنست رينان » و« كيمون » ، و« هانوتو » ، و« فولتير » وهم بعد عصر النهضة .

ومن هؤلاء السافرين بالخصومة والافتراء المستشرق « كازيميرسكى » الذى تولى الرد عليه الأُستاذ « أبو الوفا محمد درويش » ، والمستشرقة الآنسة « لورا هيلين سوبريدج » الإنجليزية فى كتابها « أحلام المرأة ورسالتها » ، وقد كتب مقدمته أسقف لندن ومنهم المستر « كاش » فى كتابه « العالم الإسلامى فى ثورة » ، وقد زعم فيه أننا نحن المسلمين نُضفى على محمد ﷺ - مسحة مسيحية ، وقد تولى الرد عليه المستشرق « خ . كمال الدين » فى كتابه « المثل الأعلى فى الأنبياء » ، وقد ترجمه « أمين محمود الشريف » [1] ومنهم المستشرق اليهودى « داود صمويل مرجليوث » المتوفى عام ١٩٤٠

ومنهم « م . سفارى » الذى تابعنا نقد مفترياته فى صلب كتابه « مختصر

---

(١) كما رددت عليه فى كتابى « السيرة النبوية وأوهام المستشرقين » - الناشر مكتبة وهبة بالقاهرة .

حياة محمد » في إحدى الدراسات [1] وغير هؤلاء كثيرون .. وأمثالهم في عصرنا هذا كثيرون ولكنهم لا يستعلنون في المجتمعات الإسلامية بمفترياتهم إلا عندما يحسون بضعف مجتمع سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وعلمياً كما حدث أخيراً في أندونيسيا .

* *

● **بعد منتصف القرن التاسع عشر :**

وبعد عصر النهضة كانت يقظة فكرية ، وكان حرص على تقصي الحقائق واكتشاف المجهول من الآثار سواء المطمور تحت الأرض من النقوش والعاديات كالتي تولاها مَن سُمُّوا علماء الآثار ، أو المسطور المغمور المطروح في آفاق النسيان ، أو في زوايا الإهمال بالزوايا أو التكايا ومكتبات الأفراد ، من نوادر المخطوطات المبعثرة في العالم الإسلامي جميعه مكتوباً بالعربية أو الفارسية أو الهندية أو التركية .

وهؤلاء المنقِّبون من أمثال « جوستاف لوبون » في كتابه « حضارة العرب » ، و« دوزي » في كتابه « الإسلام في الأندلس » ، و« سيديو » في كتابه « فضل العرب على الحضارة الأوروبية في القرن التاسع عشر » ، و « كارليل » في كتابه « الأبطال وعبادة الأبطال » ، وقد اتجه اتجاهه وعلى منهجه « هجنز » و« دبفونْبرت » و « بوزْورث سميث » في إنجلترا ، و« كِرهْل » و« جريمنس » في ألمانيا ، ومثلهم اللورد « هدلي » الملقب بـ « سيف الرحمن رحمة الله فاروق » الذي أسلم وتوفي عام ١٩٣٥ ، ومستر « كاش » ، والكاتب الإيطالي « كيتاني » الذي هدم الدعاوى المتكررة التي يحتج بها علماء النصارى على الإسلام .. هؤلاء غالباً ما كان يدفعهم إلى البحث وقول كلمة الحق إلا الرغبة في إظهار معلومات مجهولة هي في عداد الآثار ، وبغيْبة عن ورثة أهل هذه الآثار والكنوز الفكرية المطمورة ، فقد مات أبطالها وخلفوا من

---

(١) السيرة النبوية وكيف حرَّفها المستشرقون : ترجمة محمد عبد العظيم ، ونقد وتحقيق عبد المتعال الجبري - طبع دار الدعوة بمصر .

بعدهم ذريةً ضعفاء فى مجتمعات أصابها إعصار فيه نار فاحترقت ، ثم لأن جُلَّ هؤلاء الباحثين - إلا مَن أسلموا - كانوا متحللين من الأديان ثائرين عليها ، فهم يدرسونها للعلم وحده .. ولم يدرُ بخلدهم أن ما يكتبون سيصل يوماً إلى المسلمين ، فيكون شهادةً من أعداء الإسلام لمجدهم الغابر ، والفضلُ ما شهدت به الأعداء ، فيعتزون بهذه الشهادات ، وينشرونها لتحمى الشخصية الإسلامية من التمزق ، والإحساس بالضَّياع والخيبة ، ولتحمى الشخصية الإسلامية كذلك من الشعور بالنقص شعوراً أوْدَى بالبعض إلى الهاوية ، وألقى بهم فى مهامه التقليد للفرنجة حتى كفروا بأنفسهم وبتقاليدهم وأُمتهم ، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا آلاتٍ ومطايا للغربيين بدلاً من أن يكونوا ذوى كرامة شخصية وقومية ، وغدوا أبواقاً للاستعمار والصليبية والصهيونية .

لقد كان أخطر دَوْر لعبه المستشرقون فى حرب الإسلام عملياً هو ما تجلَّى فى بناء المدارس من الحضانة إلى الجامعة ، وهى التى يُعلِّمون فيها الناشئة من أبناء المسلمين ، من كل الطبقات وبخاصة الطبقات ذات الصفة القيادية العالية والوسيطة ، وكذا فى استغلال مهنة الطب والتمريض وعمل المشافى والمستوصفات التبشيرية ، كما أنهم عايشوا المسلمين والعرب فى بلادهم ، فكانوا يحبِّبون إليهم حضارة أوروبا الزائفة ، ويدعون إلى الاختلاط والتبرج والانحلال الخُلُقى باسم الحرية الشخصية .

كما أنهم ينشرون المذاهب الهجينة كالصليبية والعلمانية والوجودية ، ومَن افتتن بهم لقنوه إنكار نبوَّة محمد ﷺ .

ثم خلف من بعدهم خلف أرادوا حرب الفكر الإسلامى بصور خفية مدروسة ، وكان لهذا أساليب شتَّى .

* * *

أساليب الحرب الفكرية الخفية

١ - إضعاف الفصحى وترويج العامية :

ومن أساليب الحرب الفكرية الخفية العمل على إضعاف الفصحى ونشر العامية ، ولهذا سلك المستشرقون عدة أساليب .

١ - فهم ينشرون العامية ويشجعون التحدث بها فى المجالات الرسمية وفى المساجلات الأدبية ، وفى هذا مزايا جمة : فهى تمزق الوحدة اللُّغوية ، وقد شاهدتُ فى موسم الحج أن العربى يجلس إلى جوار زميله العربى فضلاً عن المسلم غير العربى ، وقد اتسعت الهوة بين اللَّهجات فأصبح التفاهم بين الحجاج العرب والمسلمين عسيراً ، مما أفقد المسلمين القدرة على التفاهم فيما بينهم على عمل مُجْد ، فتراصَّوا حول الكعبة فى هيئة تشبه تجاور قطع الصخور التى جرفها السيل العرم إلى البطحاء ، لا يجمع بينهما نظام ، ولا يتجمع منها بناء يفيد .

وإذا تمزقت الوحدة اللُّغوية إلى وحدات متنافرة ، وغير متعارفة ، سهل مع الزمن إخضاعها بجهد أيسر ، وهذا يفسِّر لنا لماذا اهتمت فرنسا بفرنسة مستعمراتها فى إفريقيا لغةً وعادات ، وأصدرت مرسومها « الظهير البربرى » أى أنه لتوسيع الهوَّة بين المسلمين .

ومن هنا نعلم لماذا حاربت فرنسا حركة التعريب التى قامت فى الجزائر بعد الاستقلال ، ونعرف خطر إهمال أطفالنا للعربية فى المهجر .

ومن نماذج المجهودات التى بُذلت فى سبيل هذا ما كتبه « نللينو » عن اللُّغة المصرية العامية (ميلانو سنة ١٩٠٠) ، وكتاب المقامات العادلية فى اللَّهجة المراكشية لـ « لويس ماشويل » سنة ١٩٢٢ ، وقد نشر « هنس ستوم » الألمانى (١٨٦٤ - ١٩٣٥) عدة مصنفات .

(أ) فى اللُّغة البربرية واللَّهجات المغربية (طبعة ليبزغ) سنة ١٨٩٣

(ب) قواعد اللَّهجات العربية المستعملة فى تونس (ليزيغ ١٨٩٦) .

(جـ) أساطير البرابرة سنة ١٩٠٠

(د) العامية فى الجزائر للدكتور « نبراون » .

(هـ) أساطير ومنظومات من تونس (١٨٩٤) .

كما نشر الدكتور « براون » : « العامية فى الجزائر » ، و« برجستراسر » (١٨٨٩ - ١٩٣٣) : « اللَّهجات العربية العامية فى سوريا وفلسطين » سنة ١٩١٥ ، و« وت » الهولندى (١٨١٤ - ١٨٩٩) : « أصول اللُّغة السورية العامية » ، وكان « منسنج » الهولندى المولود سنة ١٩٠١ أستاذ اللُّغة العربية الحديثة فى جامعة لندن سنة ١٩٣٨ ، وقد ألَّف كتاباً عنها ، وألَّف « برتلمى » كتاب « لغة حلب العامية » ، ونبذة فى لهجة القدس سنة ١٩٠٦ . كما قام « س . هيللسون » الإنجليزى بوضع كتاب عن العربية السودانية ، وكتاباً آخر لمفردات اللُّغة السودانية ، مع أنه يتكلم العربية الفصحى ، ونشر أغانى البقارة طبقاً للنوتات والأسطوانات السودانية . .

وفى البرتغال قام « دى كاستل برانكو » مع أحد الرهبان البندكتيين بوضع كتاب قواعد اللُّغة الكلدانية العامية طبقاً لما كان يحكى بنينوى .

وألف « كارل فولرس » الألمانى الذى كان فى مصر كتاباً عن اللُّغة العامية المصرية ، كما ألَّف « ليونيل غالا » كتابه عن « لُغة وأدب البربر » ، وقد أثار عملاء الاستعمار فى عام ١٩٨٠ ، ممن لهم انتماء إلى أصل بربرى فى جامعات المغرب مشكلة اللُّغة البربرية مطالبين بأن يكون لها كرسى فى الجامعة مثل اللُّغة العربية واللُّغة الفرنسية .

* *

● وفى سوريا ولبنان :

ظهر كتاب « قواعد اللَّهجة اللبنانية السورية » تأليف الأب « روفائيل نخلة » ألَّفه بالفرنسية وجعل النصوص العربية مكتوبة بالحروف اللاتينية ، وقد طبع فى المطبعة اليسوعية ، كما نشر الأب اليسوعى « التحفة العامية فى قصة فنيانوس » تأليف « شكرى الخورى » .

ثم ظهر للدكتور « أنيس فريحة » أستاذ اللغات السامية فى الجامعة الأمريكية ببيروت كتاب سماه « تبسيط قواعد اللُّغة العربية » وتبويبها على أساس نطقى جديد ، دعا فيه إلى أن ينتقل العرب إلى الكتابة بالعامية ، وبالحرف اللاتينى .

وهذه الدعوة من شأنها أن تخلق مشكلة جديدة فى التعليم ، وتقطع حاضر العرب ومستقبلهم عن ماضيهم ، وتنفذ المآرب التنصيرية الاستعمارية التى أرادها الاستعمار قديماً ، فإن العربية الفصحى إذا هُجِرت تحوَّل القرآن إلى كتاب عقيم محبوس فى المسجد للترنم به ، لا ليكون منهج حياة ، شأنه فى هذا شأن اللُّغة اللاتينية فى الطقوس الكنسية الكاثوليكية .

ودعوى التيسير هذه تتجاهل أن الإملاء بالعربية أيسر وأكثر انضباطاً من الإملاء والكتابة فى اللُّغتين الفرنسية والإنجليزية اللتين تكثر فيهما الحروف التى تُكتب ولا تُنطق ، والكلمات التى لها نطق يختلف عن الهجاء .

بل إن حرفاً مثل (U) فى الإنجليزية يُنطق بثلاث عشرة طريقة ، نتيجة لوضعه فى كلمات مختلفة يوجد بها ذلك الحرف مثل (Noun - Four - Puild - Full - But) .

ومن الحملات ضد العربية - باسم التيسير - الدعوة إلى إهمال قواعد الإعراب ، وتسكين أواخر الكلمات ، ومن البدهيات - عند علماء اللُّغة - أن الإعراب فرع المعنى .

٢ - وهم يَسْخَرُون بقواعد العربية الفصحى وممن يتحدثونها ، ويكتبونها ، وقد تأثر بهم أدباء العصر كرشدى صالح فى كتابه « رجل فى القاهرة » حين أخذ يتهكم بالفصحى على لسان المتحاورين فى قصته ، وهكذا لويس عوض ، الذى فتح له « الرئيس السادات » باب النشاط فى مجلة الجمهورية ، ثم سيطر على توجيه الحملة على العربية فى صحيفة الأهرام ، حيث تبوأ بها مكاناً رفيعاً ، وقد أصبح للأدب الشعبى كرسى بكلية آداب جامعة القاهرة ثم فى غيرها ، وقد قال المستشرق « برينو » لطُلابه فى درس اللُّغة العربية : « أتريد يا صاح أن تتعلم الكلام مع الأهالى الذين حولك ، وأن تختبر المسلمين فى

زياراتك ، لتعرف ما يهمك ؟ لا تظن أنى سأعلمك لغة القرآن فهذه اللُّغة قد ماتت ولا يتكلم بها أحد فهى « لاتينية العرب » ، وهى اللُّغة التى أنزل الله بها كتاب المسلمين ، وهى لُغة الصلوات والاستغاثات والتمنيات أحياناً ، وهى كذلك المستعملة فى جنَّة « محمد » ، وسأحبِّبُ إليك دراستها فى المستقبل إذا أردت أن تتذوق حلاوة الاجتماع بالحور العين »[1] .

ولقد دعا لويس عوض وآخرون من خصوم الإسلام ، أو المضبوعين بثقافة الغرب ، إلى كتابة القرآن وترجمته إلى العامِّية ، فذلك كفيل بمحوه خلال قرنين على الأكثر ، كما حدث للإنجيل والتوراة حين ترجما إلى لغة غير لغتهما الأصلية ، فذهب رُواؤهما .

وقد يقال : إن العربية لغة مزدوجة ، العامية والفصحى ، وهكذا كل اللُّغات الحية فى العالم ، فللسُّوقة لغة عامِّية ، وللعلم والأدب لغة خاصة كاللُّغة العربية الفصحى .

ومن المقارنات الغريبة أن بعض دعاة « القومية العربية » - كـ « ساطع الحصرى » - يتنكر للعربية الفصحى ، وكأن هؤلاء يريدون بـ « القومية العربية » البديل للإسلام ، فإذا انتهى الإسلام سقطت معه لغته .

* *

٢ - دراسات عن الفِرَق الإسلامية :

بين المسلمين فراغ فى مجال دراسات المذاهب والفِرَق الإسلامية المعاصرة .

وبما للمستشرقين من إمكانيات لا تتوافر لدى الباحثين المسلمين ، فإنّهم استطاعوا أن يقدموا دراسات عن الفِرَق الإسلامية ، بطريقة مغرضة تزيد فى اتِّساع الهوة التى بين المسلمين ، ومن ذلك كتاب « الدروز وديانتهم » لـ « دى ساسى » الفرنسى (١٧٥٨ - ١٨٣٨) وعن كتاباته أخذ بعض

---

(١) مقال لحسين الهراوى - المعرفة : المجلد الثانى - ص ١٢٠

الكُـتَّاب والصحفيين ما جعلنى أكره الطائفة وفيهم مَن يجمعنى بهم آصرة نسب وقربى ، حتى قابلت فى موسم الحج (١٣٩١ هـ - فبراير ١٩٧٢) مَن صحَّحوا لى المعلومات المنشورة عنهم ممن خالطوهم ويعيشون فى موطنهم .

ولنفس الغرض نشر « ديفرمرى » كتاب « الإسماعيليون وسورية » ، و« ديسو » : « تاريخ النصيريين وعقيدتهم » عام ١٩٠٠ بالرغم من انقراضهم ، كما نشر هيار (١٨٥٤ - ١٩٢٧) بحثاً عن « الشعر الدينى لدى النصيريين »

* *

٣ - التدرج بالرواية :

قد ينقل المستشرق خبراً ينسبه إلى الرسول ﷺ أو القرآن ، ويذكر أن النص الذى كشفه لا دليل على إثباته ولا يُعلم تاريخه ، ثم يأتى بعد حين مستشرق آخر ويروى هذا الخبر المشكوك فيه دون أن ينصَّ على أنه موضع شك ، ثم يأتى آخر بعد برهة لينقله عن الثانى ذاكراً ثبوته وموثِّقاً له . . وهكذا يأتى الباقون من الدارسين ينقلون عن المرجع الأخير هذا النص ، ويعقِّبون عليه ، ويستنبطون منه ما شاء لهم الهوى .

وقد يشير أَحدهم إلى فكرةٍ ما من طرف خَفىٍّ ، ويليه آخر فيقرر أن هذه الفكرة جائزة ، ويأتى ثالث فيرفع هذا الجواز إلى مرتبة النظرية ، وأما الرابع فيخلق من النظرية « حقيقة » . . وهكذا تتطور الفكرة أربعة أطوار أو خمسة حتى ينتهى بها المطاف إلى أن تصبح حقيقة مقررة ، وفى مقدمة فرسان هذه الحلبة اليهودى « مرجليوث » الذى يجمع بين الجهل وسوء الطويَّة ، وكذلك « منجانا » الذى حاول أن يشكك فى القرآن ففشل ، فلجأ إلى القول بأنه عثر على ترجمة سريانية للقرآن سقط منها بعض أجزاء منه ليوهم القارئ أنه ربما ضاع شىء منه وقال : إنه لا يعلم تاريخه ، ثم جاء بعده « مرجليوث »

---

(١) المعرفة : المجلد الثانى ص ١٢٠ مقال لحسين الهرواى .

فقال : إن « منجانا » عثر على نسخة سريانية عريقة فى القِدَم سقط أجزاء منها . . . [1] .

* *

٤ - التجاهل للحقائق :

قد يتجاهل كبار الكُتَّاب الغربيين - فى مواقف العظمة المقارنة بين شعوب أو أديان أو فلسفات - ما قد يكون للإسلام من رأى فى هذه المواقف التى يكتبون عنها ، ولا يكتبون إلا القليل أو التافه عنه حتى يبدو ديناً غير جدير بالوقوف عنده ، فمثلاً الكاتب الأمريكى « ف . س . ك . نوثورب » فى دراسة له سمَّاها « بحثاً فى تنهم العالم » يقع فى ٤٩٦ صفحة لم يتحدث عن العرب والمسلمين فيه إلا فى اثنتى عشرة صفحة فقط ، بينما يمثلون سُبُع الجنس البَشرى ، وهكذا المؤرخ « برتراند رسل » فى كتابه « تاريخ الفلسفة العربية » لم يخصص للإسلام ونبيه منه إلا ست عشرة صفحة متفرقة من مجموع صفحات الكتاب التى يبلغ عددها ٨١٦ صفحة (الطبعة الثالثة . لندن ١٩٤٨) .
وكانت الكنيسة الكاثوليكية تتجاهل كتب السيرة النبوية ليتسع المجال لتصوير النبى محمد ﷺ على خلاف صورته التاريخية ، وتتجاهل القرآن ولا تعترف بوجوده ، وأحرقت نسخه العربية فى البندقية سنة ١٣٥٠ م ، وحرَّم البابا « اسكندر » طبعه وترجمته ، وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين كانت ترجمات القرآن تُشفع بمقدمات أو تعليقات أو تذييلات للرد على القرآن ، أو تجريح النبى ﷺ [2] .

* *

٥ - تصيد الروايات الضعيفة والمنكرة :

ويعتمد المستشرقون على الروايات الضعيفة التى أسقطها علماء المسلمين وبيَّنوا ضعفها بعد دراسات مستفيضة وتقصٍ للحقيقة فى شأنها ، وهى روايات أصلها دسَّه أحبار النصارى واليهود على الإسلام بوسائلَ شتَّى ليس هنا مجال الحديث عنها ، وربما كان هؤلاء المستشرقون يعرفون كتب رجال الحديث ،

---

(١) المثل الأعلى فى الأنبياء ص ١٦ - ١٨   (٢) المستشرقون والإسلام ص ١٧٨

والكتب التى تولت بيان الحديث الضعيف أو الموضوع أو الصحيح ، ولكنهم مع سبق الإصرار على الجناية والخيانة العلمية ينقلون ما ينقلون ، وفى نقد كتاب « م . سفارى » – الذى بين أيدينا – سيرى القارئ كيف كان اعتماده على أضعف الروايات التى رواها الواقدى الذى قال عنه الإمام الشافعى : « كتب الواقدى كلها كذب » ، وقال عنه ابن خلكان فى ترجمته : « وَضَّعوه فى الحديث وتكلموا فيه » [1] أى إن روايته غير جديرة بالقبول والتلقى .

وهكذا يسند المستشرقون إلى النبى ﷺ أحاديث لم يقلها وهى كلمات مروية لبعض المسلمين ، فقد ذكر المستشرق الأمريكى الدكتور « خوستان نون جرونباوم » أن رسول الله ﷺ قال : « اختلاف أمتى رحمة » وحقيقة هذه الجملة أن عمر ابن عبد العزيز قال فى مجال الحديث عن اختلاف بعض الصحابة فى اجتهادهم : « ما يسرنى باختلافهم حُمُر النعم ، ولو كان رأياً واحداً لكان الناس فى ضيق » ، فنقل العامة هذا المعنى فى حديثهم عن أئمة المذاهب الإسلامية وقالوا : اختلافهم رحمة ، وألَّف أحد الفقهاء كتاباً يلخص الخلاف بين الأئمة فى أحكام الفقه سماه : « رحمة الأمة فى اختلاف الأئمة » فعدَّ الفرنجة هذا حديثاً نبوياً وهو ما لم يقله النبى ، وهكذا قل فى المستشرق الأمريكى الآخر الذى نسب إلى النبى ﷺ هذه العبارة : « تتغير الأحكام بتغير الأزمان » ، وهو فى الحقيقة ما لم يقله النبى ، وإنما هوكلمة للإمام مالك : « يجدُّ للناس من الأقضية بمقدار ما يُحدثون من أحداث » ، والفَرْق بين المعنيين واضح وعظيم ، إذ أن مبادئ الإسلام يجب أن تبقى حاكمة للزمان وليست محكومة بالأزمان .

* *

٦ – المقاييس المادية :

ومن أخطاء المستشرقين محاولة إخضاع القيم الروحية الإسلامية للمقاييس المادية التى تختلف عن طبائعها أتمَّ اختلاف .

---

(١) المثل الأعلى فى الأنبياء ص ٢٢

وقد حاول « لامانس » تفسير التاريخ العربى الجاهلى والإسلامى مضفياً عليه تصوُّره الماثل لمدنيَّة القرن العشرين بألفاظها مثل : الضريبة على الدخل - وزارة الله - جائزة مونتينيوس - بنك مكة . فهز الصورة التاريخية حتى تشوهت ، وهكذا « دنيس سورا » ، الذى أرجع الفكر الدينى إلى رغبة نفسية فى إشباع الإحساس بالحاجة إلى الخلود والحياة بعد الموت ، وإلى وجود إله رهيب معط ، فهو يفسر الأديان تفسيراً مادياً .

* *

٧ - الإلحاد والتشكيك فى النبوات :

بعض المستشرقين ملحدٌ ، يجحد الأديان ويكفر بمُثلها العليا ، فهو لا يتورع عن انتقاصها بكل وسيلة لأنه حرب عليها ، ولا يرعوى عن الكذب ، وهذا هو تفسير ما نجده من المستشرقين حين يهاجمون عيسى ويتهمونه بالجنون ، وبأنه هو وأمثاله موسى وداود أشخاص غير تاريخيين ، ومن ثَمَّ فإن مهاجمتهم للنبى محمد تكون بُغية التجريح والهدم ، لا البحث عن الحقيقة التاريخية أو العلمية ، ومن هؤلاء « ڤولتير » الذى هاجم الكهنة واتهمهم بالوثنية فى مسرحيته الأولى « أوديب » عام ١٧١٨ م ، ثم هاجم الأنبياء فى شخص محمد ﷺ بمسرحيته « التعصب » عام ١٧٤١ م وأهداها إلى البابا « بنوا الرابع عشر » للتمويه بأنه لا يريد إلا محاربة محمد وحده .

والعجيب أن نرى باكستانياً فى ندوة إسلامية عقدت فى لاهور فى نهاية ديسمبر ١٩٥٧ - ويناير ١٩٥٨ وقد وقف ينكر النبوات وبخاصة نبوة محمد ﷺ زاعماً أنه كان يعلم قصص الأنبياء ممن كانوا فى الجزيرة من النصارى واليهود (١) وقد جهل الباكستانى - أو كفر - بقوله تعالى عن قصص القرآن : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ (٢) ،

---

(١) المستشرقون والإسلام ص ٥٨٩ (٢) يوسف : ٣

وقوله تعالى : ﴿ ذَلكَ منْ أنبَاء الْغَيْب نُوحيه إلَيْكَ ﴾ [1] ، وقوله سبحانه : ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا ﴾ [2] ، كما أنكر الباكستانى اختصاص الوحى بالأنبياء وجهل أن الوحى بمعنى الإلهام معنى لُغوى كإلهام الحيوان ما فيه صلاح حياته ومعاشه ، وأما الوحى السماوى فاصطلاح شرعى انفرد به الأنبياء : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إلا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ [3] .

ويلحُّ المستشرقون على نزع ثوب النبوة عن سيدنا محمد ﷺ وإلباسه ثوب البشرية فى صورتها الحيوانية الدنيا لأدنى مناسبة وبصورة خفية كما سنرى فى حديث « سفارى » عن كتاب هرقل وعن وساطة أبى سفيان فى فتح مكة ، وفى المؤاخاة بعد الهجرة ، وفى زواج ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وكما فى تصوير « سفارى » لأمهات المؤمنين عند ذكره زواج ريحانة رضى الله عنها .

وهذا التشكيك تسرَّب إلى كل المقررات الإسلامية حتى الأمجاد التاريخية التى اطمأنت بها وإليها قلوب المسلمين .

وقد جرى تلاميذ المستشرقين فى هذا المضمار شوطاً كبيراً ، تلمح هذا فيما كتبه طه حسين - على سبيل المثال - فى كتابه « الشيخان » حيث يقول : « وأكاد أجزم » و« وإنى لأشك » . . . إلى آخر هذه العبارات الماكرة لزلزلة اليقين .

* *

٨ - الطعن غير المباشر

قد يعمد المستشرق إلى الكتابة عن محمد ﷺ ورسالته تحت عنوان دراسة مغايرة لموضوع « محمد ورسالته » ، ولكنه ينزلق إلى الموضوع لأدنى ملابسة ، فمثلاً المستشرق الروسى « أغناطيوس كراتشكوفسكى » فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى عند العرب » الذى ترجمه الدكتور صلاح الدين هاشم ونشرته الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية يقول : « إن القرآن هو جَماع تلك

---

(١) آل عمران : ٤٤ (٢) هود : ٤٩ (٣) الشورى : ٥١

المعارف التى حصل عليها محمد عن طريق السماع ، وهى تمثل نموذجاً عاماً لمستوى الثقافة العام فى هذا المجال [١] .

ولا شك أن كلامه باطل لأمور :

أولاً : لأن دارس القرآن يرى فيه معلومات هى إجابةٌ عن أسئلة جهلها العرب ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ . . ﴾ [٢] ، ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ [٣] ، ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ . . ﴾ [٤] ، ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ﴾ [٥] ، ﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ . . ﴾ [٦] ، ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ . . ﴾ [٧] .

ثانياً : لأن بعض العرب لم يكونوا على مستوى إدراك النصوص القرآنية ، فكانت تنزل الآيات تبسط شرح المراد بسبب انخفاض مستواهم عن مستوى اللُّغة القرآنية ، كالرجل الذى لم يفهم المراد من قوله تعالى : ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأسْوَدِ ﴾ [٨] ، فنزل قوله سبحانه : ﴿ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ [٩] ليبين أن لفظ الخيط كناية عن الليل والنهار ، وليس حقيقة العقال الأبيض والأسود .

ثالثاً : لأنه لو كانت هذه المعلومات القرآنية فى مستوى الثقافة العامة لكان المتعلمون وكُتَّاب ديوان كسرى وقيصر ، والرهبان أقدر على صوغ كتاب أرفع من القرآن وأغزر مادة ، بفضل امتياز التعلُّم على الأُمِّية التى كان عليها محمد رسول الله ﷺ ، ولكن هذا هو ما لم يحدث بالرغم من المعارضة للنبى ، ومن تحدِّيه لكافة الناس أن يأتوا بقرآن مثله . .

وهكذا كان « أغناطيوس » يذكر المعلومات الفنية ويخلطها بأخرى تزرع الشكوك فى أن القرآن وحى من الله أنزله على محمد ﷺ - والمستشرق - بحسبه أن يجعل فى الكتاب كله نقطة أو نقطتين من السُّم غارقتين فى العسل ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٦ (٢) الإسراء : ٨٥ (٣) طه : ١٠٥
(٤) البقرة : ١٨٩ (٥) البقرة : ٢١٩ (٦) المائدة : ٤
(٧) النساء : ١٧٦ (٨) ، (٩) البقرة : ١٨٧

لأنهم لا يصدرون كتاباً واحداً ، وإنما يُصدرون بالمئات توزع فيها السموم المنوَّعة ، فتترسَّب فى المجتمع الإسلامى شيئاً فشيئاً حتى تُمسى ركاماً من الضباب الحاجب عن رؤية الحقيقة الإسلامية .

وقد أثار الكاتب انتباه قرائه إلى أنَّ بالقرآن مصطلحات جغرافية موجودة بالكتب السابقة ، ليوقع فى الروع أنه مسروق منها ، وتناسى أن القرآن نفسه قال عن ذاته : ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ (١) ، بل إن المنطق السليم ليوجب فى هذه الحالة أن نقول : إن تشابه النصوص فى الإسلام والأديان قبلَه دليلٌ على أن الدين من عند الله وأن الإسلام دينٌ حق لأن الله يقول : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ (٢) .

وإذا كان الله قد تكفَّل بأرزاق الناس وجعلهم شركاء فى رزق أجسامهم فهل يفرِّق بينهم فى رزق الروح وغذائها .

* *

٩ - التضليل عن المراد بالأسلوب .. أحقيقة أم مجاز ؟

استغل المستشرقون طبيعة اللُّغة ، وأن فيها المجاز والحقيقة ، وفيها اللُّغة الفصحى والعامية ، فيعمد بعضهم إلى اللَّفظ من ألفاظ القرآن أو السُّنَّة فيفسره كما شاء له الهوى ، فما كان المراد منه حقيقة الدلالة اللَّفظية قال إنه مجازى ، وما كان مجازياً يدل السياق على إرادة المجاز منه قال فيه : إن اللَّفظ على حقيقته .

والمعنى اللُّغوى يكون واضحاً ولكن قد يفسر المستشرق الكلمة كما هى فى اللَّهجة العامية ليفر من الحقيقية ، طبقاً لهوى المستشرق الذى يريد تشويه حقائق الإسلام وإنتاجه .

● **أمثلة :**

ذكر « أغناطيوس كراتشوفسكى » أن الله ذكر السماء بناءات مادية فقال : ﴿ أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ (٣) ، ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ (٤) فأخذ « كراتشوفسكى »

---

(١) المائدة : ٤٨
(٢) الشورى : ١٣
(٣) النازعات : ٢٧
(٤) الطور : ٥

بظاهر اللَّفظ ، ولعل مرجع هذا هو جهله الاستعمالات القرآنية للُغة ، فالملاحَظ أن كلمة « بنيان » يستعملها القرآن فى البنيان المادى ، وقد وردت سبع مرات بهذا المعنى ، وحين ورد « بناءً » صحب ذلك قرائن صارفة عن إرادة البنيان المادى ، ودالَّه على إرادة البناء المجازى ، مثل : « نبنى الجبل » ، و« بناء الأُمة » ، وعلى كل حال فإن بناء السماء مادى وإن لم يكن من الحجارة المعروفة أو بوسائل البناء المعروفة لدينا .

وفى سورة « الشرح » يأخذ « كزاييرسكى » و « م . سفارى » على القرآن قصة انشقاق صدر النبى محمد ﷺ ، ويفسرون : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (١) بمعنى انشقاق الصدر ، وبهذا يحرفون اللُّغة الفصحى إلى مدلول اللَّهجة العامية .

* *

١٠ - التفسير التاريخى الخاطئ :

وقد يكون التحريف لحقائق التاريخ المروى فى القرآن جهلاً بتاريخ الأُمة العربية وطبيعة حياتها الاقتصادية والاجتماعية قبل الإسلام . . ومثال هذا ما جاء فى كتاب « كراتشكوفسكى » عن « النسيء » إذ فسَّره بالفرق بين الشهر القمرى والشهر الشمسى ، أو السنة القمرية والشمسية ، ولو علم أن العرب كانوا ينسأون - أى يؤجلون - الشهور الـحُرُم لِتُتَاح لهم فرصةُ الحرب فى الأشْهرِ الـحُرُم لما وقع فى هذا الخطأ .

وربما عرض المستشرقون الواقع الإسلامى فى صورته التى يعرفها المسلمون ، ثم يسلطون على هذه الصورة - فى حرص وحذر - سُحُباً رقيقة ماكرة لا تكاد تُرى تحمل فى طياتها ألواناً معتمة تتكاثف شيئاً فشيئاً حتى تطمس معالم الحقيقة دون أن يتنبه لك أحد إلا بعد أن يُقضَى الأمر وتفوح رائحة الكذب والافتراء (٢) .

---

(١) الشرح : ١

(٢) النبى محمد : لعبد الكريم الخطيب ص ٣٤١ - الطبعة الأولى ، دار الفكر العربى .

١١ - التحريف للنُّصوص :

ومن فرسان هذا الأسلوب « جولد تسيهر » اليهودى المجرى فقد روى عن الزهرى أنه قال : « إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث » - أى تدوين السُّنَّة النبوية ، فحرَّفها « جولد تسيهر » إلى لفظ : « أكرهونا على كتابة أحاديث » ، وفرق بين « أحاديث » وبين « الأحاديث » ، فلفظ « أحاديث » يجعل قرَّاء الحديث يشكُّون فى صحة الحديث الذى يقرأونه ، ويوهمنا أن الأُمراء حرَّفوا الدين فأكرهوا العلماء على كتابة « أحاديث » غير الحق .

وهكذا حَّرف « جولد تسيهر » قول وكيع عن زياد بن عبد الله : إنه أشرفُ من أن يكذب . فقال « جولد » إنه كان مع شرفه فى الحديث كذوباً ، فوكيع يجعل زياداً ثقة ، و« جولد تسيهر » يجعله بتحريفه غير ثقة ، وبهذا ينقلب المعنى إلى الضد [١] .

* *

١٢ - الأفكار السائدة فى المجتمع الغربى كقاعدة للفكر :

عقب الدكتور « سنوك هـ . فونجة » على كُتَّاب السيرة الإفرنج فقال : « إن سيرة محمد الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضىٌ عليها بالعقم إذا سُخِّرت لأية نظرية أو رأى سابق » .

وكثيراً ما يصدر المستشرق عن أفكار سائدة فى عصره ومسلَّمٍ بها بين قومه ، فمثلاً : كان الأوروبيون - وحتَّى منتصف القرن العشرين - يعتقدون أن الحضارة الإغريقية هى أصل الحضارة الأوروبية ، وأن أوروبا وارثةُ هذه الحضارة وناشرتها فى العالمين .

ونشأ عن هذا أن المستشرق « چاستون ڤييت » الفرنسى ، مدير المتحف الإسلامى بالقاهرة سابقاً ، عزا - فى كتابه « مجد الإسلام » - انحدار المجد

---

(١) مصطفى السباعى : السُّنَّة ص ٢٤ ، ٢٥

عن الأمة الإسلامية إلى أن حضارتها لم تسلك مذاهب الحضارة الإغريقية كما سلكتها أوروبا ، وجهل أن أوروبا - اليوم - على مستوى حضارى أرفع من المستوى الإغريقى القديم ، وقد سلكت مسلكاً لا يُرضى فلاسفة الإغريق ، فأفلاطون - الذى كان يضع الشعراء فى منزلة وضيعة - يُمثِّل الآن عهداً مزرياً ، لأن أوروبا تُكرِّم الشعراء والفنانين الآن ، وأفلاطون - الذى كان يؤمن بالتمايز الطبقى ، ويجعل للحكم عناصر وأسراً خاصة يجرى فى عروقها دم خاص - أصبح مثار السُّخرية ، إذْ سادت « البروليتاريا » نصف أوروبا الآن وحكمتها دون أن يقدر أحد على منازعتها السُّلْطة أو حتى مجرد الرأى والفكر أحياناً .

بل إن حضارة أوروبا المعاصرة لا تمتُّ إلى الإغريق بصلة ، فقد قال الأستاذ « بريفوت الإنجليزى » فى كتابه « تكوين الإنسانية » : لم تكن إيطاليا مهداً لحياة أوروبا الجديدة ، بل إسبانيا « الأندلس » ، لأن أوروبا كانت قد بلغت أشدَّ أعماق الجهل والفساد ظلمةً ، بينما العالم العربى (بغداد - القاهرة - قرطبة - طليطلة) كانت مراكز الحضارة والنشاط العقلى ، ومن ثَمَّ ظهرت الحياة الجديدة التى تـمَّت فى شكل ارتقاءٍ إنسانى جديد .

ومن هذه المسلَّمات أيضاً ما يسمى « المنهج العلمى » ، ووزن كل أمر بميزان العقل وحده .. وجرياً على هذه القضية رفض معظم المستشرقين الإيمان بمعجزات الأنبياء ومعجزات محمد ﷺ خاصة ، فاتجهوا إلى تأويل المروىِّ منها تأويلاً يتَّفق والسنن الطبيعية ، أو يتفق مع خيط الفكر العقلى المجرد ، فإن لم يتفق مع المنطق العقلى أو مع السنن الطبيعية أنكروه ، وسنرى هذا فى كتابة « سفارى » التى حققناها ونقدناها فى كتابنا « السيرة النبوية وكيف حرَّفها المستشرقون » .

وهذا المنهج ظهر فساده ، وهتف ببطلانه المسيو « برجون » فأعلن فشل العقل فى الاستدلال بالفكر ، وقد قفا أثره فى البحث بعض الباحثين عن الحق فاهتدوا إلى الإسلام وكتبوا يهاجمون ما كانوا عليه من دين منحرف عن الحق ، قلَّدوا فيه الآباء تقليداً أعمى ، ومن هؤلاء المستشرق

الفرنسى « إيتين دينييه » فى كتابه « أشعة خاصة بنور الإسلام » ، وقد ترجمه إلى العربية راشد رستم ، وقد أسلم وتسمى « ناصر الدين محمد » وأصدر كذلك كتاب « الشرق فى نظر الغرب » و « الحج إلى بيت الله الحرام » ، و« حياة محمد » .

ومن هؤلاء المنصفين كذلك المرحوم « كرستيان شرفيس » أحد تلامذة « أوجست كومت » ، ومثلهما « اللُورد هيدلى » ، و« خ . كمال الدين » الذى ألّف « المثل الأعلى فى الأنبياء » ... وغير هؤلاء كثيرون فى أوروبا وأمريكا ، كما أن من الأفكار السائدة التى كوَّنت مزاجاً خاصاً للأوروبى تجاه الإسلام ما توارثه فى المدرسة والبيت والكنيسة من مفاهيم خاطئة ، وأفكار سيئة ومُغرضة عن الإسلام .

* * *

تزوير الحقائق التاريخية

(أ) حرق مكتبة الإسكندرية :

ومن هذا القبيل ما زعمه « سفارى » وأضرابه من أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندية بناء على أمر عمر بن الخطاب ، وذلك ليشغلوا بالنا عن إحراق « الكاردينال كسيمنس » دور الكتب البديعة التى أقامها المسلمون بالأندلس ، وعن إحراق وإغراق التتار للمؤلفات الإسلامية وعن سرقة الغرب مكتبات المساجد .

وهذه فرية كاذبة تنفيها طبيعة الإسلام الذى أول نص نزل فى دستوره : « اقرأ » ، وينفيه واقع التاريخ الإسلامى الذى أبرز مظاهره بعثُ التقدم العلمى فى العالم وحمل لوائه إلى البشر دون تمييز طائفى ولا عنصرى ، وقد ذكر أستاذنا الدكتور حسن إبراهيم فى محاضراته لنا فساد هذه المقالة ثم نشرها وتناول الرد عليها فى كتابه « تاريخ الإسلام السياسى » ، وقد ناقش كثير من الفرنجة قضية حرق مكتبة الإسكندرية ، ومن هؤلاء « چيبون » و« بتلر » و« سيديو » و« وچوستاف لوبون » وغيرهم ، وفنَّدوا القول بإحراق عمرو ابن العاص للمكتبة وقالوا :

١ - إن هذه الرواية تخالف التقاليد الإسلامية ، لأن العرب حملوا لواء المعرفة فى كل فن وفى كل عصر ، وراوى إحراق المكتبة يذكر فى روايته أن عمرو بن العاص كان يستمع باهتمام أحاديث يوحنا ويحيى النحوى قسيس الإسكندرية المسمى لدى الفرنجة « جرما طيقوسى » [1] وكان يعقوبياً ثم رجع

---

(١) ويقال له أيضاً : حنا الآجرومى ، وهو أديب وفيلسوف ويلقب بـ « فيليبونوس » وهو آخر تلاميذ « أمونيوس » ، وكان صديقاً لعمرو بن العاص .

عن فكرة التثليث ، ومن المعلوم أن آراء وأحاديث « يوحنا » التى استمع إليها عمرو كانت مسيحية مما يدل على سعة صدر عمرو .

٢ - لقد مضى نحو ستة قرون على الفتح فلم يذكر أحد من المؤرخين أن عَمْراً أحرق المكتبة ، حتى ولا المؤرخون المسيحيون الذين اهتموا بتاريخ الفتوح الإسلامية وعاصروها ، أو كانوا قريبين من عصر الفتح مثل « يوحنا » أسقف « نقيوس » ، ومثل « أوتيخا » المتوفى سنة ٣١١ هـ ، فضلاً عن كبار المؤرخين كاليعقوبى والكندى والطبرى وابن عبد الحكم والبلاذرى ومَن نقلوا عنهم كالمقريزى وأبى المحاسن والسيوطى وغيرهم .

وكان أول ذكرٍ لهذه الرواية فى القرن السابع الهجرى ، ذكرها عبد اللطيف البغدادى (٥٢٩ هـ = ١٢٣١ م) فى كتابه « الإفادة والاعتبار - ص ٢٨ » ، وقد جاء ذكرها عَرَضاً عند ذكر عمود السوارى ، وذلك - فيما يبدو - نقلاً عن العوام ، ولم يورد لهذه الدعوى إسناداً لواحد من العلماء ، لا ثقةٍ ولا غير ثقة .

* ثم جاء من بعده ابن القفطى وزير حلب المعروف بالقاضى الأكرم (٥٦٥ -٦٤٦ هـ) = (١٢٤٨م) فردَّد ما قاله البغدادى بلا إسناد أيضاً فى كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » ،وجاء بعده أبو الفرج الملطى (٥٨٥ هـ = ١٢٨٦ م) وهو المعروف بابن العبوى ونسج من خياله قصة فحواها أن « يوحنا النحوى » قسيس الإسكندرية المشهور فى كتب الفرنجة بـ « فرماطيقوس » أى النحوى وكان نصرانياً يعقوبياً خرج على مذهبه وأنكر التثليث ، طلب من عمرو بن العاص أن يمنحه كتب الحكمة التى فى الخزانة الملوكية ، فأرسل عمرو إلى عمر بن الخطاب يستشيره فقال عمر : « أحرق كل كتاب فيه ما يخالف الإسلام » ، فوزع عمرو هذه الكتب على أربعة آلاف حمَّام بالإسكندرية ظلت توقد بها ستة أشهر ، وهذه الرواية مردودة بأمور :

١ - أبو الفرج هذا الذى نسج القصة مسيحى متعصب فلا يُقبل قوله فى دين يخاصمه ، فضلاً عن أنه كان بعيداً عن تخوم مصر .

فهو أبو الفرج بن غريغورس بن أهرون ، من مواليد ملطية بأرمينية ، وقد انتخب « مغريان » وهى كلمة فارسية بمعنى المثمر ، وهذا المنصب من أكبر المناصب الدينية بعد منصب البطريركية ، وهو أشبه بمنصب كبير الأساقفة ، على جهات ما بين النهرين والعراق العجمى ، وكتاب أبو الفرج هذا يسمى « مختصر الدول » وهو الذى نقل عنه « سفارى » فريته هذه وغيرها ، وقد اهتم بهذا الكتاب فترجمه القسيس « إدوارد بوكوك » لما فيه من مغالطات ، والثابت أن مكتبة « البروخيوم » أحرقت أثناء الحرب التى نشبت بين قيصر والإسكندريين ، كما نهبت مكتبة « السرابيوم » فى عهد « ثيودوزيوس » .

وقال الدكتور نظمى لوقا : وليس هناك دليل يدل على أن أصل هذه الرواية أقدم من أيام أبى الفرج ، وقد رواها أبو الفرج فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، أى بعد فتح الإسكندرية بستة قرون ، وعنه نقل أبو الفداء فى القرن الرابع عشر ، ثم نقل عنه المقريزى فى خططه .

وقد ذكر أبو الفرج المالطى نفسه أن الإسكندرية بقيتْ مقصداً لطُلاب العلم من اليونان والنصارى حتى عام (٦٨٠ هـ) - أى بعد الفتح بأربعين سنة - ظلوا يتزوَّدون من مكتبات الأديرة والأفراد .

٢ - قال « بتلر » فى كتابه « الفتح العربى لمصر » (ص ٤٠٣ - ٤٢٦) : « إن يوحنا الذى رويت عنه القصة مات قبل فتح العرب للإسكندرية بثلاثين أو أربعين سنة » ، فالقصة باطلة من أصلها ومصدرها .

وما كان عمرو بن العاص أن يعطيها لصديقه : « حنَّا فيليبونوس » ليجعلها فى أيدى أصحاب الحمَّامات فى المدينة ، فإنه لو فعل ذلك لاستطاع « حنَّا » - أو سواه من الناس - أن يستنقذوا عدداً عظيماً منها بثمن بخس فى تلك الشهور الستة .

كما أن معظم الكتب فى مصر فى القرن السابع - وقت الفتح - كانت من

الرَّقّ ، أى الجلد المعالَج بطريقة خاصة تجعله لا يصلح للوقود ، فالقول إذاً بأن إحراق مكتبة الإسكندرية تم على يد عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب محض افتراء يُراد به تشويه تاريخ الإسلام (١) .

٣ - إن دعوى وجود أربعة آلاف حمَّام بالإسكندرية فى ذلك الوقت لا يتصورها العقل ، ودعوى كثرة الكتب إلى درجة أنها تكفى وقوداً لأربعة آلاف حمَّام طيلة ستة أشهر أكثر إغراقاً فى عالم الخيال المكذوب ، لأنه مِنَ المعلوم أن مصر كانت قبل الفتح ، ومنذ عهد « دقلديانوس » فى تأخُّر بالغ الغاية ، والذى شاع على ألسنة القبط أنها سبعون يوماً بدلاً من ستة شهور (٢) .

٤ - والثابت - كما قال « أورازيوس » - أنه وجد رفوف مكتبة الإسكندرية خالية من الكتب عند زيارته مدينة الإسكندرية فى أوائل القرن الخامس الميلادى ، وهذا يعنى أنه لم يكن للمكتبة وجود منذ أواخر القرن الرابع للميلاد ، أى منذ عهد الإمبراطور « تيودوسيوس » كما أنه لم يرد لها ذكر فى الآداب فى القرنين السادس والسابع ، وبخاصة قبل الفتح الإسلامى .

وقد زار مصر كلٌّ من « حنا مسكوس » وضديقه « صفرونيوس » - قبل فتح العرب بسنين غير طويلة ، وهما مشغوفان بالكتب والعلم ، وقد جابا أنحاء مصر ، وأقاما فيها زمناً طويلاً ، ولم نر فى كتبهما أدنى إشارة إلى وجود مكتبة عامة ، اللّهم إلا المكتبات الخاصة .

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى والدينى والاجتماعى ، الجزء الأول ، ص ٢٥٨ - ٢٦٤ الطبعة الثالثة .

(٢) نظمى لوقا : عمرو بن العاص ص ١٨٧ - ١٨٨

ومن ثَمَّ فإنه لا يتأتى القول بأن الإسكندرية كان بها مكتبة عامة عندما فتحها العرب [1] .

٥ - وإذْ ثبت أن المسيحيين أحرقوا هيكل « سيرابيس » فمن المعقول أن النيران التهمت ما فيه من الكتب فلم تُبق عليها ولم تذر .

٦ - ولو افترضنا أن هذه المكتبة بقيت إلى الفتح الإسلامى فإنه لم يكن هناك ما يمنع من نقلها إلى القسطنطينية على أيدى الروم - فى أثناء الهدنة ، وقد أجاز لهم عمرو فى عهد (معاهدة) الصلح أن يحملوا كل ما يقدرون عليه ، وكان لديهم من الوقت ما يمكنهم من نقل مكتبات لا مكتبة واحدة .

٧ - وقال « إتيين دينيه » : « القائلون بحرق العرب مكتبة الإسكندرية يُبدون استخفافاً لا حدَّ له بوقائع التاريخ ، ذلك أن مكتبات الإسكندرية قد خربت قبل مجيء الإسلام بقرون متعددة ، وأُولى هذه المكتبات هى مكتبة « البروخيوم » التى كانت تحتوى على أربعمائة ألف مجلد ، وقد أُحرقت أثناء الحرب التى نشبت بين « يوليوس قيصر » والإسكندريين ، وثانى المكتبات هى مكتبة « السرابيوم » التى ضمت فى يوم من الأيام مائتى ألف مجلد أوصى بها « أنطونيوس » ، وقد نُهِبت هذه المكتبة وخربت تماما فى عهد « ثيودوزيوس » .

وقد أنشأت هذه الخرافات السخيفة تتلاشى فى أيامنا هذه ، على أننا نُفضل ما فيها من تعصب صريح على تلك الدسائس الخبيثة التى يريد بعض الكُتَّاب الذين لم يتخلصوا من طبائع القرون الوسطى المسيحية - أن يذيعوها - تحت ستار من العلم الاستشراقى الظاهرى - فى حق رجل من الرجال الذين يشرف بهم - أكثر من غيرهم - تاريخ الإنسانية نفسه .

* *

---

(١) عمرو بن العاص - لنظمى لوقا ص ١٩٤

(ب) حجب النصوص الثابتة :

ومن تزوير التاريخ أيضاً أنهم يعمدون إلى ما يقدمونه من أنباء يحجبونها عن القارئ إذا كان فى ظهورها ما لا يتفق ومزاجهم المنحرف ، فقد حجبوا ما جاء فى « إنجيل يوحنا » عن خاتم المرسلين محمد ﷺ ، ففى الإنجيل : « إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن . وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم عن نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية » (يو ١٦ : ١٢ ، ١٣) .

وهو نص أكده القرآن : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ (١) = « لا يتكلم من نفسه » ، وفى المخطوطات التى كشفت بجوار البحر الميت ما يثبت أن عيسى كان رسولاً للمسيحيين وأنه بشَّر بأن هناك نبياً آخر سيأتى بعده وقد قال عنه المسيح : « ومتى جاء الـمُعَزِّى (البارقليط) فهو يشهد لى » .

وحجبوا بشارة يوحنا فى (الإصحاح ١٦ فقرة : ٧ - ١١) ونصها : « لكنى أقول لكم الحق : إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم الـمُعَزِّى ، ولكن إن ذهبت أُرسله إليكم . ومتى هو جاء ذاك يبكتُ العالم على خطية ، وعلى بِرٍّ وعلى دينونة . أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بى . وأما على بِرٍّ فلأنى ذاهبٌ إلى أبى ولا تروننى أيضاً . وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دِين » . . فهى نص فى أن الـمُعَزِّى يأتى بعد عيسى وأنه حين يرسل يوبخ المخطئين لثلاث خطايا :

الأولى : أنهم لا يؤمنون بعيسى إيماناً صحيحاً .

والثانية : لأنهم اعتقدوا قتله وصلبه وإهانته ، وأن الله لم ينجه من مكر اليهود ويرفعه من بينهم دون أن ينالوا منه .

والثالثة : أنهم انقادوا لرئيسهم ورئيس أمثالهم فى العالَم وهو الشيطان الذى أدانه الله فطرده من رحمته . وحاول « فندل » أن يحرِّف النص بتأويل فاسد له فقال :

---

(١) النجم : ٣

(أ) الـمُعَزِّى - أو « الفارقليط » - لا يعنى محمداً ، وإنما يعنى روح القدس ، لأنها بمعنى المؤيد أو الوكيل ، وذلك هو المسيح لأن فيه يقول الله : ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (١) ، ويقول عن محمد : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ (٢) ، ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ (٣) . . وروح القدس هذا كان مع التلاميذ فليس إنساناً بل هو روح محض .

والجواب واضح : لأن « روح القدس » هو جبريل من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أى الروح المقدَّسة لطهارته (٤) ، أو أن القدس هو الله ، والروح جبريل ، سمى روحاً للطافته ، لأنه روحانى خُلق من النور ، وقد سمى روحاً لمكانه من الوحى الذى هو سبب حياة القلوب ، فهى إضافة كإضافة عبد إلى الله . وتأييد الله لعيسى بجبريل واضح ، فقد كان فى حمايته وحراسته حتى صعد به إلى السماء على القول بذلك ، وقيل فى تفسير « روح القدس » : « إنه الإنجيل » : بمعنى أن الله أيَّده به وسماه روح القدس لأنه كان حياة القلوب قبل تحريفه . . سمى بهذا كما سمى القرآن روحاً : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (٥) ، ولكن هذا التفسير ليس بشىء لأن الإنجيل لم يكن معجزاً بفصاحته حتى يكون مؤثراً على السامعين كما هو شأن القرآن ، أيدَّ الله بإعجازه محمداً عليه السلام ، وقال ابن عباس : روح القدس هو اسم الله الأعظم الذى كان يُحيى به الموتى (٦) : وهو قول متروك لضعف الرواية أولاً ، ولأن ذلك سبق ذكر مضمونه فى بدء الآية : ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ (٧) ، فالراجح أنه جبريل إذن ، وجبريل وغيره من الملائكة مع أنصار الله فى كل عصر ، وكما أيَّد الله بهم عيسى أيَّد بهم محمداً ﷺ وأصحابه : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِه وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ (٨) ، ﴿ وَلَقَدْ

(١) البقرة : ٨٧ (٢) الإسراء : ٥٤ (٣) النساء : ٨٠
(٤) تفسير الجلالين للآية . (٥) الشورى : ٥٢ (٦) تفسير الخازن : ١/ ٦٩
(٧) البقرة : ٨٧ (٨) التوبة : ٢٦

نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰ ، إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (١) ، ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللهِ ﴾ (٢) .

فهذه ليست ميزة خاصة بعيسى ، بل هى أكثر وضوحاً فى النبى محمد وأصحابه وأنصاره ، أما الانفراد بنوع من التأييد خاص فهو الذى نزل فى رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ إذ قال له ربه : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ (٣) ، ولا يقال : قد كان عيسى كذلك فإننا نقول : نعم ، ولكن عيسى يقول : « إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعَزِّى » ، فالمُعَزِّى أو المؤيِّد لا بد أن يكون شخصاً غير عيسى له نفس التأييد الذى يُذكر لعيسى ، وليس ذلك إلا لمحمد ﷺ كما فى الآيات السابقة .

وإذا تركنا الآيات القرآنية الدَّالة على تأييد الله لمحمد ﷺ ، فإن التاريخ هو الدالُّ أكبر دلالة على تأييد الله لمحمد ، وسِجِلُّ غزواته وفتوحاتِ الإسلام عَقِبه شاهدُ صِدقٍ يستعصى على إنكار حُجِّيته .

وأما أن المُعَزِّى بمعنى الوكيل فلا ينقضه أن يفنى الله الوكالة عن النبى فى موطن من المواطن دون بقية المواطن ، فمعنى قوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ (٤) : أننا لم نرسلك لنكل إليك أمر الناس فنسألك عن إيمانهم كما يُسئلَ الوكيل عن موكله ، وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ ﴾ (٥) ، فإن آمنوا فذاك خير لهم ، وإن لم يؤمنوا فأمرهم موكول إلى ربهم : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ (٦) ،

---

(١) آل عمران : ١٢٣ - ١٢٥ (٢) الأنفال : ٩ - ١٠ (٣) التوبة : ٤٠
(٤) الإسراء : ٥٤ (٥) الشورى : ٤٨ (٦) فاطر : ٨

فالله تعالى ينفى عنه الوكالة فى هذه الصورة فقط ، وأنه ليس وكيلاً عنهم فى الإيمان ، وعدمه ، ولا فيما يترتب عليه من الثواب والعقاب ، أما فيما عدا ذلك فإنه لم يمنع عنه فيه الوكالة ، فيصحُّ أن يكون وكيلاً عاماً أو خاصاً ، وقد أخبر الله عنه بأنه أولى بهم من أنفسهم : ﴿ النَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (١) فكيف لا يكون وكيلاً عنهم - أى فارقليط أو مُعَزِّياً ؟ - على أن وكالة الرسل عن أممهم ضرورية ، فهو وكيلٌ من غير شك ولا ريب .

وأما أن روح القدس كان مع التلاميذ وأنه الأقنوم الثالث فهو جوهر مجرَّد عن المادة فباطل ؛ لأنه لا يناسب ما بعده بأى وجه ، لأن نص الإنجيل صريح فى أن الـمُعَزِّى يُرسَل لليهود ، ويرونه ويسمعون تبكيته ، ولا يتم هذا إلا ببشر يرسله الله وقد كان هو محمداً ﷺ .

قال « فندل » : « لقد نزل روح القدس على أصحابه عيسى وحلَّ بهم ، وفضلاً عن أن هذا فيه انقسام الأقنوم فى أشخاص رسل عيسى الجالسين معه حتى تتعدد الآلهة أجساماً وأرواحاً فإنه لا يُقبل ، لأن عبارة المسيح تقول : إن ذلك الرسول يأتى بعد أن يذهب هو إلى ربه وتنقطع صلتهم به ، ثم يوبخ العالَم على الأُمور التى بيَّنها ، فهل جاء الـمُعَزِّى فى حال وجود المسيح وأخذ يوبخ تلاميذه الأنبياء لأنهم لم يؤمنوا به أم ماذا حصل ؟

(ب) وقال فندل : إن الـمُعَزِّى لا يصح أن يكون حاملاً سيفاً ، ومحمد ذو سيف .

والجواب : أن محمداً موصوف بأنه رحمة للعالمين ، ومن الرحمة بالمخطىء وبالبشرية أن يُزجر المسىء بما يجعله يرعوى ، وأن تُخلِّص البشرية ويُخلِّص الحق من خصومه ولو بالقوة وإلا فسدت الحياة بسيادة قانون الغابة وبالفوضى .

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً ⠀⠀⠀ فليقسِ أحياناً على مَن يرحم

والمسيح نفسه قرر هذا ، ففى إنجيل متى الإصحاح العاشر عدد ٢٤ وما بعده : « لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض ، ما جئت لألقى سلاماً بل

---

(١) الأحزاب : ٦

سيفاً ، فإنى جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه ، والابنة ضد أمها ، والكنَّة ضد حماتها . وأعداءُ الإنسان أهلُ بيته . مَن أحبَّ أباً أو أماً أكثر منى فلا يستحقُّنى » .

وفى الآية ٢٩ من هذا الإصحاح : « ومن أضاع حياته من أجلى يجدها » .

ومن ابتهالات محمد ﷺ : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » ، ومن شعائر دينه ما قاله : « أفشوا السلام بينكم » .

كما حجبوا المزمور الذى تناول صفة النبى محمد ﷺ وأوّلوا قوله : « كرسيك يا إلهى إلى دهر الدهور » ، أى رسالتك ودينك . فجعل « فندل » هذا من كلام المسيح لنفسه .

كما حجب المستشرقون عن قومهم نصَّ « إنجيل متى » حين بشر برسالة محمد من نسل إسماعيل فقال : « الحجر الذى رفضه البنَّاءُون هو قد صار رأس الزاوية ، من قِبَل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا . لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطى لأمة تعمل أثماره » (متى ٢١ : ٤٢ - ٤٣) .

* *

(جـ) تاريخ مكة :

قال « كوسان دبرسيفال » فى كتابه « تاريخ الإسلام - ص ٣٣٦ » : « إن مكة لم تؤسس إلا فى القرن الخامس الميلادى » .

وهو يستهدف التشكيك فى قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ (١) ، لأن من المعروف أن بيت المقدس كان قبل الميلاد بنحو ألف عام ، فتكون الآية - طبقاً لقول « كوسان » - كاذبة ، إذْ أنه لا معنى لبناء بيت الله دون عباد يعبدونه فيه ، وهو كذلك تكذيب بالآيات التى نزلت تحكى ذهاب إبراهيم إلى وادى مكة وبنائه مع ابنه إسماعيل الكعبة ، وأن إسماعيل كان يعيش فى المنطقة مع آخرين من « جُرْهم » ، ولو أن المستشرق قال :

(١) آل عمران : ٩٦

إن مكة لم يكن لها وجود سياسى ونظم إدارية إلا فى القرن الخامس الميلادى لكان له شبه العُذر الذى يكذبه أيضاً التاريخ التجارى للجزيرة .

*

(د) اتهام بنى أُمية :

يميل المستشرقون إلى تجريح بنى أُمية ، واتهامهم بالجشع والطمع فى الملك .

وربما كان بعضهم يجرى على ما قرأه من كتابات المؤرخين العباسيين الذين كتبوا تاريخاً لم يشهدوه ، فى ظل حكومة قامت على أنقاض الحكم الأُموى ، والناس فى مثل هذه الحال لا يأبهون لتصحيح خطأ تاريخى ينجم عنه ما يغيظ الحاكم ، بقدر ما يأبهون لنصح الحاكم إلى ما يجب عليه أن يعمله ، وربما أراد بعض المستشرقين بترويج نقائص منسوبة إلى بنى أُمية مجرد إبراز صورة شوهاء للحكم الإسلامى تُبتر من سجل التاريخ الإسلامى الطويل ، فليس لها قبلٌ نظيفٌ مُشْرِق ، ولا بَعْدٌ نقى بهيج ، ولا مُرافق هو غايةٌ فى الطُهْر كتاريخ عمر بن عبد العزيز من بنى أمية .. وقد وقع فى حُبالة المستشرقين ومِنْ قبلهم اليهود - مُزَيِّفو التاريخ - كثيرون من كُتَّابنا وعلى رأسهم عباس محمود العقاد ، فهو يتهم بنى أمية بدسِّ السُّم لمن يخشون منه تهديد عرشهم ، وذلك فى « شهيد كربلاء » وفى « عبقرية خالد » ، إذْ قال : يروى أن معاوية أمر الطبيب أَن يدسَّ السُّم لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد حين أحس بشخصيته تهدد - بمنزلتها الاجتماعية المرموقة - ولده اليزيد ، وهو يطمع أن يكون خليفته من بعده ، ولم يكلف « العقاد » نفسه تحقيق هذه الرواية ، أو حتى أن يذكر مرجعها .

ويغيب عن « العقاد » والعامة من المسلمين أن معاوية بن أبى سفيان - فى أرجح الروايات - من كُتَّاب الوحى ، وأنه بالإجماع صحابى جليل ولى حكم الشام فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان ، وأنه حين نازع علياً الخلافة لم يكن فى رقبته بيعةٌ لعلىّ ، لا هو ولا أهل الشام ، وأنه كان متأوِّلاً فيما فعله مع علىّ ، وكان يجتهد وله نيته وأَجْر اجتهاده ، ويتناسى مؤرخو الإسلام - إلا من رحم ربك - أن معاوية أَول مَن جعل البحر الأبيض المتوسط بُحيرة إسلامية ، وظلت كذلك طوال عهد بنى أُمية ، وورثها كذلك بنو العباس ثم

العثمانيون ، فلم تصبح - وآسفاه غير ذلك - إلا فى ظل الحكم غير الإسلامى ، فى ظل التمزق تحت راية النعرات القومية « الطورانية » وغير الطورانية . ولا يبغى المستشرقون بتجريح بنى أُمية إلا بصقة غيظ المغتاظ على صرح العظيم حين يمر فى فيئه ، وفى غيبة من صاحب الصرح .

يتناسى بعضنا أن معاوية الذى يرى ضرورة ارتداء لباس الأُبهة سياسةً لقوم فى دمهم تمجيد المظاهر ، قومٍ لا يعرفون الملك ويدينون له بالولاء إلا شاراتٍ ونياشين . . هُو هو معاوية الذى يذهب إلى بيته فيرقع ثوبه كما كان يفعلُ رسول الله ﷺ حتى تباع مراقعه بعد وفاته تبركاً بها .

والعجب أن الناس يمزقون أعراض بنى أُمية غزاة أُوروبا الصليبية مع الصليبيين ، وما فعله معاوية هو ما فعله غيره .

ولئن كان ليزيد بن معاوية سقطة فقد كان له أيضاً جهاد مجيد ، وغزوات فى سبيل الله بأرض العجم كان موفقاً فيها ، ولئن كان معاوية واليزيد قد أرادا أن تكون الخلافة قبل موت معاوية معروفة لمن هى ، فلقد عرف الناس قبل موت أبى بكر لمن هى ، وعرف الناس قُبيل موت عمر فيمن هى ؟ وكان ما رآه المسلمون من ويلات الصراع على اختيار خليفة لهم بعد موت عثمان يفرض عليه وعلى كل مخْلص ألا يترك باب الشر ينفتح مرةً أُخرى ، فاختار معاوية من له عَصَبة تؤازره ، وخِبْرة بشئون الملك والحرب نشأت عن مخالطةٍ ومعاشرةٍ ومقارفة ، وما يسع منصفاً إلا أن يجتهد اجتهاد معاوية حَقْناً لدماء المسلمين .

ولما مات يزيد وخَلَفه ابنه معاوية الثانى ترك الأمر للمسلمين ، وقيل له - وقد مرض - لوعهدتَ إلى رجل عهداً واستخلفتَ خليفة ؟ فقال : « والله ما نفعتنى حياً فأتقلدُها ميتاً ، وإن كان خيراً فقد استكثر منه آل أَبى سفيان ، لا تذهبُ بنو أُمية بحلاوتها وأَتقلَّد مرارتها . والله لا يسألنى اللهُ عن ذلك أبداً . ولكن إذا مت فليصلِّ علىَّ الوليدُ بن عتبة بن أَبى سفيان ، وليصلِّ بالناس الضحَّاك بن قيس حتى يختار الناس لأنفسهم ، ويقوم بالخلافة قائم ، فلما

مات صلّى عليه الوليد ، وقام بأمر الناس الضحّاك بن قيس ، وكانت اضطرابات انتهت فى الثالث من ذى القعدة سنة ٦٤ هـ بتولّى مروان ابن الحكم الذى توفى أول رمضان سنة ٦٥ هـ عن أربع وستين سنة ، ولم يمض على حكمه ستة أشهر - وقيل ثمانية - فبايع أهل الشام بعده عبدَ الملك ابن مروان ، فكان على الشام ومصر ، بينما كان العراق والحجاز فى يد ابن الزبير حتى قُتل ابن الزبير بمكة يوم الثلاثاء ١٧ من جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ ، وكان ابن الزبير فى الثانية والسبعين من عمره ، فتوطدت الكلمة لعبد الملك ابن مروان ، ويذكر الناس لعبد الملك مقتل ابن الزبير ويتركون له حسناته .

فقد روى مروان حديث رسول الله عن سهل بن سعد الساعدى - وسمع عثمان وأبا هريرة وأبا سعيد الخدرى وجابر بن عبد الله ، وكان مروان فى ولايته على المدينة يجمع أصحاب رسول الله يستشيرهم ويعمل بما يتفقون عليه .. وجمع القيعان (المكاييل) فعاير بينها حتى أخذ أعدلها فأمر أن يُكال به ، فقيل : « صاع مروان » وليست بصاع مروان ، إنما هى صاع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن مروان عاير بينها حتى قام الكيل على أعدلها ، وكان الناس يتعاملون بمثاقيل الجاهلية فكان أول مَن ضرب الدنانير والدراهم الإسلامية سنة ٧٥ هـ ، وهى العام التى حج فيها بالناس ، فلما عاد مرَّ بالمدينة ، فخطب الناس وذكَّرهم بيوم الحَرَّة ووجوب الطاعة ثم قال : ما وجدت لكم يا أهل المدينة مثلاً إلا القرية التى ذكر الله فى القرآن ، فإن الله قال : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (١) فقال ابن عبد لعبد الملك : كذبت ، كذبت .. لسنا كذلك ، اقرأ الآية التى بعدها : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (٢) ، وإنَّا آمنا بالله ورسوله ، فوثب الجند بابن عبد فردَّهم عبد الملك عنه فلما فرغ من خطبته ، ودخل عَبد الملك الدار أدخل عليه بابن عبد ، فما جاز عبد الملك أحداً أكثر

(١) النحل : ١١٢ (٢) النحل : ١١٣

من جائزته ، تقديراً لشجاعته الأدبية ، ولكنه نصحه قائلاً : إياك أن تفعلها بوالٍ بعدى .

فهذه صفحات مشرقة لعبد الملك طويت بموته فى دمشق يوم الخميس ١٥ من شوّال سنة ٨٦ هـ ، عن ست وثمانين سنة ، ولى الخلافة فيها ٢١ سنة وشهراً ونصف .

فلما ولى الأمر عمر بن عبد العزيز ، ترك للناس الحرية فى أن يقروا خلافته أو يختاروا غيره ، فلما اختاروه أصلح الله به من شئون الرعية ما طبق ذكره الخافقين ، وما هو غنىٌ عن البيان ، وحسبك من قراراته المعلنة فى خطبةٍ لواليه على الملأ فى مسجده الكوفة قال : جاء فى كتاب أمير المؤمنين يقول : « مَن كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله ، ومَن تزوّج امرأة فلم يقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله » .

ألا إنه الإسلام عجز عن اللّحاق به أعظم دجّالى الدعاة للرأسمالية الديمقراطية وللشيوعية على السواء . . فعلى غير الدعاة للإسلام من أصحاب المذاهب الاجتماعية والسياسية أن يجمعوا - بعد هذه الكلمات - أوراق النصب والاحتيال، فماذا بعد الحق إلا الضلال .

وهكذا شوّهوا تاريخ بنى العباس والعثمانيين والمماليك والحركات الإسلامية كالوهابيين والسنوسيين والمهديين والإخوان المسلمين ، ومَن لَّف لفّهم كفدائيان إسلام بإيران ، والجماعة الإسلامية بالباكستان .

حقاً . . هؤلاء بشر وكل بنى آدم خطّاء . . ولكنْ ثمت فرق بين الغارقين فى الأخطاء بُغية الخطأ واشتهاءً للفساد ، وبين نُظُم ومبادئ يُخطئ بعض القائمين بالحكم أو بالدعوة على أساسها فى التطبيق أحياناً ، بينما الغالب والمِسْحة العامة هى الصلاح والعمل المثمر .

وقد جرى فى ركاب هؤلاء كثير من الغافلين المسلمين وغيرُ الغافلين من غير المسلمين .

وروايات « جورجى زيدان » التى نشرها إبّان السيادة البريطانية على مصر

نماذج مؤلمة وصارخة بالعدوان على الحقائق التاريخية الإسلامية ، بل وعلى الكرامة التى كان يجدر بالمسلمين والعرب - حفاظاً عليها - ألا يمكنوه من أن يدوسها بنعاله الملتاثة بأقذر ما فى جوف حاقد مريض بحقدٍ منتن ذفرٍ مرير يغلى مثل : « استبداد المماليك - فتاة غسان - عذراء قريش - غادة كربلاء - الحجاج - فتح الأندلس - شارل وعبد الرحمن » .

وهو لبنانى كان مرافقاً للحملة النيلية التى توجهت لضرب الحركة المهدية فى السودان وفتحه سنة ١٨٨٤ ، وكان يعمل مترجماً بقلم المخابرات ، وقد اختير عضواً فى المجمع العلمى الشرقى فى بيروت ، وكانت وفاته سنة ١٩١٤ عن ثلاثة وخمسين عاماً .

ولقد ظهر أخيراً كتاب « مجد الإسلام » ومؤلفه الأستاذ « چاستون فييت » فى نيف و ٣٥٠ صفحة حاول فيها المؤلف أن يقدم « بانوراما » لتاريخ الإسلام - أعنى اختصاراً - يبرز أهمَّ الأحداث والمواقف التى تنمُّ عما وراءها من رجال ومبادئ بالتقاط صفحات أو فقرات من أقوال المؤرخين فى العصور المتوالية ، وقد عرض الكتاب وعلّق عليه الأستاذ الدكتور حسين مؤنس ، ومن خلال العرض الذى نقله المهندس زكريا هاشم نرى المؤلف الفرنسى يتابع فى تاريخه سقوط الدول وقيامها والحروب ووقائعها ، وكأن ليس فى تاريخ الإسلام غير ذلك من حضارات ومبادئ . .

ونرى فيه كثيراً من الأغلاط أو المغالطات الـمُسِفَّة أو البالغةِ الغايةَ من الجهالة .

فقد افتتح الكتاب بتاريخ الرسول ﷺ وأسرته ، وزعم أن بنى هاشم آل النبى كانوا بطوناً منها عبد المطلب جد النبى . وكان بنو أُمية - كما زعم - أعزَّ وأقوى من بنى عبد المطلب وبنى هاشم جميعاً ، ولذا كان حُكْم بنى أُمية للعرب والمسلمين أمراً طبيعياً ، وأشاد بمقاومة أبى سفيان للإسلام فى الجاهلية ، وببطولة معاوية فى نزاعه مع علىّ ، وبقتل يزيد للحسين ، وبتمثيل الحجَّاج بأهل العراق . . ثم ينتقل إلى تاريخ العباسيين فيختار بناء بغداد عن ابن واضح اليعقوبى ليدلِّل بهذا على انتقال الدولة الإسلامية إلى يد الفُرس

حتى ينسب إليهم ما قام من نهضات علمية فى العصر العباسى ، أو ينقل عن أبى يوسف القاضى نص رسالة ابن المقفع فى معاملة أهل الذمة .. ينقلها لكى يؤكد ما يقوله غيره من المستشرقين من سوء حالهم فى ظلال الإسلام .

وهذه الرسالة مكذوبة فهى من مخترعات الشعوبيين الحاقدين على العرب والإسلام ، ثم يتجاهل العبقريات القانونية التى نجمت فى العصر العباسى كالشافعى ومالك وأبى حنيفة وأحمد والليث .

وإذا ما وصل الكاتب إلى تاريخ هارون الرشيد تجاهله فلم يذكر إلا قصة إهداء الرشيد ساعة دقَّاقة لـ « شارلمان » ، ومع أنها من الأساطير إلا أن الكاتب يتمسك بها لأنها تقول : إن الرشيد أرسل مفاتيح بيت المقدس إلى الملك الفرنسى ، وهذا هو بيت القصيد .. بينما كل مَن لديه أثارة من علم يعرف أن العرب والمسلمين فى تلك الحقبة من الزمن وإلى عهد قريب جداً لم يكونوا يعرفون مفاتيح المدن ، وليس هناك سببٌ معقول يجعل الرشيد يفكر فى هذا ... ثم ذكر « فييت » نكبة البرامكة برواية المسعودى التى تتضمن اتهام خصومهم .

وفى عصر الأمين والمأمون يطنب فى بيان حروبهما ثم يسمى انفصال الأندلس حركة استقلال ، ويسمى حركة المغرب استقلال البربر ، بينما أهل المغرب ينفضون عن أنفسهم الانتساب إلى البربر ويعدون أنسابهم فى العرب أو الإسلام ، وهكذا سمى كل انفصال عن الخلافة العباسية حركة تحرير كثورة بنى رستم الخارجين فى « تاهرت » - برواية أبى زكريا الخارجى - وثورة الأدارسة وحركة بنى مدار أصحاب سيجلماسة ، ثم يذكر المعتصم والترك ويورد فقرات من رسالة الجاحظ فى فضل الترك ، دون أن يذكر نظيرها عن العرب من الرسالة نفسها ، ويعتم بقصة مصرع الخليفة المتوكل (برواية الطبرى) ، وفتنة الزنج فى جنوب العراق برواية النويرى ، وفتنة القرامطة برواية الطبرى ، ثم ثورة أبى يزيد مخلد على الفاطميين ، وأبو يزيد هذا مشعوذ

محتال ، ويقف طويلاً عند الحاكم بأمر الله ، ثم ينتقل إلى عصر السلاجقة سريعاً فينتهى إلى الحروب الصليبية فينقل عن وليم الصورى بطولة الصليبيين ، إذ قتلوا عند دخولهم بيت المقدس ٦٢ ألفاً حتى انتهى إلى سليمان القانونى باعتباره عَلَماً من الأعلام [١] .

هكذا يعمل المستشرقون فى عرضهم لتاريخنا يصطادون مُنكَر الروايات ، ويُفسِّرون ما له ظل من الحقيقة تفسيراً خاطئاً ليسيئوا إلى الإسلام وأهله فى نظر الشباب الغربى حين يجمح بهم الطموح والرغبة فى كشف المجهول وحبّ الاستطلاع إلى دراسة الإسلام .

وممن تعرَّضوا لبنى أُمية المستشرق الألمانى « يوليوس فلهوزن » أحد المبرزين فى الدراسات المتعلقة بالكتاب المقدَّس بقسميه القديم والجديد ، والمبرزين فى ميدان التاريخ العربى ، وقد ألّف فى هذا كتابه « تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية » ، كما كتب « لامانس » عن العصر الأموى ، وقارن بين كتابتيهما العالِم الألمانى (ك . هـ . بكر) فقال : كتابات « لامانس » أشبه شىء بمجموعات من الفيشات ، أما كتاب « فلهوزن » فهو بناء ضخم ، و« لامانس » يكوِّن شخصياته التى تكلم عنها جزءاً جزءاً ، لكنه يقع على اللّون غير الصحيح ، أما « فلهوزن » فهو يزهد فى جميع القطع الملونة الأخَّاذة ، وكأنما ينحت شخصياته من الحجر الأصيل . وفى كل اتجاه عيب .

* *

(هـ) القيمة الحضارية للفتوح الإسلامية :

قال « أندريه هارفيه » : إن الفتح العربى فى قيمته كفتح « أتيلا » زعيم الهون فى القرن الخامس الميلادى لأوروبا ، وكفتوح « چنكيز خان » التترى المتوفى سنة (١٢٢٧م) ، فإنَّ الهُون والتتار لم يتركوا وراءهم فى البلاد التى فتحوها إلا الدمار للمدنيات التى كانت عند غزوهم .

---

(١) المستشرقون والإسلام لزكريا هاشم ص ١٩١ - ١٩٩

* **الجواب** : هذا الذى قاله « هارفيه » وردَّده المستشرقون لانتقاص الإسلام الذى أُقيمت الحياة السياسية والاجتماعية على منهاجه فى الإمبراطوريات التى شادها الإسلام ، إنما هو تجريح للرسول ﷺ وتاريخ الإسلام بغير الحق ، إذْ أن المشاهدة تكذب ذلك ، لأن الفتوح الإسلامية تبعتها نهضة ثقافية وقانونية وعمرانية ليس لها نظير من قبل ، سواء فى العراق أو ما وراءه ، أو الأندلس وجنوب أُوروبا وشرقها ، حتى قال « چوستاف لوبون » فى كتابه « تمدُّن العرب » : « لم تُرزق الأرض بفاتحين أكثر رحمة بالمقهورين من العرب المسلمين » . وقال « سديو » الفرنسى : « لقد نشر المسلمون العلم والمدنية حيث وطئت أقدامهم ، وهذا مما أدَّى إلى أن بعض الشعوب دعت المسلمين لفتح بلادها كيما يتخلصوا - بفضل المسلمين - من سلطان غزاة سابقين مستبدين » .

والمعروف أن فتوح الهون والتتار كانت سَطْواً لا يستهدف توحيد الناس على مُثُلٍ عليا كما هو الشأن فى الفتوح الإسلامية ، ولذا ظل المسلمون يسيطرون على خطوط مواصلات آمنةٍ فى العالَم لا تقل عن أربعة آلاف كيلو متر ، وقد دكَّ المسلمون أقوى أمبراطوريتين مستبدتين بالشعوب ، بينما « أتيلا » و« جنكيز خان » لم يواجها إلا قبائل ودويلات ضعيفة .

ولم يقصدا من غزوهما إلا الاستيلاء على الأراضى ، وتوريث أبنائهما مُلْكاً عضوضاً ، بينما كان المسلمون غير ذلك ؛ فإن أبا بكر وعمر بن الخطاب أبيا - مع إلحاح المسلمين عليهما فى اختيار مَن يخلفهما - إلا أن يكون الخليفة من غير ذريتهما ، فأبو بكر اختار عمر ، وعمر اختار ستة للشورى يختارون من بينهم أميراً للمؤمنين على ألا يكون ابنه هو الخليفة من بعده ، وذلك لتجردهما من المطامع المادية التى من أجلها - فى غير الفتوح الإسلامية - تكون الفتوح .

ومن عجب أن يتهم « فلهوزن » أبا بكر وعمر باغتصاب الخلافة ، وينسى أن الإسلام دين البَشر كافة وليس لأحد فيه وصاية على أحدٍ إلا فى إطار

شريعة الله ، وليس لطائفة من البشر دم خاص يتيح لسلالتها أن تحكم وتسود الآخرين كما نادى « أفلاطون » بذلك ، وهذا يحملنا على القول بأن فكرة الوصيِّ والإمامة - فى مذهب الشيعة - أثر للفلسفة الجاهلية ، وأفلاطون فى الغرب ، وتوارث العرش فى الفُرس .

وقد عبَّر العلامة « ى . هل » فى كتابه « حضارة العرب » عن أثر الدعوة الإسلامية وفتوحها فقال : « إن جميع الدعوات الدينية قد تركت أثراً فى تاريخ البشر ، وكل رجال الدعوة والأنبياء قد أثَّروا تأثيراً عميقاً فى حضارة عصرهم وأقوامهم ، ولكنا لا نعرف فى تاريخ البشر أن ديناً انتشر بهذه السرعة ، وغيَّر العالم بأثره المباشر كما فعل الإسلام ، ولا نعرف فى التاريخ دعوة كان صاحبها سيداً مالكاً لزمانه ولقومه كما كان « محمد » ، لقد أخرج أُمةً إلى الوجود ، ومكَّن لعبادة الله فى الأرض ، وفتحها لرسالة الطُهْر والفضيلة ، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية بين المؤمنين ، وأحلَّ النظام والتناسق والطاعة والعزة فى أقوام لا تعرف غير الفوضى » .

إن الفتوح الإسلامية كانت دعوة - لا إلى مال وسلطان - ولكن إلى توحيد الله ، والإيمان بما أنزله ، وتحرير الإنسان من سلطان الأوهام وظلم الإنسان ، إلى سلطان العلم وعدل الإسلام ، فتحرر أهلِ البلاد المفتوحة فى أبدانهم ، وفى نفوسهم وعقولهم ، وصار شعارهم كما قال علىٌّ بن أبى طالب عن رسول الله ﷺ : « المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحبُّ أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخرى ، والزهد حِرْفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خُلُقى ، وقُرَّة عينى فى الصلاة » .

لقد تبدلت بالإسلام نظرة الفرد إلى الحياة تبدلا تاماً ، وانقلب النظام الاجتماعى بما ابتدع الإسلام من أُصول وحكمة ، وأصبح رعايا الدولة

الإسلامية - قبل الإسلام وبعده - كما قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى حين أرسلت قريش سفراءها إلى ملك الحبشة تطلب تسليم المسلمين اللاجئين إليه : « أيها الملك ؛ كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الرحم ، ونُسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منَّا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لنوحدِّه ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان ، وأمر بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحُسْن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدَّقناه ، وآمنَّا به واتبعناه على ما جاء به ، وحرَّمنا ما حرَّم علينا ، وأحللنا ما أَحلَّ لنا ، فعدا قومنا علينا فعذَّبونا وفتنونا وضيَّقوا علينا الخناق ، فخرجنا إلى بلادك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا ألا نُظلم عندك أيها الملك » (١) .

وقد ذكر « ثوسيديدس » أن أسباب الحروب فى العالم - عدا الإسلام - ترجع إلى أسباب مخجلة ، فمثلاً حرب الولايات المتحدة والمكسيك (١٨٤٥ - ١٨٤٨) كما قال « جرانت » أحد قادة جيوش الولايات المتحدة : إنها حرب تشنها دولة قوية ضد أخرى ضعيفة . وكذلك حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦) التى شنتها روسيا القيصرية . وهكذا حرب الروس مع اليابان (١٩٠٤ - ١٩٠٥) كانت مسألة صراع قوىٍّ مع ضعيف يريد ابتلاعه .

وهكذا الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) كان دافعها رغبة ألمانيا فى التوسع وإيجاد ثغرة لها عبر ستار المستعمرات البريطانية ، وهكذا القول فى

(١) بطل الأبطال لعبد الرحمن عزام ص ١١٥ -١١٧

الحرب العالمية الثانية كانت طمعاً فى إيجاد مجرى ملاحى تجارى للألمان فى المياه الدافئة (١) .

وقد كانت حرب الجاهليين للرسول استبقاء لسلطان المرابين والمستغلين الأقوياء ضد محمد عدو الاستغلال ، ومنصف المستضعفين من جور الأقوياء ، فقد حارب رسول الله ﷺ أئمة الكفر فى مكة ، ولم يحارب أهل مكة ، ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ (٢) ، فلما استسلمت رءوس مكة قال الرسول لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، وعندما نادى المنادى : « مَن دخل داره فهو آمن ، ومَن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » .. لم يطلب من أحد أن يدخل الإسلام دون صدق اعتقاد ، وهكذا كان الأمر مع كل البلاد التى غزاها صلى الله عليه وسلم .

وقد كان محمد ﷺ يُحسن من فنون الحرب ما لم يكن يُحسنه المعتدون عليه ، ولكنه اجتنب الهجوم والمبادأة بقتال قوم لم يُبيِّتوا له شراً ، لا لعجزٍ أو خوف مما يجهله ولا يجيده ، وإنما لأنه ينظر إلى الحرب نظرته إلى ضرورة بغيضة يلجأ إليها ولا حيلة له فى اجتنابها ، وقد كان يتجنبها حينما تتيسر له الحيلة الناجحة المغنية عنها ، بل إن البشرية لم تبلغ حتى الآن مبلغ القرآن مع الذين عُرِف عنهم الغدر ونقض العهد حين قال سبحانه : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (٣) .

* *

• الدافع الاقتصادى :

ومن الباب الذى دخل منه « أندريه هارفيه » لمهاجمة الفتوح الإسلامية دخل (ى . هل) بأسلوب آخر تابعه فيه جمهرة من المستشرقين ، فقال فى

---

(١) محمد المحارب : للصاغ محمد فرج ص ٢٩ - ٣٠ - الطبعة الثالثة - دار الفكر العربى .

(٢) التوبة : ١٢ (٣) الأنفال : ٥٨

كتابه « الحضارة العربية - ص ٥٢ » [١] : « لقد تجاوز العرب حدود أرضهم إلى فارس والروم بعد أن دمرت الحروب الداخلية أرزاقهم » .

وهذا هو ما عُلِّلت به الهجرات البشرية الكبرى كهجرات العرب - قبل الهجرة - إلى العراق والشام وغيرها ، ولكنه لا ينطبق على الفتوح الإسلامية لا فى عهد الرسول ولا بعده ، فلقد كان المسلم يخرج من ماله وسخائه ورخائه وهناءته جهاداً فى سبيل الله وطمعاً فى جَنَّة الله . .

ففى جيش العُسْرة جهَّزَ عثمان جيشاً على نفقته لقتال الروم ، وما كان خروجه للجهاد إذن لأن حياته المعيشية مدمَّرة ، وهكذا جاء أبو بكر بكل ماله نفقة فى سبيل الله من أجل قتال الروم ، وعندما استولى عمر على بلاد الفُرْس منح الأرض للفلاحين ، ولم يعطها الجيش المظفَّر ، وما ذلك إلا آيةَ الآيات على كذب دعوى « هِلْ » أن الفتوح نتيجة دمارِ الأرزاق فى الجزيرة ، وطلبٌ لها وراء حدودها فى فارس والروم .

ولو أن الفتوح هربٌ من ضيق الرزق فى الجزيرة العربية لتعثَّرت أقدام جند الإسلام فى سندس حوض الفرات ثم دجلة أو نهر العاصى أو النيل . . ولكن أقدامهم ظلت تمضى فى نشاط الريح وصلابة الرواسى الشُّمِّ شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ، فخلَّفوا نعيم مصر إلى أدغال السودان وهضاب جنوب ووسط إفريقيا وصحارى شمال إفريقيا والجبال فى فارس وما وراءها . . ليُعمِّروا القفار والجبال ، ويعمروا بالإيمان قلوب ساكنيها . .

ولو أن مستشرقاً أراد أن يتأمل هذه الكلمة الكاذبة بعقلٍ متحرر شيئاً ما ، لضحك ساخراً من نفسه إذ يقول : كيف هذا ؟ فلو أننا تأملنا فاتحى أوروبا لرأينا الفاتحين قادةً من العرب وغيرهم ، وجنوداً معظمهم لم تطأ أقدامهم الجزيرة العربية ، فكيف يقال إنهم هاربون باسم الفتوح الإسلامية من ضيق الرزق فى الجزيرة التى دمرتها الحروب الداخلية ؟

* *

---

(١) ترجمة الدكتور إبراهيم أحمد العدوى - الألف كتاب - مطبعة الأنجلو المصرية .

● الدافع السياسى للفتوح :

ومن باب مهاجمة الفتوح الإسلامية لتشويه الإسلام وسيرة رسول الله وأصحابه وأتباعه : دعوى أن الإسلام دين لا دولة ، والجهاد ليس عملاً دينياً بل حركة سياسية .

وقد روَّج لهذه الفكرة المسمومة الشيخ على عبد الرازق فى كتابه « الإسلام وأصول الحكم » ، والسيد أحمد خان الهندى ، والقاديانية والبهائية ، وسلك مسلكهم جماعة هندية دينية فقالت : ندعو إلى الفضائل لا المسائل ولا الجهاد ، حتى لا ندخل فى مناقشة مع العلماء ، ولا نتورط فى صراع السياسيين .

فهُمْ كبعض الجمعيات التى تجعل فى برنامجها ولائحتها تحْريم الاشتغال بالسياسة على نفسها طلباً للحياة ، وإيثاراً للسلامة من بطش الحكام الظالمين ، ونسوا قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ ، لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [1] ، وما أجدرهم أن يذكروا قول القائل :

تأخرتُ أَستبقى الحياة فلم أَجد   لنفسى حياة مثل أن أَتقدما

ومن قبل هؤلاء قال ذلك « إخوان الصفا » فى الرسالة السابعة من القسم الرياضى : « فصل فى مثنوية الإنسان » . ومن المستشرقين الذين يدعمون هذا الرأى « توماس و . أرنولد » فى كتاب « الخلافة » (طبع فى أكسفورد سنة ١٩٢٤) .

ويعوِّل على عبد الرازق فى إثبات رأيه على قِلَّة النصوصِ الواردة فى الشئون السياسية المدنية ، وعلَى أن الإسلام جاء ديناً وشريعة تعبُّدية ، وليس للتنظيم المدنى [2] .

ويتجاهل كل هؤلاء أَن الإسلام دين الفطرة كما فى كثير من الآيات : ﴿ فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [3] ، وأن الجهاد إذن من الأمور الفطرية التى جاء

---

(١) العنكبوت : ٦٤

(٢) الإسلام وأصول الحكم ص ٨٥ ، ١٠٣ - الطبعة الثالثة - سنة ١٩٣٥ - مطبعة مصر .

(٣) الروم : ٣٠

الإسلام لينظم أحكامها كالزواج حين نزلت أحكامه لتنظيم غريزة الجنس ، وأحكام المعاملات لتنظيم غريزة التملك ، ولا مشاحة فى أن الجهاد من الأُمور الفطرية التى اقتضت نزول تشريعاتها .

كتب الفوز والبقـاء على الأرْ   ضِ لناسٍ تدجَّجوا بالســلاحِ

. . . .

لم يفُــزْ بالســـــــلامِ إِلا أُناسٌ   قد أعدُّوا سلاحهم للقتال

وفى القرآن والسُّنَّة مئات الآيات التى تناولت شئون السياسة والحكم والقضاء بُنى عليها الفقه الإسلامى بموسوعاته ، و« لا ينكر الشمس إلا مَنْ به رَمَد »

وإنّ أى مبادئ فاضلة تريد البقاء والخلود - كشريعة الإسلام الخالدة - لا بد لبقائها من قوة وجند يحميانها ، فلذلك كانت شريعة الجهاد من شرائع الإسلام ، والجهاد هو السور والحارس لأسس الإسلام ، وما لا حارس له ضائع ، وما لا أساس له مهدوم ، وكما فى حديث « السدوسى » : جئت أبايع رسول الله ﷺ على الإسلام فقال : « تبايعنى على أن تشهد أنْ لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعتَ إلى ذلك سبيلا ، وتجاهد فى سبيل الله » ، فقال السدوسى : أما الجهاد فإنى أخشى إذا حضرتُ المعركة أنْ تجيش نفسى فأُولِّىَ الدُبر فأكون ممن لعنهم الله ، وأما الزكاة فما لى إلا هذه الإبل هى رِسْل أهل بيتى (من لبنها طعامهم) ، وحَمُولتهم (أى تحملهم) ، فغضب رسول الله ﷺ وقبض يده ، ثم أرسلها مرات ، وهو يقول : « فلا جهاد ولا صدقة . فبم تدخل الجَنَّة إذاً » ؟ ، قال السدوسىُّ : فقلت : يا رسول الله ؛ امدد يدك أبايعك ، فبايعته عليهن كلهن .

وكيف يقال : الجهاد حركة سياسية وليس عملاً دينياً لأن الإسلام

دين لا دولة ، والقرآن نفسه مليئ بآيات الحض على الجهاد : ﴿ وَجَاهِدُواْ فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (١) ، فهو شريعة محمد والنبيين قبله كذلك ، لأنه لا دين بلا جهاد ، وقال سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ، وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (٣) .

وينص القرآن على أن الجهاد عمل دينى وليس حاجة سياسية وإنْ نَجَم عن انتصارات المجاهدين مكاسب سياسية فهى ليست الغاية والهدف ، قال سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ، وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ ، وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالأَخِرَةِ ، وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٥) ، وقال : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ ، فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٦) .

فهذه الآيات نصٌ على أن الجهاد فريضة ماضية حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، ونصٌ علَى أنه كان فى الشهر الحرام دفعاً لشر الصدِّ عن سبيل

---

(١) الحج : ٧٨ (٢) البقرة : ٢١٦ (٣) النساء : ٧٤
(٤) البقرة : ١٩٣ (٥) البقرة : ٢١٧ - ٢١٨ (٦) الأنفال : ٣٩

الله والكفر به وبالمسجد الحرام ، ودفعاً للفتنة عن الدين التى هى شرٌ من قتل النفس ، وأن الجهاد قائم وماض لأن الكفار لا يزالون يقاتلونكم لا من أجل مصالح سياسية أو تجارية ولكن بتعبير القرآن ﴿ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ ﴾ [1] ، ثم وصف الجهاد وثمرته بأنه : ﴿ فِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ [2] ، وقال عن المكاسب المقصودة للمجاهد : ﴿ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ ﴾ [3] ، وهى شىء آخر ليس هو خصوص السياسة والاقتصاديَّات ، وهكذا قال سبحانه : ﴿ وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ * أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، أَتَخْشَوْنَهُمْ ، فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [4] ، فالقتال إذن لأنهم ﴿ طَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ ﴾ مع أسباب كلِّها جِمَاعُها العداء والمؤامرات على الإسلام ورسوله ، ويحدد القرآن اتجاه ضربات المجاهدين وجهةً دينية صريحة لا تميل يمنة أو يسرة : ﴿ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [5] .

ويميز المعسكر الإسلامى ورايتُه بميزة التجرد لله فى القتال ولدينه : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ ، وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [6] ، فلو كان الغرض سياسياً ما أقدمت القلّة لتنتحر أمام مثليهم [7] كما فى قوله سبحانه : ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ ، وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ

---

(1) البقرة : ٢١٧ (2) البقرة : ٢١٨ (3) البقرة : ٢١٨

(4) التوبة : ١٢ - ١٣ (5) التوبة : ٢٩ (6) آل عمران : ١٣

(7) تفسير الجلالين للآية - ١/٢٧ - المطبعة العامرية العثمانية بالقاهرة .

أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [1] وهكذا قُلْ فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ للهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [2] فهذه التجمعات الرهيبة لا يقف فى مواجهتها - بمنطق السياسة - قلّة جريحة منهكة لولا أن المغنم المادّى والغرض السياسى نتائج تأتى عفواً وراء الغرض الأسمى « الجهاد فى سبيل الله وابتغاء نُصْرة دينه » .

بل إنَّ وصف الغاية من قتال المسلم بصيغة تدل على الملازمة والاستمرار واستحضار الصورة بالنية دائماً وأبداً . لَيبدُو جلياً فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [3] كما يبدو الارتباط بين النصر وسببه (الجهاد) وبين الهزيمة وسببها (الكفر) فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُواْ ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [4] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِى الأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى ، إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [5] ، وينص على أن تمكين المجاهدين من عدوّهم هو من أجْل غايات المعركة وهو الدين : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ﴾ [6] .

* *

---

(1) الأنفال : ٦٦ (2) آل عمران : ١٧٢ - ١٧٣

(3) النساء : ٧٦

والتعبير بصيغة المضارع : « يقاتلون » ، هو الذى يدلُّ علَى الملازمة والاستمرار ، واستحضار الصورة كما يقول علماء البلاغة .

(4) الحج : ٣٨ (5) المجادلة : ٢٠ - ٢١ (6) النور : ٥٥

● **الصراع السياسى داخلى :**

وقد يكون هنالك قتال قام بين المسلمين وداخلَ حَوْزتهم فسَّره المستشرقون بالقتال من أجْلِ السُلْطة ، ولكنه - عند التحقيق - من أجلِ الرأى ، وتأييداً لحقٍّ دينى مطلوب . ولم يحدث - قبل انهدام الخلافة الإسلامية - أن زحفت جنودٌ إسلاميون لقتالٍ فى جهةٍ ما إلا والغرض الدينى واضح بارز ، ولكلٍّ وجهةُ نظرٍ هو مستميتٌ فى الدفَاع عنها .

وقد تورط المهندس زكريا هاشم فى هذا المفهوم قائلاً : « ومالى لا أتحدث عما فعل الكاثوليك بأمر « شارل التاسع » ملك فرنسا عام ١٧٩٢ بالبروتستانت من المذابح التى أُحصيت ضحاياها ، فبلغت سبعين ألف نفس ، مقارناً ذلك بالجناية الكبرى التى قام بها « السلطان سليم » عام ١٥١٣ فى بلادَ العجم ، يوم أحصى الشيعةَ فى تلك البقاع بطريقة سرّية لم يشعر بها أحد ، حتى إذا عرف مساكنهم وأشخاصهم ، أمر السلطانُ بإبادتهم فأُبيدوا فجأة عن آخرهم ، وكانوا نحو أربعين ألفاً ، ولم يكن لذلك من سبب سوى القصد إلى إثارة نفس عميد الشيعة « الشاه إسماعيل » ملك العجم واستفزازه للمحاربةَ طمعاً فى مُلْكه . . فالسبب فى هذا - كما ترون - سياسى بحت ظهر للناس فى شكل دينى » [1] .

وهذه أكذوبة . . فإن السبب فى الصراع - فى الحقيقة - هو ما يعرفه الجميع ، وهو التعصب الشديد عند الترك لمذاهب أهل السُّنَّة ، وقد زحف الشيعة نحو العراق فسقطت فى أيديهم بغداد سنة ١٥٠٨ فاستنجدت بغداد بالأتراك ، وكان الصَّفَويون قد تغلغل نفوذهم الشيعى فى بلاد الأناضول فهددوا تركيا ، فخرج إليهم « السلطان سليم الأول » بجيش قوى علنى والتقى بجيوش الإيرانيين فى معركة « جالديران » سنة ١٥١٤ وانتصر عليهم ، ثم لاحقهم إلى العاصمة الإيرانية « تبريز » ، فدخلها أيضاً حتى أدبها ، ثم تراجع عن البلاد مكتفياً بقيام وحدة سُنِّية تضم تركيا والشام ومصر وسائر بلاد العرب ، إذْ أن المراد من الحرب هو حماية المذهب السُّنِّى ، وليس إذلال

---

(١) المستشرقون والإسلام ص ١٥٠ -١٥١

المسلم الشيعى أو سلْبه خيرات بلاده . ولكنها تركيا المظلومة بفضل جهود الدعايات الاستعمارية ضد الرجل القوى الذى دوَّخ أوروبا ، فلما أمسى « رجلاً مريضاً » أجْهزوا عليه ، فلما قضى نحبه مثَّلوا به وبتاريخه أبشع تمثيل حتى يقترن اسم الخلافة الإسلامية العثمانية بأبشع صورة ، فلا يفكر فى الجامعة الإسلامية ولا فى نظام الإسلام أىُّ مسلم .

وهكذا كرر الاتهام فى حماسة المدافع عن نفسه باتهام الخصم بأنه شريك فى نفس التهمة فقال : « ولقد حذا المسلمون فى هذه النوبة (العصر العباسى) حذو المسيحيين فى بلاد الغرب ، فأقاموا فى بغداد ما أقامه الأوروبيون فى ممالكهم من محاكم التفتيش ضد مخالفيهم فى الرأى » (١) .

فالواقع أن الذين جُنى عليهم أفراد معدودون معروفون ، والعقوبات لم تتجاوز العقوبات العسكرية المعروفة فى القرن العشرين ، وقد انتهت بتولِّى عصر المأمون ، إنها عقوبات الحبس والسياط مع المجادلة . أمَّا محاكم التفتيش فدركات العذاب فيها شتَّى ، منها صندوق به مسامير مدببة من كل جانب ، يوضع المخالف داخل الصندوق الضيق ثم يُغلق ليضغط أضلاعه مع وخز المسامير حتَّى تسيل دماؤه ويختنق ، عدا ألوان أُخرى من القتل ، لقد ظَلَم أخى تاريخ الإسلام بهذه الموازنة ظلماً بيِّناً .

* *

● الفتوح الإسلامية والعلوم :

إن أول ما يتبادر إلى الأذهان فى بيان ارتباط الغزوات الإسلامية بالعلم ما رأيناه من النبى ﷺ يوم « بدر » ، إذ جعل فداء الأسير من المشركين إذا كان يجيد القراءة والكتابة أن يُعلِّم عشرة من أطفال المسلمين القراءة والكتابة ، بينما كانت دولة الإسلام وليدةً تحتاج المال أشد الاحتياج ، ومنح شاعراً من

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٩

ذوى الفكر فى قريش الفداء دون شىء إلا تقديراً لأدبه ، على شريطة ألا يعود إلى مهاجمة المسلمين ، لا باللِّسان ولا بالسِنان .

فاستحياءُ المتعلمين والمفكرين استبقاءً لمشاعل النور وتقرير أنه لا يجوز إطفاء السراج إلا إذا امتدَّ لهبه إلى زيته فاستحال إلى حريق سيؤدى إلى كارثة ، ومَن علَّم إنساناً فكأنما أحياه من موته ، وأيما شعب مستعمر أو رجل ذى سُلْطة حال بين أُمة أو فردٍ وبين المعلم فهو قاتلٌ ، هذه تعاليم الإسلام وبهذه الصورة جاء بيانُ القرآن الكريم : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [1] .

وفى « بدر » تُوضع قاعدة أُصولية هامة فى منهج البحث الشرعى ، وهى قاعدة الاجتهاد فيما ليس فيه نصٌ شرعى ، إذْ بدأ المسلمون وعلى رأسهم الرسول يفكرون فى أمر الأسارى وماذا يجب أن يفعلوا بهم ، وجمهور العلماء أن الاجتهاد جائز من الرسول حتى فى الحلال والحرام ، وقال المعتزلة والأشاعرة : يجتهد كباقى المسلمين فى غير دائرة التحليل والتحريم فى كل ما لا نص فيه ، وبابُ الاجتهاد هو باب الثراء للفكر الإسلامى وللتشريع عامة . ولقد قيل : إن الوحى كان يتأخر نزوله أحياناً ، وفى بعض المسائل لم يُنزِل الوحىُ بيانها شحذاً لِعقُولِ المسلمين على التفكير ، وإنماءً لثمرات القرائح .

وقد روى عن أم سلمة :« جاء رجلان من الأنصار إلى النبى ﷺ فى مواريث بينهما قد درَست ، فقال النبى ﷺ : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلىَّ ، وإنما أقضى برأيى فيما لم ينزل علىَّ فيه وحى ، فمَن قضيتُ له بشىء من حق أخيه فلا يأخذه ، فإنما أقتطع له قطعة من النار يأتى بها يوم القيامة فى عنقه » [2] .

---

(١) الأنعام : ١٢٢

(٢) الدكتور محمد سلام مدكور : الإسلام وأثره فى الثقافة العالمية ص ٢٩ - العدد ٢٧ - من دراسات فى الإسلام .

أمّا ما وراء عصر النبى ﷺ من الحرص على التعليم والثقافة الإنسانية فحسبك هذه الأمثلة :

* فى معركة « أنقرة » حين انتصرت جيوش الخليفة هارون الرشيد كان ما طلبه - وهو الظافر - عوضاً عن تعويضاته الحربية هو تسلم الكتب والمخطوطات اليونانية مقابل وقف القتال لتُترجم إلى العربية ، دون أى شرط مادىٍّ آخر ، مع تنازله عن نفقات الحملة وتكاليفها ثمناً لهذه المخطوطات المطمورة الآيلة للتآكل .

* وعندما انتصر المأمون بن هارون الرشيد على البيزنطيين طالب « ميخائيل الثالث » بأن يسلمه جميع المخطوطات اليونانية الخاصة بالفلسفة والتى لم تُترجم إلى العربية تعويضاً لخسارة الغرب ، ولم يطلب مالاً ولا عتاداً ، وذلك لأن الكتب - كما قال المأمون - هى « الأسلحة العقلية التى يُتسلح بها فى سبيل السلام وتدعيمه » .

* بل لما أسر المسلمون عدداً كبيراً من الصينيين من أهل سمرقند سنة (٧٥١ م) . وكانوا ذوى خبرة فى صناعة الورق خيَّرهم الحاكم بين الاسترقاق - وقد كان هو النتيجة الطبيعية للأسر فى ذلك العصر - وبين تحريرهم وإطلاق سراحهم بشرط تعليمهم العرب صناعة الورق ، فلما اختاروا تعليم العرب الصناعة حرَّرهم ، وانتشرت صناعة الورق بين المسلمين ، وشُيِّدت المصانع « الطواحين » لذلك . ثم توسع الخليفة المنصور (٧٥٤ - ٧٥٥م) فى نشر هذه الصناعة حتى صارت صناعة الورق من اختصاص العرب ، وعنهم أخذها الغربيون .

* « تروى لنا الدكتورة « سيجريد هونكه » الألمانية : أنه فى القرن الثانى عشر الميلادى عاد نفر من الحجاج المسيحيين من زيارة قاموا بها لقبر الرسول يعقوب فى أقصى شمال غربى إسبانيا - وكان معهم أول ورقة - إلى أوروبا - جاءوا بها من الأندلس العربية ، قالت : وذكر هؤلاء الحجاج أن المسلمين يستخدمون الورق للكتابة وتدوين الكتب المقدَّسة ، وأن الورق يوجد عندهم

بكثرة تسمح باستخدامه فى الأغراض التجارية كلفٍّ البضائع مثلاً ، كما اقتبست أوروبا من المسلمين غير ذلك الكثير من الصناعات ، فالورق ما هو إلا صفحة من صفحات الفخار للعرب المسلمين .

* وقالت : « إن الوزير البرمكى يحيى بن فضل أقام أول مصنع لصناعة الورق سنة (٧٩٤م) ببغداد ، كما أن العرب أوجدوا بعض وسائل الطباعة التى استخدموها فى طباعة الوثائق الرسمية وأوراق النقد » . وليس ببعيد أن تكون فكرة الطباعة نشأت من هنا ، هذا هو فضل الفتوح الإسلامية والفاتحين على الثقافة ، وهذا هو حفاظهم على التراث الإنسانى أن تأكله نيران الحروب أو يبلى مع الزمن وهو فى يد المهزوم المستضعف (١) .

ولعل هذا هو ما دعا « أرنولد » إلى أن يقول : « ومن المؤكد أن هذه الفتوح الهائلة التى وضعت أساس الإمبراطورية الإسلامية لم تكن ثمرة حرب دينية قامت فى سبيل نشر الإسلام ، وإنما تلتها حركة ارتداد واسعة على الديانة المسيحية » .

ودعا « چوستاف لوبون » إلى أن يقول : « إن القوة لم تكن عاملاً فى انتشار القرآن ، فقد ترك العرب الفاتحون المغلوبين أحراراً فى أديانهم ، فإذا حدث أن اعتنق بعض النصارى الإسلام ، واتخذوا العربية لغةً لهم ، فذلك لما رأوه من عدالة الغالبين ، ولما لمسوه فى الإسلام من سهولة ويسر لم يعرفوهما من قبل ، ولم ينتشر الإسلام بالسيف وإنما انتشر بالدعوة وحدها » .

وحقاً ما قال . . فقد كان دخول الإسلام إلى تلك البلاد يسبق دائماً دخول جيوش المسلمين ، وهذه الجيوش إنما تفد لحماية المسلمين فى البلاد إذا ما استُضعفوا ولم يتمكنوا من إقامة شعائر دينهم وكانوا موضع اضطهاد (٢) .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢ - ٣٥

(٢) الإسلام وأثره فى الثقافة العالمية ص ٥٢ - ٥٣

ولعل أكبر لطمة لمن انتقصوا الفتوح الإسلامية وشبهوها بفتوح التتار التى ليست لها قيمة حضارية ما نقله « دوزى » فى كتابه « الإسلام والأندلس » من رسالة لكاتب إسبانى فى عصرها الإسلامى يقول :

« إن أرباب الفطنة والتذوق يسحرهم رنين الأدب العربى ، فاحتقروا اللاتينية وانصرفوا إلى العربية ، فدرسوا التصانيف التى كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون » .

بل إنهم أغاروا على المخطوطات العربية فى البلاد الإسلامية يشترونها من ورثتها العوام ، أو يسرقونها من المكتبات العامة التى كانت فى منتهى الفوضى وينقلونها إلى بلادهم ، حتى بلغ عدد المخطوطات الإسلامية فى أوائل القرن التاسع عشر : مائتين وخمسين ألف مجلد ، وما زال العدد يتزايد يوماً بعد يوم ، بفضل مزيد من مشتريات الكتب ، وإنهم ليلتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات بأغلى الأثمان .

وكان من أهم تلامذة العرب إمام المدرسة التجريبية « روجرز باكون » الإنجليزى من علماء القرن الثالث عشر الميلادى ، وقد أشاد بمقررات العرب العلمية [(١)] .

هذه ثمار الفتوح الإسلامية التى انتقصها المستشرقون . . وتلامذتها كثيرون أمثال « باكون » .

* *

● الفتوح الإسلامية والفنون العسكرية :

لقد أرسى المسلمون فى فتوحاتهم قواعد للحرب لم يكن للغرب ولا للشرق إلمام بها . والمتأمل فى كتب التخطيط (التكتيك) والتعبئة اليوم

---

(١) المرجع السابق ص ٥٧

يجد أحدث النظريات والوسائل وقد سبق إليها معلمو البشرية أتباع محمد عليه السلام ، إنهم قد ربطوا المقاومة بفنون الكيمياء والجغرافيا وعلم النفس واقتصاد الحرب والتربية الرياضية والطب وغير ذلك أيّما ارتباط ، ففى القرن الثانى عشر الميلادى كان المسلمون قد نجحوا فى ابتكار مادة كيماويَّة مفرقعة ، ثم استكملوا - فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى - اختراع مادة مفرقعة دافعة للصواريخ فى حروبهم ضد الصليبيين ، وقد نقلت الدكتورة « سيجريد هونكه » الألمانية فى كتابها « فضل العرب على أوروبا » (١) عن مخطوط لـ « حسن الرماح » يرجع إلى سنة (١٢٧٥م) : « كان العرب فى الأندلس هم أول من استخدم الطوربيد المشحون بالمواد المفرقعة ، يقذفه صاروخ وبه مفجر من ثلاثة محركات ، فالعرب الأندلسيون هم صانعو القنابل من البارود فى أوروبا ، وقد استخدموها فعلاً فى كثير من حروبهم .

فالتاريخ يحدثنا أن المدفعية العربية قذفت بقنابلها فى الأعوام (١٣٢٥، ١٣٣١ ، ١٣٤٢م) تجمعات معادية فى مدن ، فأحدثت هذه القنابل ذعراً شديداً فى صفوف الأعداء ، وفى عام (١٣٤٦م) دارت معركة طاحنة هى المعروفة باسم « كريسى » فأصلت فوهة المدفعية العربية العدو نيراناً حامية حتى أطلق عليها الأوروبيون وقتذاك : « فوهة الشيطان » ، فكان هذا نقطة تحول فى الذخيرة والعتاد » .

وكانت رغبة المسلمين بهذا التطوير حسم المعارك بدلاً من إطالة أمد الحرب الذى يرهق المتقاتلين وشعوبهم حتى يستنزف الحياة من هياكلهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والروحية ، فإنَّ حسم المعارك العاجل يتيح الفرصة للمغلوب أن يستعيد بناء كيانه ، وأن يستعيد فى نفس الوقت مفاهيمه (إيديولوچيته) ومفاهيم المنتصر ، فينقِّح من فكره وسلوكه أو يتبع الظافر إن راقته مبادئه ، فهو اختراع قاسٍ للمرحمة قسوةَ مبضع الطبيب .

ولم ينس المسلمون جوانب العلوم التى تخدم الكيان الإنسانى فى زحمة

---

(١) ترجمه الأستاذ الدكتور فؤاد حسنين على - طبعة النهضة المصرية ص ٣١ - ٣٣

الفتوح وتطوير الذخيرة ، ففى تاريخ الطب تقول الدكتورة « سيجريد هونكه » : « والحق أن الطب الصحيح لم يكن إلا عند المسلمين العرب ، فالدراسات الطبية عندهم لم تكن - قبلهم - تقوم على أسس علمية ، وهم أول مَن فرَّق بين الطب والصيدلة ، فقد أسس العرب أول صيدلية عامة فى القرن الثامن الميلادى فى عصر الخليفة المنصور ، كما أوجدوا صيدليات متنقلة مع المشافى المتنقلة التى أوجدوها ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه الكنيسة فى أوروبا ترى أن استخدام أدوية غير روحية - وكذا احتراف مهنة الطب - عمل مشين يتنافى مع الكرامة » .

ثم قالت : وإن مرجع هذه النهضة العلمية عند المسلمين والسبق الحضارى هو العقيدة الإسلامية ، التى نشأت فيهم ، وقام بتوجيهها رسولٌ منهم آخى بين معتنقى دعوته ، وخلق فيهم أُخوَّة إسلامية قوية جعلتهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً بعد تفكك ، وذلك مصداقاً لقول الله سبحانه : ﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾ (١) ، (٢) .

وفى التاريخ السياسى والحربى قال « فون كرمر » : « إننا مدينون فيما نعرفه عن التاريخ السياسى والحربى الذى يتعلق بتلك العصور الوسطى لما بذله مؤرخو العرب من اجتهاد لا يعرف الكلل فى جمعهم للأخبار ، وإن بيننا وبين ذلك التاريخ اثنى عشر قرناً ، لهذا تتناسب الدقة فيه مع طول هذه الشقة » (٣) .

ومن هذا القبيل قول « هانوتو » : إن ما لدى المسلمين من معرفة

---

(١) فضل العرب على أوروبا الصفحات من ٢٠٠ - ٢٢٢ ، ٢٥٩ - ٢٦٠ ، والإسلام وأثره فى الثقافة العالمية ص ٨٠

(٢) آل عمران : ١٠٣

(٣) الدعوة إلى الإسلام لسير « توماس و . أرنولد » - ترجمة الدكتور حسن إبراهيم وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوى ص ٨٨ - الطبعة الثانية .

وثقافة هو بعض بقايا التمدن البيزنطى « يونان الشرق » وليست ثقافة أصيلة ابتدعوها ، وقد ردد ذلك « كويلر يونج » فى مؤتمر « برنستون » للثقافة الإسلامية [1] .

والرد على هذا يسير ، فقد ظلت التجارب العلمية الشخصية التى قام بها علماء الإسلام - بل والدول الأوروبية - كابن النفيس والجاحظ والرازى وغيرهم ، إلى جانب البحوث العلمية التى احتضنتها الدولة كأبحاث الرصد الفلكى وغيرها دليل الأصالة .

وينشر « م . سفارى » حديثاً ضعيفاً عن علىّ بن أبى طالب يُظهره بمظهر صاحب الحق الأول فى الخلافة الإسلامية وليس أبا بكر وعمر وعثمان ، ليثير الشيعة ويُحدث فجوة بين الطوائف الإسلامية يسعى المستشرقون - ومن ورائهم الاستعمار وقادة الحروب الصليبية فى الكنيسة - إلى إحداثها بكل وسيلة ؛ فى دوائر المعارف ، وفى كتب خاصة مثل كتاب « دين الشيعة » الذى أصدره القسيس الأمريكى « د . م . دونالدسون » عام ١٩٣٧ ، وكتاب « أصل الدروز وديانتهم » لفيليب حتى ، و« دراسات فى تاريخ الثقافة الإسلامية لـ « جروبناوم » ، وفى كتب عامة مثل « تاريخ الشعوب الإسلامية » لـ « كارل بروكلمان » الألمانى الأصل وعضو المجمع العلمى العربى الدمشقى . وقد تُرجم إلى الإنجليزية ، ومثل « تاريخ العرب » لـ « فيليب حتى » ، و« دراسة فى التاريخ » لـ « أرنولد توينبى » فى كل ما يتصل بالإسلام ورسوله ، أو يتصل بموسى عليه السلام ، ومن هذه الكتب ما هو ملىء بالطعن والتجريح للرسول ورسالته .

* *

● آثار التجريح :

وقد رأى الأستاذ « مالك بن نبى » أن هذه الإساءات لم يكن لها أثر على المسلمين ، وهذا ما سلَّمتُ به بالنسبة لمستشرقى العصور الوسطى ومسلمى

---

(١) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة لمحمد خلف الله ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ فى مقالته « أثر الإسلام فى الثقافة المسيحية » - الطبعة الثانية .

تلك الحقبة ، أما الآن وبعد التفاعل الفكرى بين كل شعوب الأرض فأرى أن كتابات المستشرقين هذه ذات أثر سيء على مَن يُكثرون استماعهم لها ، أو يقلّ سماعهم لها ولكن تضمحل مناعتهم لقلّة زادهم من الفكر الإسلامى أو اليقين الإيمانى الواضح الصورة ، وذلك أن اعتياد المسلم سماع هذه الأكاذيب والمفتريات يجعل حماسته لدينه تفترُ فلا ينبرى لمهاجمتها ، ويأتى الجيل الذى بعده ، وقد رأى المسلمين من آبائه - عندما تُثار هذه الاتهامات ضد النبى والإسلام ، لا يحركون تجاهها ساكناً ، فيقع فى رَوعه أن هذه الاتهامات - إن لم تكن حقاً - فعلى الأقل آراء ذات قيمة ولها نوع من الاعتبار ، فيتسرب الشك فى جلال الإسلام ونبيه إلى نفوس الجيل ، وبهذا يضعف الارتباط بين المسلمين وبين نبيهم ودينهم ، وتنحل العروة الوثقى بين المسلمين ، ويصبحون لقيمات صغيرة فيسهل على المستعمر ابتلاعهم ، وعلى المسيحية واليهودية غزوهم فكرياً ودينياً .

فهذه الاتهامات إذن سمٌ قاتل . . يقتل ببطء ، وهو تخدير بالمؤلم كضربة شديدة على الأنف أو تحت الأذن تُسقط المضروب مخدراً فاقد القدرة على التحرك بعض الوقت حتى يسلبه الضارب ما يشاء أن يسلبه منه ، ولهذا فإن الإسلام يأمرنا أن نبتعد عن سماع ما يُفترى على الإسلام ، وأن نعزل المسلمين عن خصومهم فكرياً وعقائدياً : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) فهو يفرض الانسحاب من الجلسات التى تعرض بسوء للإسلام ، وهذا هو أقوى صور الاحتجاج السلبى الذى ينمِّى فى المسلم المناعة ضد الفكر الخبيث ، وهذا هو الذى يفرض علينا أن نرد على المستشرقين .

وعملية التحاجز هذه أسلوب تعرفه سياسة العصر ، بل هو سلاح استعمله الكفار أنفسهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) الأنعام : ٦٨ — (٢) فصلت : ٢٦

وإن عملية تجريح الإسلام ورسوله - حينما تصدر ممن معه السُلْطة العليا في البلاد ، وبيده اقتصاديات ووظائف العباد - يكون أثرها الضار بالغاً ، إذْ تضطر المستضعفين إمَّا إلى الهجرة من البلاد فيصفُو للمستعمرين الجو ، وإما أن يذعنوا ويتظاهروا باعتناق الدين الجديد أو المذهب البديل - أو على الأقل يمشى - مَن لم يهاجر - فى ركاب الغازى ، ويلقى سلاح المقاومة ويصير أداة للمستعمر الظاهر أو المضمر - فيما يزعمه إصلاحاً للبلاد وربما غلَّفه باسم الإسلام ، فتُمسى فى البلاد حركة هدَّامة باسم الإسلام . . وهذا هو الذى وقع فيه - سواء درى أوْ لم يدر - كثيرون من قادة الفكر والسياسِة فى العالم الإسلامى كأحمد لطفى السيد ، وطه حسين ، وسيد أحمد خان الهندى الذى بدأ استرضاء الإنجليز بكتابةِ كتاب يثبتُ أن الإنجيل والتوراة لم يُبدَّلا . فلما لم يرضوا عنه انتحل مذهب الطبيعيين الدهريين ، وزعم أن الأنبياء كانوا طبيعيين ، فراق للشباب ما يدعو إليه ، لأن فيه تبرير التحلل من قيود الشرع كافة ، وأعجب الإنجليزَ اتجاهُه وأسسوا له فى « عليكرة » مدرسة سموها « مدرسة المحمديين » ، ثم الكلية الإنجليزية الشرقية المحمدية التى تسمى الآن الجامعة الإسلامية وذلك ليصطادوا تحت اسمها « المحمديين » أبناء المؤمنين بمحمد ، فيربُّوا على أفكار « أحمد خان » الذى أَخذ يفسر القرآن تفسيراً محرَّفاً ابتدأ فيه من البقرة حتى انتهى إلى سورة الكهف ، ثم أخذ بهذا الأُسلوب يعمل ، فأنشأ جريدة « تهذيب الأَخلاق » التى كان يكتب فيها داعياً إلى التحلل من عُقْدة الأَديان والتعصب لها ، ويُشوِّه تاريخ العثمانيين ، وقد انبرى للرد عليه جمال الدين الأفغانى فى رسالته « الرد على الدهريين » .

وقد افتتن « أحمد خان » بالعلوم الطبيعية ومنطقها الذى يكفر بما وراء المادة من الروحانيات ، ويسَّر له الإنجليز ترويج هذه الأفكار إذْ أنَّ نشرها بين الشباب يجعله يميل إلى دعوى المستعمرين أن النبوة تأتى بالكسب والمجاهدة ، وليست هدية الله للناس ، وما دامت النبوة كذلك فالكتب السماوية - بما فيها القرآن - من كسب الأنبياء وعملهم ، وليست وحياً إلهياً .

وما دامت هذه الكتب بشرية ، فإن مخالفتها ليست مخالفة للسماء ، وكل ما فيها من دعوى تنتسب إلى السماء فهى دعوى زور ، وهذا هو الطريق الفكرى الهادى إلى الكفر بمحمد وبالقرآن . طريق يغزو الشباب بلا مدفع ولا سيف .

وقد ظهر على يد « أحمد خان » فكرة « إنسانية الأديان » ، وهو المعنى الذى يستظل به اليهود تحت لواء الماسونية ، وبناء عليها تكون دعوى « فرضية الجهاد » فى الإسلام قولاً عابثاً ، وحين يسقط الاعتقاد بوجوب الجهاد يسقط السيف من أيدى رجال مقاومة الاستعمار ، بل إن الذين رباهم « أحمد خان » انبروا إلى منازلة الوطنيين فى الصحف والأندية ، وتحول الصراع إلى داخل الأُمة بعد أن كان صراعاً بين الأُمة وبين الأجنبى الدخيل ، وأصبحت مدرسة « أحمد خان بهادرو » ومن بعده القاديانية التى أسسها « ميرزا غلام أحمد القاديانى » المتوفى (عام ١٩٠٨) ، ثم جماعة « لاهور الأحمدية » التى تزعمها كل من « مولاى محمد على » و« خواجه كمال الدين » اللّذين ثارا على القاديانية وقالاً إن « غلام أحمد » مجرد مصلح ، وليس نبياً .

ومهما يكن فقد أصبحت مدرسة « أحمد خان » ، وأتباع القاديانية ، والأحمدية فى جانب - والإمام « أحمد بن عرفان » الشهيد المتوفى سنة ١٨٤٢ فى جانب آخر ، وعلى قدم الشهيد فى الجهاد كان الأفغانى ، ثم محمد إقبال ، ثم أبو الأعلى المودودى ، وأبو الحسن الندوى مؤلف كتاب « القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والإسلام » .

وما حدث فى الهند من قبول للتجريح ، ثم تطور إلى مساندة المجرِّحين حدث فى غيرها من الأمصار الإسلامية تحت ضغط الحاجة وسطوة الاستعمار .

* *

● لماذا الاهتمام بتجريح الرسول :

لقد كان من طُلاب الحكمة الإسلامية فى الجامعات الإسلامية بالأندلس وصقلية أُناس من النصارى وصلوا إلى مقام « البابوية » ، وأُناس ارتفعوا إلى مقام الهداية الفكرية بمعزل عن الكنيسة ، بل على خلاف عقائدها الموروثة المأثورة ، فلما هالهم هذا النفوذ الفكرى وأزعجهم شيوعه فى معاقل الفكر ومعاهد العبادة ، أقبلوا على تأليف الكتب التى اجتهدوا غاية الاجتهاد أن يصبغوها بالصبغة العلمية ليضمنوا رواجها بين طُلاب المعرفة ، آملين أن تكون مقنعة لمن يطلبون الدليل ولا يقبلون أن يُخدعوا بأباطيل الدعاية والتضليل ، وجعلوا همهم كلَّه تشويه الحكمة الإسلامية بتشويه مصدرها الأول ، وتصوير صاحب الدعوة الإسلامية فى صورة بعيدة عن التقديس والاحترام ، ولا حاجة بهم - بعد ذلك - إلى البحث فى دقائق الحكمة وأسرار الفلسفة لتنفير ذوى الأفكار من النبى ورسالته ، لأن تمثيل إنسان مقدَّس فى الصورة التى تنزع القداسة عنه أيسر جداً من عناء الدراسة فى نقض العقائد وإدحاض الأفكار .

ونجاح هذا الأسلوب - فى أكثر الحالات - يتوقف على سهولة الإصغاء إليها فى الجهلاء والأغرار ، بل فى طبائع بعض الفضلاء الذين يسرعون إلى النفور من التهم السوء ، لأنهم يعافون السوء ، ويعرضون عن التفتيش فى دخائله ، وعن التحدث بأخباره أو تضيقُ عقولهم أحياناً عن الجمع بين الاحتراز من قالة السوء ، والاحتراز من قبول هذه القالة بغير دليل [1] ، « ولئن دل هذا التعنت على شيء ، فعلى شدة حرص أصحابه على التشكيك فى الإسلام ، وهم لم يستطيعوا الطعن على هذا الدين لذاته ، وقد رأوه ديناً بلغ غاية السمو مع بساطة ويسر هما مصدر قوته ، لذلك لجئوا إلى حجة العاجز حين يدع الأثر العظيم لا يعرض له بمطعن لأن المطاعن لا ترقى إليه ، فهو يتناول من صَدَر هذا الأثر عنه ، أو كان وسيلته إلى الناس فيجعله هدف مطاعنه ، وهذا عجز لا يلجأ إليه عالِم ، وهو - بعد - مناقض لقانون الطبيعة الإنسانية ،

(١) المستشرقون والإسلام لزكريا هاشم ص ٥٣٦

ففى طبيعة الناس أن يُعنوا بالآثار لذاتها ، وأن يستمتعوا بثمراتها دون بحثٍ لا طائل تحته فى مصدرها ووسيلة حدوثها ونموِّها ، وهم لذلك لا يعنّون أنفسهمَ بالبحث فى أصل الشجرة التى أنبتت الثمرة التى تعجبهم ، ولا فى السماد الذى أدى إلى ازدهارها ما داموا لا يفكرون فى غرس شجرة مثلها ، أو شجرة أشهى منها ثمراً ، وهم حين يبحثون فى فلسفة « أفلاطون » أو مسرحيات « شكسبير » أو فن « روفائيل » لا يتلمسون المطاعن فى حياة هؤلاء العظماء حين لا يجدون على هذه الآثار مطعناً ، فإذا التمسوا المطاعن التى لا سند لها من الحق لم يبلغوا من ذلك غايتهم ، وإن كشفوا عن سوء رأى وحقد يسقط حجتهم ، ويحول دون الاستماع لهم ، ولن يُغيِّر من ذلك أن يُفرَغَ هذا الحقد فى قالب العلْم ، فالحقد لا يعرف الحقيقة ، وكبُرتْ الحقيقة أن يكون الحقد لها مصدراً ، وهذا شأن مطاعن أُولئك المستشرقين على النبى العربى خاتم المرسلين ، ولذلك هوت مطاعنهم إلى الحضيض »[1] .

* *

● **دوافع الانحراف وأسبابه :**

١ - نشأ انحراف المستشرقين عن الحق نتيجة تأثرهم منذ نشأتهم الأولى بالمسيحية وبما كتبه الرهبان عن الإسلام مدفوعين بحب الترويج للمسيحية إلى انتقاص رسول الإسلام ورسالته .

٢ - ونتيجة لفقدان المستشرقين الحسَّ الإسلامى الذى ينمو فى البيئة الإسلامية ويضمُر حتى العدم خارجها ، فافتقدوا القدرة على تذوُّق النصوص وفهمها بالروح التى يتذوق بها المسلم نصوص دينه فيفهم المراد منها . .

٣ - ونتيجة لعدم أصالة المستشرقين فى الدراسات العربية وعدم تمرُّسهم بمناهج البحث الخاصة بالدراسات الإسلامية التى تسمى « علم مصطلح الحديث » ،

---

(١) حياة محمد : لمحمد حسين هيكل ص ٤٢ ، ٤٣ - الطبعة الثانية .

أو « علم الرجال » ، أو « علم أصول الفقه » بل حتى « علم المنطق » ذاته .

٤ - وقد يكون الدافع إلى الانعطاف عن الحق هو الرغبة فى نفاق المجتمع والحاجة إلى رواج ما يُكتب فى المجتمع غير الإسلامى .

٥ - وربما كان هذا كيداً للإسلام ورغبة فى توهين شأنه والغض من شأن رسوله ، لاعتقاد غير المسلمين أن الإسلام هو الصخرة التى يتحصَّن بها ووراءها المسلمون لينجوا من الغزو الدينى والاستعمارى كما قال « جلادستون » ، و« المونيسينور كولى » ، و« لورانس براون » ، و« كالهون سيمون » .

٦ - ويكثر المستشرقون من اتهام الإسلام بأنه دين نُشِر بالسيفِ ليشوهوا بواعث انتشار الإسلام وتلقيه بالقبول .

٧ - وليستثيروا كُتَّاب المسلمين لتلمس مبرِّرات دفاعية غافلين عن طبيعة الإسلام ، وأنه عقيدة وحركة عملية لتحرير الإنسان من كل نظام أو قوة تحُول دون بلاغه للناس ، أو دون إقدارهم على التحرك بحركته ومفاهيمه .

٨ - وفى تقرير لجنة العمل المغربى فى أوروبا أن « سيكارد » قال : « إن الإسلام فى روحه الخاص قوة مخالفة لاحتياجاتنا ورغائبنا ونزعاتنا ، وهذه القوة يمكن تسكينها ، ولا يُستطاع التغلب عليها إلى الأبد ، فمن مصلحتنا أن نعمل ما فى طاقتنا للتقليل منه بين الشعوب الخاضعة لسلطتنا » .

وقال مستشرق آخر : « إن مصالحنا تحتم علينا أن نجعل تَطور المسلمين خارج حوزة الإسلام » .

٩ - وقد يكون السبب فى الخطأ هو جهل المستشرق بالمراد من الكلمة فى العصر الذى قيلت فيه ، فيفسِّرها بالعامية المعاصرة .

وفسَّر بعضهم كلمة « الصعيد » ، وهو الوجه القبلى فى مصر بـ « السَّعيد » لاختلاط الأمر عليه ، وعدم تفرقته بين السين والصاد .

١٠ - وقد يكون السبب هو انضباع [١] المستشرق بثقافة عصره ومجتمعه فيقع فى تفسير الظواهر الاجتماعية والحوادث التاريخية فى الجاهلية والإسلام بالمقاييس التى يُفسِّر بها أحداث عصره ومجتمعه بالرغم من اختلاف الطبائع والمجتمعات ، من عصر لعصر وبيئة لبيئة .

١١ - قد يُراد - عند الكتابة - التنفير من حياة المسلمين الحاضرة والغابرة فتصوَّر فى كتب التاريخ والرحلات بأنها حياة بدائية ، وتبرز من طبائعهم وعاداتهم العادات المنحطة ، ومثال ذلك ما كتبه « سفارى » عند ذكر رثاء قتلى المشركين ، وعند ذكر تناول مندوب قريش لحية النبى يوم الحديبية ، وكثيراً ما تُروَّج الشائعات الكاذبة عن رجالات الإسلام ، وكبار شخصياته التاريخية لطمس معالم العظمة الذاتية فى الإسلام والمسلمين ، كما فعل « سفارى » هذا عند ذكر قصة خالد بن الوليد يوم « جذيمة » ، وذكر شائعة حرق مكتبة الإسكندرية كما بيَّناه فى السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون عند الحديث عن إسلام صناديد قريش (ص ١٧١ - ١٧٢) .

١٢ - وقد يُراد تفتيت الكيان الإسلامى بتمزيق الوحدة الفكرية حول الآراء الغربية والمفاهيم الإسلامية التى جمعت المسلمين أيام قوتهم ، فالمتمزقون فكرياً لا يلتقون سياسيا ولا اقتصادياً ولا عسكرياً ، وهذا هو الذى مهَّد للاستعمار فى الشرق الإسلامى كله .. حتى إذا أفاق - اليوم - وجد هوة يشق معها التلاقى بين أبنائه الذين أمسوا شيَعاً وأحزاباً ، وصاروا كتلاً ضخمة متعادية .

١٣ - وقد يكون الهدف هو شحن المسيحيين واليهود فى غزوهم للعالَم الإسلامى بطاقة تولِّد فيهم الحقد والسخرية والاستصغار لشأن المسلمين عن طريق هذه الصور المشوَّهة للإسلام ولنبيِّه ولمعتنقيه ، حتى يكون الصراع بين الإسلام وخصومه ضارياً ، والتشكيك فى مصدر الإسلام - وهو القرآن - وفى قيمة محتوياته كما سيأتى .

١٤ - وكثيراً ما يكون تفسير الأحداث والنصوص تفسيراً خاطئاً لخدمة

---

(١) الانضباع : التأثر تأثيراً شديداً لا يمكن التخلص منه فى الاتجاه الفكرى ، كالضبع ، يقال : إنه بعنقه عظمة تمنعه من أن يحرك رقبته يمنة أو يسرة كما يشاء ، فكذلك « المضبوعون » بالثقافة الغربية لا يخرجون عن روحها فى تفكيرهم .

الغرض الاستشراقي السياسى والتبشيرى بإبراز أعداء الإسلام فى صور نبيلة وإنسانية ، والغضِّ من شأن الإسلام دعماً لخصوم الإسلام ، وتحقيراً لشأن الإسلام ورجاله فى نفوس الجيل الذى يعمد المستعمرون إلى تربيته على أيدى المستشرقين من طُلابنا فى الغرب حتى يشبَّ الجيل الذى ستُلقَى فى يده مقاليد الأُمور وقد تميَّعت فى نفسه قضايا الإسلام وحقائقه ومقرراته إذا لم يكن قد اقتنع بأنها قضايا منكرة ، ومقرراتٌ فكريةٌ متخلفة يجب عليه حربها بشجاعةٍ باسم الإصلاح والتجديد .

وفى ظل هذا الجيل الذى يربيه المستشرقون فى الغرب - أو فى ديارنا - الجيل الذى يخجل أن ينتسب إلى الإسلام أو يظهر قائماً بشعيرة من شعائره .. فى ظل هذا الجيل لا توجد مقاومة للتسلُّط الأجنبى على البلاد ومقدَّراتها ومعتقداتها ، بل يوجَد العملاءُ الذين يخدمونه ويقمعون بشدة خصوم هذا المتسلِّط الأجنبى الذى يتوارى ويترك فى الواجهة هؤلاء المصنوعين على أيدى المستشرقين .

١٥ - وبعض المستشرقين ملحدٌ آمن بالعلم وكفر بالدين والوحى ، فهاجم محمداً كما هاجم عيسى واتهمه بالجنون ، ومنهم مَن أنكر وجود عيسى وموسى التاريخى .

١٦ - ومن المستشرقين مَن يكتب تاريخ النبى أو بحوثه الإسلامية نقلاً عن مصادر مسيحية لا عربية فيقع فى الخطأ دون أن يدرى .

١٧ - من المستشرقين مَن يعرفون ضعف الروايات التى يذكرونها سواء فى التاريخ والسيرة أو فى الأحكام الشرعية ، وإنما يذكرونها جرياً وراء الغرائب ، ورغبة فى إشباع طبيعة العناد والمخالفة .

كل هذه الأسباب أو الدوافع أَدَّتْ إلى الانحراف ، أو إلى الخطأ فى الفهم ، وجعل ثمار الاستشراق فى مجال الدراسات الإسلامية بعامة - والسيرة النبوية بوجه خاص - ثماراً فجَّة ، وغير صالحة للتناول ، ولا موثوقاً بها ، حتى قال الدكتور حسين الهراوى فى نقده كتاب « درمنجم » : « إننا لا نجد فى كتابات المستشرقين عن الدين إلا الغمز واللَّمز » .

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

الفصل الأول : الاستشراق وأهدافه

(١١ - ١٧٤)

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الفصل الثانى : تاريخ الاستشراق

(١٧٥ - ٢٠٦)

الصفحة

الفصل الثالث : النظرة إلى المستشرقين وكتاباتهم

(٢٠٧ - ٢٨٤)

الصفحة

الصفحة

* * *

كتب للمؤلف

١ - المرأة فى التصور الإسلامى .

٢ - الناسخ والمنسوخ بين الإثبات والنفى (النسخ فى الشريعة الإسلامية كما أفهمه) .

٣ - لا نسخ فى القرآن . . لماذا ؟

٤ - لا نسخ فى السنة (فى أحاديث : العقائد ، وأحكام العبادات ، والمعاملات ، والجهاد ، والقضاء) .

٥ - جريمة الزواج بغير المسلمات . . فقهاً وسياسة .

٦ - نظام الحكم فى الإسلام . . بأقلام فلاسفة النصارى .

٧ - الضَّالون . . كما صوّرهم القرآن الكريم .

٨ - حجية السُّنَّة ومصطلحات المحدِّثين وأعلامهم .

٩ - المشتهر من الحديث . . الموضوع والضعيف ، والبديل الصحيح .

١٠ - السيرة النبوية . . وأوهام المستشرقين .

١١ - الحضارة والتمدن الإسلامى . . بأقلام فلاسفة النصارى .

١٢- الاستشراق . . وجه للاستعمار الفكرى .

١٣- مقتل العرب فى صراعاتهم منذ فجر التاريخ .

١٤ - أصالة الدواوين والنقود العربية .

١٥ - ما حكم التصوير . . والنرد . . والشطرنج

١٦ - نبأ ابنى آدم . . بذرة التشريع الجنائى .

١٧ - عالمية رسالة الإسلام .

رقم الإيداع ٧٥٧٨ / ١٩٩٥م
I.S.B.N 977 - 225 - 079 - 9

كتب للمؤلف

فى الفقه وأصوله :

* الناسخ والمنسوخ بين الاثبات والنفى
(النسخ فى الشريعة الإسلامية كما أفهمه) مكتبة وهبة
* لانسخ فى القرآن . . لماذا ؟ مكتبة وهبة
* جريمة الزواج بغير المسلمات . . فقهاً وسياسة مكتبة وهبة
* ما حكم التصوير ، والنرد ، والشطرنج مكتبة وهبة

فى علوم السنة :

* لانسخ فى السنة (فى أحاديث العقائد ، وأحكام العبادات ، والمعاملات ، والجهاد ، والقضاء) مكتبة وهبة
* حجية السنة ومصطلحات المحدثين وأعلامهم مكتبة وهبة
* المشتهر من الحديث . . الموضوع والضعيف، والبديل الصحيح مكتبة وهبة

فى التفسير وأصوله :

* الضالون . . كما صوَّرهم القرآن الكريم مكتبة وهبة
* شطحات مصطفى محمود فى تفسيراته العصرية للقرآن دار الاعتصام
* المصطلحات الأربعة بين المودودى ومحمد عبده دار الاعتصام

فى التربية الإسلامية :

* المرأة فى التصور الإسلامى مكتبة وهبة
* المسلمة العصرية عند باحثة البادية دار الأنصار

فى التاريخ السياسى والإسلامى :

* السيرة النبوية . . وأوهام المستشرقين مكتبة وهبة
* الحضارة والتمدن . . بأقلام فلاسفة النصارى مكتبة وهبة
* نظام الحكم فى الإسلام . . بأقلام فلاسفة النصارى مكتبة وهبة
* مقتل العرب فى صراعاتهم منذ فجر التاريخ مكتبة وهبة
* نبأ ابنى آدم . . بذرة التشريع الجنائى مكتبة وهبة
* الاستشراق . . وجه للاستعمار الفكرى مكتبة وهبة
* عالمية رسالة الإسلام مكتبة وهبة
* أصالة الدواوين والنقود العربية مكتبة وهبة
* لماذا اغتيل الشهيد حسن البنا ؟ دارالاعتصام
* الناصرية . . فى قفص الاتهام دار الاعتصام
* نسيج وحده : عمير بن سعد دار اليقظة أنديانا بلس بأمريكا